رواية

Arab_Books

بنادق النبي

سالم حميد

سطور

سالم حميد

بنادق النبي

بنادق النبي

RIFLES OF THE PROPHET

سالم حميد

Salem Hameed

الطبعة الأولى: 2017
إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07700492576 - email: bal_alame@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلف سالم حميد، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين.

First Published by Dar Sutour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry
Revised copyright © Dar Sotour And Salem Hameed, The right of the Author of this work has been asserted in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988.

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، أو محررها، أو الجهة الصادرة عنها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 257 - 8

رواية

سالم حميد

بنادق النبي

Telegram: @Arab_Books2

تنويه

كل الآراء التي وردت على لسان أبطال هذه الرواية تخص معتنقيها، أي أصحاب الأديان الأخرى، وهذا ما يجري في الواقع حينما يتناقش المسلم مع المختلف من الأديان الأخرى، ولا علاقة للروائي ولا لدار النشر بها... فـ«ناقل الكفر ليس بكافر».. لهذا اقتضى التنويه.

«سأحمل نفسي إلى السماء، وسيدوم مكوثي في القصور السماوية عاماً كاملاً، وسأعود من السماء إلى الأرض عند انتهاء الشهر الثاني عشر من موتي، وسأجلب لكم البشائر من الرب».. ماني بن فاتك.

الفصل الأول

يُقال: إن أحد الدراويش جَمع تلاميذه يوماً، وقال لهم: هذا آخر يوم لي معكم، لأنني سأموت في هذه الليلة، ومن سيموت بدلاً عني سيكون هو الدرويش الذي سيخلفني بعد موتي..

فاعترضوا قائلين: كيف يكون هذا وقد مات قبلك!

قال لهم: هذه نبوءتي، ومن يؤمن بها ويَموت بدلاً عني سيحصل على السرّ الأعظم، وسَيُكشف عن بصره الغِطاء، وسيكون هو الدرويش من بعدي، وهو من سيلقي الدروس على كل المريدين، فتفرقوا جميعهم إلا تلميذاً واحداً ظل جالساً في حلقة الدرس.

فقال له الدرويش: أنت مستعد لتموت بدلاً عني.. إذن؟

هزّ التلميذ رأسه موافقاً بعد أن اعتدل بجلسته، وكأنه ينتظر أمراً ما.

جلس الواحد مقابل الآخر، وظلّ الدرويش يقرأ ويعيد عليه دروس أسرار التقمص والحلول، بِدءاً بالتقمص البشري والحيواني، وتعدّاه إلى الحلول والتقمص في الأشياء والموت قبل الأوان، حتى صار المعلم لقلقاً، وصار التلميذ بيضةً على وشك التفقيس، ثم عادا ليجلسا من جديد، وعادت عيونهما تحدق ببعضهما.. فعلّمه بعض الأسرار بحيث

صار التلميذ بيضة من جديد، لكنها فقست عن فرخ، ثم كبر حتى صار لقلقاً وطار بعيداً، ثم عاد إلى غرفة الدرس ليجلس أمام الدرويش...

ولمّا حلّ منتصف الليل، أمر الدرويش تلميذه بالخروج للتجول في أسواق المدينة، فقال التلميذ: إذا خَرجتُ في منتصف الليل سَيشنقونني، ألا تعلم يا مولانا أن هذه جريمةٌ وقد سنَّ لها السلطان حُكماً؟

قال: أعلم ذلك، ولكنك ستموت بدلاً عني كما اتفقنا.

خرج التلميذ في منتصف الليل، وراح يسير بخُطى وجلة في الأزقة الخاوية، يتبعه الدرويش من بعيد، وعندما ألقت الشرطة القبض عليه، أسرع الدرويش إليهم معترضاً وقال: اتركوه وأعدموني بدلاً عنه، فأنا قد أمرته بالخروج بذلك.

احتار التلميذ بشأن الدرويش، وعرف أن هناك أمراً سيُكشف عنه عاجلاً أم آجلاً، ولمّا لم يفهم أفراد الشرطة هذه المسألة قرروا أخذهما إلى قائد الشرطة، احتار القائد بأمرهم وعرف أن هناك مكيدة، وخشيَ أن يفوته شيءٌ، ولكي يتجنب فيما بعد التبعات التي قد تترتب عليها.. قدّمهم إلى السلطان.

أَسرَّ قائد الشرطة في أذن السلطان شيئاً، فهزّ السلطان رأسه.. ثم قال للدرويش:

سوف أَشنِق هذا التلميذ الغبي الذي يتبعك بعيون مُغمضة.

فقال الدرويش: لا.. يا مولاي هو الأذكى بين تلاميذي، ولكنه استطاع أن يسرق السُرّ مني.. إعدمني أنا أولاً..

فقال السلطان: لماذا تتسابقان على الموت... وما هذا السُرّ الغريب الذي تكتمانه عنا!؟

ولمّا لزم الدرويش الصمت، أمر بجلده هو وتلميذه حتى يعترفا بالأمر، وما إن انهال الجلادون عليهما بالسياط حتى صرخ الدرويش: سأعترف، جيءَ بهما للاعتراف أمام السلطان.

قال السلطان: إذا كان لديك ما تقوله غير الجنون فهيا تكلم.. لقد سببت لي الصداع في هذه الليلة.

قال الدرويش وهو يتألم: نعم يا مولاي سأعترف...

قال: إن من يموت قتلاً في هذه الليلة، سوف يُخلد إلى الأبد، وهذا التلميذ سرق السرّ مني.. فسبقني وراح يتجول في أزقة المدينة ليلاً حتى تعدموه.

هزّ التلميذ رأسه تأييداً لكلام أستاذه... وحدثت جلبة بين أفراد الحرس، أنهاها السلطان بإيماءةٍ من يده، وظل لبرهة مندهشاً لا يلوي على الكلام ثم قال: وكيف عرفت ذلك؟

قال الدرويش: هذه مسائل روحانية، عرفانية، وحسابات فلكية تتعلق بالقمر والنجوم، وأمرها من الله.. وكنت أنتظر بفارغ الصبر هذه الليلة التي لن تتكرر إلا كُلّ ألف عام... ولكن هذا التلميذ عرف كيف يتوصل إلى هذا العلم ليسبقني في الموت.

صمت السلطان وأراد أن يتكلم، إلا أنه أحجم وتردد، ثم أغمض عينيه، وأمر قائد الشرطة أن يقتله في الحال، فتردد القائد..

وقال: ماذا تقصد يا مولاي!؟

قال السلطان: أريدك أن تقتلني بدلاً عن هذا الدرويش اللعين.

قال قائد الشرطة بفزع: لا، يا مولاي لا أستطيع! فصرخ السلطان: هيا اقتلني.. أيها الغبي.

هذه الحكاية تناقلتها أَلسُن الناس من زمن إلى آخر، ومن أُمة إلى أخرى، حتى طالها الكثير من التغيير، لأن اللسان متكون من عضلات عديدة، مرتبطة من طرف واحد، وسائبة من الطرف الآخر، وللّسان حرية لا تشبه أي حرية أُخرى، ولكنه خاضع أيمّا خضوع للدماغ وللقلب في الوقت ذاته، وإلى المخيلة والتي هي من اختصاصها سرد الحكايات، وتصويرها بما يرضي توجه الناس، ولمّا وصلت هذه الحكاية إلى «إدريس شاه» دوّنها في كتابه «أخبار حكماء الشرق»، منهياً التلاعب والتشوه في متنها التاريخي، وهي الحكاية التاريخية نفسها، أو الحادثة التي حصلت فعلاً في عام 277 ميلادية، في المدائن إحدى بلدات بابل.. السلطان في هذه الحكاية هو الملك الساساني بَهرام، لكن هذه الخدعة لم تنطلِ عليه، ولم ينخدع كما في هذه الحكاية المتخيلة، ولم يأمر بقتل نفسه، بل ضحك كثيراً هو وكبير الكهنة الزرادشتي «كردير»، فقرر أن ينهي حياة الدرويش وتلميذه معاً، ولكن بصورة تدريجية حتى لا يقتله قتلاً، ولم يستخدموا أي آلة أو شيء من هذا القبيل.. ربما خوفاً من نبوءته، وما الدرويش في هذه الحكاية إلا «النبي ماني» البابلي، وما تلميذه إلا «مالك أوس»...

أُثقل النبي ماني بالقيود، وأُلقيَّ في السجن هو وتلميذه، ولم تمرّ

سوى أيام حتى انتهت حياة النبي ماني، ولكنها لم تنتهِ في مخيلة أتباعه، إذ إنهم يسمونه ماني الحي، ويُعتَقد أنه سيعود من السماء يحمل البشائر من الله ليتقمص أجساد الآخرين، ويقودهم وينقل تعاليمه عبرهم، أما كيف يختار الأجساد التي يتقمصها؟.. فهذه الأمور لا أحد يعرفها غيره، وقد تمرّ قرون حتى يختار له جسداً، ولسوء حظ «أسمر» أن اختاره النبي ماني وتقمصته الروح الهائمة، فيبدو لمعظم الناس بأنه شخص غريب الأطوار، وزاد من ذلك اسمه الذي يعاكس لونه الأشقر، ورسوماته الغريبة الأشكال وتصرفاته الأخرى.

* * *

وفي مطلع شهر نيسان عام 2003، استطاعت كتيبة من الدبابات نوع (ابرامز) أن تتوغل في بغداد، وتعبر على أحد جسور دجلة، ولعله جسر الجمهورية، تحت المظلة الوهمية التي صنعتها طائرات الشبح، وقد ظهرت هذه الدبابات من خلال نافذة الفندق ومن خلف وزير الإعلام العراقي، الذي كان يَعقد مؤتمراً صحفياً، فسأله أحد الصحفيين عن إمكانية دخول جيش التحالف إلى بغداد، فرد الوزير صارخاً: (لن تسقط بغداد.. ولن تسقط، وهذه مجرد دعايات يطلقها العلوج).

رسم الصحفي ابتسامة ماكرة، بينما كان يشاهد الدبابات الأمريكية وكأنها حشرات ضخمة وهي تَدُب ممتطية ظهر جسر الجمهورية المحدودب.

كان «أسمر» في هذا الوقت يتابع المؤتمر عن طريق راديو «سوا» في

الوقت الذي كانت فيه أركان «سوق زبيّد» تهتز بفعل القصف الذي تنفذه الطائرات المتوارية خلف السحاب، وما أن أنتهت هذه الأخبار، حتى تخيل كيف سيكون الوضع في البلاد.. وزاد هذا الأمر المريب القلق الذي كان يدور في رأسه منذ أن تسلل إلى مدينته التي فارقها منذ عام 1991ولا بدَّ له أن يقلق وهو في مكان عام كـ(سوق زبيَّد).

ولمّا أَدارَ موجة الراديو عشوائياً سمع مذيعاً بصوت عميق بلكنة مغربية، فخفض صوت الراديو قليلاً، ثم سمع عدة أصوات بلغات مختلفة، لكن هذا الصوت كان جاذباً وهو يقرأ تقريراً عن إنهاء الحكم الشمولي القومي الذي أمسك بخناق العراق لحوالي نصف قرن، كاد أن يختفي هذا الصوت، بعد أن اهتزّ سوق زبيّد بفعل القصف الذي استهدف مكان ما، وظهرت أغنية ريفية كأن منشدها ينوح على أنكيدو، ثم أعاد أسمر الراديو على وضعه السابق، فقرأ المذيع تصريحات رؤساء بعض الدول عن مبررات إسقاط النظام الشمولي في العراق، فقد قال أحدهم: على العالم أن لا ينتظر كارثة نووية أو كيمياوية من هذا النظام، وقال آخر: إن ضحايا الشعب العراقي من هذا النظام تزداد بشكل مخيف، وعلّقَ المذيع على هذين التصريحين قائلاً: وكأن هذه الدول لم تدعم هذا النظام في حروبه الكثيرة! وقال مستغرباً: إن دول الخليج العربي المجاورة قد فتحت حدودها وقواعدها العسكرية أمام اليد الغربية الضاربة، بينما لم تسمح تركيا في إستخدام أراضيها لضرب العراق مع إنها عضو في حلف الناتو، وكذلك لم تسمح إيران للغرب بإستخدام أراضيها لفتح العراق، بينما هي العدو التقليدي للمدّ القومي العربي، وأضاف قائلاً: يبدو أن معادلات جديدة قد نشأت في

العالم، ربما هي معادلات طائفية لا أكثر.. معادلات سننتظر منها ما هو أغرب، لكن هذه الجملة الأخيرة لم يسمعها أسمر لأنه غطّ في نومة مفاجأة، وشاهد في منامه أشكالاً مخيفة تتابع خطاه الوجلة.. فتتضح أحياناً لتبدو مثل ظلال بشرية تتضخم وتصغر، ثم تذوب أشكالها الهلامية وتتلاشى في البُعد.

* * *

اسمي « أسمر بن شولي»، ولدت في عام 1976م في مدينة العماره، وتحديداً في سوق زبيّد، ولادة غير معروفة وغامضة، سمعت من أصدقائي الكثير عنها، إذ إن أمي وأبي لم يتحدثا عنها أبداً، المهم، حسب الطبّ النفسي: أنا أعاني من انفصام في الشخصية، وحسب الروحانيين: تتقمصني روح لم يتم التعرف على هويتها بعد، غير أنني أعرف أنها تعود لرجل مانوي مجهول، أو ربما لأحد تلاميذ النبي ماني أو للنبي ماني نفسه، وقد تقبلت هذه الروح الغريبة في جسدي على مضض، ثم اعتدت على الأمر شيئاً فشيئاً، وبدأت أعتاد على وجوده في ذهني، أما الآن فلا أتصور نفسي بدون هذا «المانوي» الذي ينام ويصحو معي، ربما لا يمكنني تحمل الوحدة، ولا يمكن أن أتخيل خروجه من نفسي، فأنا وهو نتقاسم هذا الجسد منذ أن قرأت مسودة كتاب «النبي ماني»، لكن الأمر لا عدالة فيه، لأنني أنا من يتحمل الآلام والمعاناة، بينما هو لا يشاركني إلا في الآراء، ويحذرني ويذكرني بالأمور التي قد تغيب عن بالي، فها أنا أدور في سوق زبيّد، لا لأبحث عن الشرطة التي تُلقي بي في السجن ليتم إعدامي، ومن ثم أعود خالداً

إلى الأبد مثل نبوءة الدرويش، لا، ما هو مطلوب مني هو: معرفة ما يدور في مدينة العماره، أي التجسس على حزب البعث والسلطة تحديداً، لئلا ترفس رفسة الموت الأخيرة، وتضرب بأسلحة كيمياوية مثلاً، أو أن تعد كميناً للمعارضة التي تنتظر الفرصة في الدخول إلى المدينة.. وقدّمتُ إلى الآن بعض التقارير، نقلتها لهم عبر الأثير من خلال جهاز اتصال الثريا، قدّمتُ أحدها بينما كنت قريباً من المجنون (عباس بن نوميه)، وهو من أعطاني كل هذه الأخبار والمعلومات، وكنت أعلم بأنها ليست دقيقة تماماً، لذا فقد أضفت لها وألغيت بعضها لتكون اخباراً عاقلة لا مجنونة، ولقائي بهذا المجنون جعلني أفكر بالجنون وأتخيله أيضاً حينما يصيبني وأُجنّ، أقصد عندما أنهي عملي هذا مع الأحزاب الدينية، لأنني لست متديناً مثل بقية الأعضاء المتشددين، ولا أعتقد أن هناك طريقةً أخرى، يمكن أن تخلصني من تعذيب هذه الدنيا غير هذا الجنون، وقلت في نفسي: كيف لم أجنّ إلى الآن وفي رأسي هذا المانوي وبعدما عرفت أن مجنون سوق زبيد هرب من الجيش، ثم تظاهر بالجنون للخلاص من رفاق الحزب، لكنه شيئاً فشيئاً صار مجنوناً، كَبرَ في رأسي سؤال الجنون.. ففكرت أن أرسمه.. ولمّا لم أستطع تخيله أجّلت أمره لظروف أخرى، عرفت من خلال مجنون سوق زبيد أن الناس تعتقد أنني ميت، فثمة دعاية تقول تم إعدامي في أيام الانتفاضة الشعبانية، وربما هذه الدعاية هي من قتلت أمي... رسمت بإصبعي على التراب نفسي وهي ميتة، دون أن أنظر إلى يدي، وهي تخطّ عبر الظلام، ثم رسمت هيكلاً عظمياً فمسحته بسرعة، ورسمت هيئة المجنون عباس بن نوميه، ثم رسمت

جثة الجندي التي ظلت عارية، وحاولت أن أرسم رائحته التي تنبعث الآن من ثيابه التي أرتديها.

* * *

أنا «المانوي «الذي يتقمص جسد أسمر، وأنا لا أعرف هل أنا النبي ماني نفسه أم واحد من أتباعه.. فالأرواح ليست لها ذاكرة واضحة، وحتى لو كنت أعرف فلن أصرّح أبداً بهذه الحقيقة، وليس صحيحاً من أنني لا أتألم ولا أعاني كما يدّعي صاحبي أسمر، ففي أحيانٍ كثيرة لا يستشيرني، وإنما يتخذ قرارات مستعجلة ومتهورة، فدخوله في الأحزاب الدينية المتطرفة كانت محاولة بائسة للعيش تحت مظلة سلطة وهمية. فكما كان يقول: إن الحزب يسند وجوده في الغربة، ويمدّه بالمساعدات التي تأتي من الأمم المتحدة، بينما كان رأيي غير ذلك، فإيران بلد واسع، بحيث يمكن للمرء أن يعيش من كد يده، فما أجمل أن تعمل بائع صحف متجول في أزقة طهران القديمة، أو تعمل في تجليد الكتب وتزويقها، أو ترسم وجوه الناس أو السواح في أصفهان، أو تؤجر محلاً صغيراً لتبيع فيه التحف والأشياء الأثرية في تبريز، عمل مثل هذا يعطي للمرء فرصة لدخول البيوت الثرية، لشراء التحف والسجاد الكاشاني أو التبريزي الثمين، وربما يمكن أن تحدث علاقات مع النساء الأرامل، اللائي فقدنَ أزواجهنّ بطريقة ما، مثل انضمام الزوج إلى مجاهدي خلق أو منظمات أخرى من هذا النوع، بحيث يضطر إلى الهروب خارج إيران، لتبقى عائلته منسية لتتنازل شيئاً فشيئاً عن هيبة الغنى، وبيع الأثاث وأشياء أخرى هي مكملة للأبهة، لا تعني للمرأة التي ترملت أو من تُحسب على

هذه الشاكلة بشيء، أو ربما يمكن أن تحدث علاقة مع عائلة عراقية سَفّرتهم السلطات العراقية قبل الحرب العراقية الإيرانية، وظلت هذه العائلة تحنّ إلى أي عراقي يذكرها بالعراق، ويمكن أن يتزوج المرء ويعيش هكذا بلا أحزاب ولا سياسة، مشكلتي مع صاحبي أو شريكي في هذا الجسد هي السياسة، والمشكلة الأخرى مع صاحبي هذا هي من يملك الجسد؟ وللنساء حكاية أخرى، قد يكون أسمر على حق حينما يعتبرني دخيلاً، يقول: أنت روح هائمة أو طيف، ربما تعود إلى النبي ماني أو أحد أتباعه المقربين، الذي استطاع أن يهرب من جسده قبل أن يموت، فـ«النبي ماني» لم يتأكد من موته أحد، وأما الجثة التي عُلِقت على بوابة «جندشابور» فلم يتأكد أي أحد من أتباع ماني منها تماماً، فأتباعه كانوا مطاردين في ذاك الوقت من كل الأديان، من الزرادشتية ومن المسيحية ومن اليهودية ومن المندائية، لأن النبي ماني حاول أن يُذوّب هذه الأديان في بوتقة واحدة، ويمزج ديانات الغرب مع ديانات الشرق، ديانات السماء مع ديانات الأرض.. هكذا تمتزج كلها في بابل قلب الأرض، ويتخلص الإنسان من الأديان المتصارعة فيما بينها، تلك التي أُوِّلتْ ثم حُرفت لتخدم الحكام وتُثبت عروش الملوك، جمع النبي ماني كل تعاليم الأديان ليخلق منها ديناً كونياً خالياً من الأحكام المتطرفة ومِن كره الآخر، دين حبٍّ وسلام، لكنهم بدلاً من أن يستجيبوا لدعوته اجتمعوا على قتله وإبادة أتباعه...

وها أنا أتفق مع أسمر حيناً، ونتصارع ونتقاطع في أحيان كثيرة، فأنا مانوي وهو مسلم، أنا أقول: إن النبي ماني هو خاتم الأنبياء، وهو أقدم بهذا الادّعاء، بينما هو لا يتفق معي ويقول نبي الإسلام هو خاتم

الأنبياء... وفي النهاية نُسلم بأن القدر هو من وضعنا في هذا الموضع، وميول صديقي أسمر إلى السياسة لا يتعبني ويؤرقني فقط، بل يسبب القطيعة بيني وبينه أحياناً، فكل المكابدات هو من يزجني فيها، لأن الإنسان عادة لا يأخذ بالنصائح التي تأتيه جاهزة، يريد أن يجرب بنفسه كل شيء، وهذه هي النتائج التي حصلنا عليها، كانت كلها من طيش صاحبي أو شريكي، صحيح أن هناك أشياء يمكن لي أن أشعر بها، لكنه لا يستطيع استشعارها، بينما الألم والأحاسيس الأخرى التي تنتابه قد لا أتحسسها، ولكنني قد أصدقها، فصديقنا «مالك أوس» وهو عراقي مُسفّر، كان له تأثير خاص على أسمر، إذ يشعر بأنه يعرف هذا الرجل من قبل وقال لي: إن مالك أوس هو واحدٌ من تلاميذ النبي ماني، وقال بأن اسمه ورد بمخطوطة النبي ماني، قلت له إنني أعرف الكثير من الأسرار عن هذا الرجل، ولكنني لست مضطراً للحديث عنه...

فذات مرة اقترح مالك أوس على أسمر بالذهاب إلى أماكن خاصة للقاء النساء، والزواج بطريقة المتعة أو الزواج المنقطع، لكن ما أثار انتباهنا أن صديقنا ليس من هذا النوع، فهو يفكر بالأشياء السامية دائماً، وبغض النظر عن شرعية هذه العملية، فأنا لا أفضل ارتياد الأماكن التي فيها رائحة الأنثى، ربما لأنها تخالف تعاليم النبي ماني الذي يقول: على رجل الدين أن يبتعد عن النساء وليزهد عن الدنيا، ولكن تحريم النساء يخص رجال الدين فقط، كلانا أنا وصديقي أسمر نتفق على أن زواج المتعة دعارة تمت إباحتها عن طريق الشرع المقدس، وليس لدينا اعتراض على ذلك.. ما دام المرء يفرغ الضغط الذي تولده الشهوة الجنسية، وهو يشبه الزواج العرفي، أو زواج المسيار عند

بعض الطوائف الإسلامية، وهذا الزواج من مكتشفات رجال الديانات السومرية القديمة.. وهؤلاء قد اكتشفوا العُهر المقدس، وقد استخدموا المومسات المقدسات اللائي كنَّ يعشنَ في المعابد، وللكهنة ورجال الدين طرقهم الخاصة في التمتع في الحياة، ومثلما اكتشف الشعب السومري الكتابة والقوانين والسنن الوضعية، اكتشف كهنتهم طرقا للعيش الرغيد.. لكي يأكُل كهنة سومر اللحم اكتشفوا الأضحية، التي لا تزال معروفة حتى هذا الزمان، وكانوا يسمونها التَقدُمة، وهي لا تقتصر على الذبائح فقط، وهناك طوائف شيوخها يقرأون على السكين قبل نحر الأضحية، لكي يستلموا في النهاية حصصهم من الذبيحة، وكأنهم مشاركون بها ويقولون: نستلم حصصنا من الذبيحة مقابل قراءتنا على سكين الذبح.. وهذه من وظائفنا..

المهم، ذهبنا إلى مكان سري لزواج المتعة، كنا ثلاثة رجال، ولكننا كنا اثنين فقط في نظر هذا المعمم، إذ إنه لا يراني ولا يشعر بوجودي، المهم، عرض علينا الرجل القيّم على المكان المواصفات المطلوبة مثل عمر المرأة، لونها، رشيقة أم ممتلئة، طويلة أم قصيرة، ومن هذه الأمور، ثم تكلم عن الأسعار.. قال صاحبي لهذا الرجل: أريدها امرأة عراقية ممتلئة بيضاء، ومتوسطة القامة، اعترضت على أسمر لأنني كنت أريدها سمراء رشيقة تميل إلى الطول، فتذكرت بقرة اليهود وأوصافها.. أما مالك أوس فأرادها أن تكون شقراء، ولا خيارات أخرى لديه، المهم عنده أن تكون شقراء.. انتظرنا النساء في نفس المكان، وحين حضرنَ هرب مالك أوس فجأة، وارتبكت المرأة الشقراء التي كان مالك أوس يفضلها، وانزوت ترتجف خلف الرجل القيّم على المكان، الذي كان

يعقد زواج المتعة بيننا وبين المرأة التي يفضلها صاحبي، تمتعنا مع هذه المرأة لساعات، وعند خروجنا لم نجد المرأة الشقراء، وكان الرجل القيّم هو المرتبك هذه المرة، سأله أسمر فأجاب: صاحبك مالك أوس هو أخو المرأة الشقراء!! ولمّا عدنا إلى البيت الذي نسكنه، وجدنا مالك أوس مشنوقاً، تتدلى جثته من مروحة السقف، وتحت قدميه الكرسي الخشبي الذي نستخدمه في الجلوس في الشرفة الصغيرة، لم أستطع أن أتفاهم مع صاحبي أسمر، فرجع راكضاً عبر الأزقة الضيقة للوصول إلى أقرب مركز للشرطة، دخل عليهم لاهثاً، واستطاع أن يفهمهم بما حدث من خلال أنفاسه المتلاحقة، ركب في سيارة الشرطة التي انطلقت بنا إلى السكن، ولما دخل الشرطيان لم نجد مالك أوس مشنوقاً كما قبل قليل، ولم يكن الكرسي الخشبي مقلوباً، بل كان في مكانه في الشرفة الصغيرة!

* * *

لا أخفي الأمر على صديقي المانوي الذي يجول في خاطري، لينتقدني مرة ويسدد آرائي مرة أخرى، فالعمل في السياسة كاللعب في النار، لا بد أن يصيبك شيء من لهيبها، وللأسف لم أنتصح بنصيحته، وها أنا متورط وليس أمامي إلا حيلها القذرة...

لما نزعوا الثياب عن جثة الجندي لأرتديها، شعرت بالقرف حينها وكدت أتقيأ، فلم يكن بمقدوري أن أعرف كم ظلت هذه الملابس على جثة الجندي، وحاولت بطريقة كنتُ قد تعلمتها يوماً من مالك أوس، وهي كيف أهرب من اللحظات المؤلمة، ولا أدري هل هرب مالك أوس من لحظاته المؤلمة، أم إن الأمر به خدعة لا أعرفها. ارتديت

ثياب الجندي الميت، وكانت ثياباً كاكية لوّحتها الشمس طويلاً، فصرتُ جندياً عراقياً فاراً من حرب لا يؤمن بجدواها.. جندياً يحاول الهروب من وحدته العسكرية قبل الهروب من الموت، وشعرت بالإنهاك من المشي ومن طول المسافات التي قطعها جندي تحت تهديد الطائرات، كان للهزيمة طعم تذوقته مراً، وكان مذاق الانتقام من الذي زجّنا بحرب مدمرة لا معنى لها أكثر مرارة وأقسى، وكان أمل الوصول إلى البيت قبل أمل النجاة يلوح بين عينَيَّ المرهقتين، لكنّ أملاً بالخلاص من الظلم باتَ قريباً، غير أنه يبدو لي في لحظات اليأس تلك مثل السراب...

مشيت مع شلة من جنودٍ تحاول الابتعاد عن الطريق العام تجنباً لفدائيي صدام وأمثالهم، وتجنباً من قصف الطائرات، كنا نمر على أنهر ميتة جفت وغادرها الماء منذ زمن، ولم يبقَ إلا وهم جريانه الخفي، كانت هناك بيوت لقرى تهدمت وظهرت أضلاع هياكلها الخربة مثل حيوانات نافقة من زمن بعيد، ورأينا بقايا جذوع نخيل جفت واغبرت ونُخرت جذورها الميتة، ورأينا حفراً قريبة من الطريق المعبد.. حفرٌ مجهولة كأنما حفرها جنود متعبون مثلنا وغادروها في ليلٍ ما، سمعنا قبرة تزقزق بين شجيرة طرفاء مغبرة، ورأينا آثاراً لحيوانات تركت بصمات حوافرها قريبة من بركة لمياه راكدة وتلاشت هذه الدواب مع الزمن المتلاشي... ورأيت كلباً يتوسلنا بعيونه، فتذكرت ما كانت تقوله أمي: كانت الحيوانات في الأزمان السالفة تتكلم، كانت أمي تقول ذلك قبل أن تبدأ بحكايتها الغريبة، وكأنما تعطي مشروعية لكائنات المخيلة أن تتحدث، فلما شاهدت المعاني الغريبة في عيون الكلب، التي كأنها تتساءل عن أشياء لا يمكن الوصول إلى معانيها، فعرفت حينها كيف

تتكلم الحيوانات، فكرتُ أن أرسمه في خيالي، قبل أن أرسمه على اللوحة، هكذا منـزوياً في حفرة ولم يظهر من جسده إلا رأسه وقائمتاه الأماميتان، ولا شيء غير الظلام الذي يحتل بقية اللوحة، ويملأ فتحتها ذلك اللون الغريب الممزوج بالظلام والغموض، الذي ينسحب من نظرة الكلب للوجود وللجنود الذين هربوا من جبهات القتال، كان الكلب لا يمثل لهم أيُّ شيء، بينما تسمرتُ أنا للحظاتٍ أُحدق بعيون ذلك الكلب الشريد، وشعرتُ بخوف يشبه مخاوف الكلب من مصيره.

وحسب الخطة التي وضعت لي.. انضممت أولاً إلى شلة من الجنود، وهم يسحبون خطاهم المتعبة من جرّاء المسافات التي قطعوها تحت قصف الطائرات، ولمّا قطعنا منتصف المسافة بين مواضع جماعتنا، ومواضع رفاق البعث وفدائيي صدام، وكانت طائرات التحالف الدولي تشخر في زاوية ما من السماء، لم أحاول أن أقلد مشية الجنود المتعبين، لأن ذلك الشعور قد سيطر عليّ وتلبسني ما إن مشيت معهم، وبدا وكأنني قطعت معهم كل هذه المسافات، وها هو الإرهاق يحل بجسدي الواهن وينهكه كما ينهكهم، ولمّا شاهدت أطلال مدينة العمارة من بعيد اعترتني فجأة موجة من الخوف، وانتابني قلق، هو ذات القلق الذي ساورني قبل ثلاثة عشر عاماً، أعني عام الانتفاضة التي حدثت عام 1991 عندما هربت إلى إيران، وقد ودعتني بذلك المشهد الذي حاولت رسمه مراراً ولم أنجح، لكن الآن قد اكتمل المشهد في مخيلتي وصار بإمكاني أن أرسم ذلك بسهولة.

شعرت بعيون البعثيين تحدق بثيابي المستعارة.. أو هكذا كنت أعتقد، فإنْ كانت نظراتهم تنفذ إلى أفكاري ومخططاتي، فإنَّ جسدي

سيقاوم بطريقة ما، مثلما كان يخبرني صديقي مالك أوس، لذا فإنَّ احمرار الغروب لم يزد من شدة احمرار وجهي، وإنما وجهي القلق يحاول أن يخفي أو يقاوم تلك النظرات، ليخلط كل شيء مع المحيط، تذكرت كيف اختفى مالك أوس، بينما تركته معلقاً من رقبته بحبل غليظ في المروحة السقفية، ولما عدت بصحبة الشرطة الإيرانية لم نجد أي شيء، ضحكوا عليّ في وقتها وعبروا: إن هذا العراقي الغريب يتوهم.. وقالوا لي: إنه لا يوجد في مدينتهم رجل يدعى مالك أوس!! وصارت محاولات إقناعهم بوجوده مجرد نكتة، احتفظت ذاكرتي بصورة مالك أوس، بوجهه المحتقن وجسده المتدلي من السقف مثل بندول ساعة محطمة، وسوف أرسمه على هذه الحالة عندما يحين الوقت.

ولما وصلنا إلى مواضع رفاق البعث.. شاهدت بنادق الرفاق تلمع تحت حمرة الشمس الغاربة، خرج إلينا رفيق سمين بشوارب كثة سوداء كشوارب الرئيس، فامتدت يدي إلى جيب بنطالي الفضفاض لأدسها مع جهاز اتصال نوع الثريا حتى يختفي بين يدي، لكن يدي اليسرى راحت تعبث من جراء القلق الذي اعتراني لتدير مفتاح ساعة «الويست إند» التي تختبئ في جيب بنطالي العريض، بينما راديو صغير نوع سوني أسود كان ينام في الجيب القريب من قلبي الخافق...

قال لنا: ها.. رفاق انهزمتم، تركتم مواضع الشرف على الحدود.. إنكم والله تستحقون الإعدام!

ولمّا لم يجبه أحد سألنا عن قوات المعارضة قلنا له: إنهم هناك لا يبعدون سوى ساعتين سيراً على الأقدام.

وبينما كنا نجتاز مواضع رفاق البعث سمعت همسهم: هذا الأشقر كأنه أمريكي! فتدفقت بعروقي دماء مضطربة فصاح أحدهم: (هيه.. أشكَر) فتوقفت واستدرت، وامتدت كلتا يديَّ إلى جيبَي بنطالي محاولاً إخفاء جهاز الثريا، وكذلك التشبث بحصون شجاعتي المهتزة، قلت بحدة: نعم!

سألني كبيرهم: عن وحدتي العسكرية فأجبته بالجواب الموجود بذاكرتي، واصلت سيري دون أن أجيب على بعض الأسئلة، وقد تركت لخطاي الثقيلة أن تجيب عليها وتبددها في أذهانهم، فقد بدت الأشياء لي مثل لوحة قد رُسمت بألوان كابية، لتختصر كلمات كثيرة.. مئات من الكلمات والجمل والعبارات تفرزها الألوان والمخاوف والإرهاق، وقامات الجنود المحنية بالتعب وبمخيلاتهم التي تدور فيها صور جثث زملائهم وبالجرحى الذين ظلوا وراءهم وهم يئنون ويلوّحون بإشارات الموت القادم.

لاحظت فجأة أنني وصلت إلى مدينة العماره، فقد أكلت المواقف المحرجة والمخيفة المسافات، وها هو الظلام يهيمن أو يكاد على البيوت، وعلى البنايات التي صبغها الدخان بسواده، بدا الشارع العام الذي تجنبنا السير عليه خوفاً من الطائرات، وكأنه حبل محترق يكاد يتهشم تحت أقدامنا المنهكة.

دخلت مع الجنود إلى الأزقة، فقفزتْ من عينَيَّ قطرات الدموع، فتظللت الرؤية للحظات، وتركتُ لساني يهذي بكلمات كنت قد دفنتها في داخلي كل سنين الغربة، وها هي تنبعث وتحيا من جديد، الكلمات

استفاقت من نومها، وبدأتُ أهذي بأبيات شعر، وكلمات أخرى لي ولغيري من الكُتّاب ومن الرسامين... لوحات جديدة اصطبغت ألوانها بعتمة المكان، يغذّيها سيل من مشاهد المجاري المكشوفة.. السوداء، الخضراء الداكنة، وتلك التي لا ألوان لها، أو تلك التي تنغمس فيها أشياء مبهمة، أو تطفو على صفحتها حتى تغدو مثل مرآة متسخة بالدهان...

بيوت مسودة مداخلها، وأخرى بلا ألوان، واجهات البيوت فقدت بريقاً قديماً لها كان عالقاً بالذاكرة، وأضحتْ بلون التراب.. بلون القبور... الأطفال الذين أشاهدهم كانوا باعة متجولين في «سوق زبيد»، أنهوا يومهم الطويل، وقد عادوا مع الظلام إلى بيوتهم، يبيعون أشياء كانوا قد حصلوا عليها بطريقة ما.. كعُلب بزاليا، لا أحد يعرف إن كانت منتهية الصلاحية أم لا، كانوا يبيعونها مع علب مجهولة إلى جنود قاموا بفتحها بحراب روسية الصنع، وراحوا يلتهمون حباتها، وكنت قد رسمت هذا المنظر من قبل، إذ أنه لا يختلف عن منظر حرب عام 1991بشيء في ذاكرتي ومخيلتي، وكأن مشهد الأطفال قد تكرر في الواقع قبل أن يتكرر في مخيلتي.

حاولت أن أعبث بذاكرتي، وأقارن صورة المكان سوق زبيد مع سوق زبيَّد الذي يقبع في ذاكرتي... وبلا إرادة مني وجدتني أبحث بحذر عن زقاق بيتنا القديم، بدا وكأن دهوراً عدة مرت بأقدامها الثقيلة على المكان وأحالت كل شيء إلى أطلال مهدمة، مررت من الزقاق، وتوقفت أمام بيتنا، تذكرت أمي، فانسابت الدموع وقد غطت صفحة وجهي، فلو أنها حية لانطلقتْ نحوي تشم رائحتي وتستنشقني بلا قُبل، عندما سمعت بموتها قبل ست سنوات وكان البرد والمطر يحاصران

طهران، خرجت غير عابئٍ بكل شيء، حتى ابتلت ثيابي، وشعرت بالماء يسيل على ظهري، تناسيته كما تناسيت احتجاجات المانوي صديقي وتوسلاته، وصرت كطفل في تلك اللحظات.. طفل مدلل لم تُلَبَّ بعض مطالبه، فقرر أن يؤذي نفسه بنزق فطري لا أكثر، كنت أتخيل حينها كيف ينهمر المطر على قبر بعيد ينـزوي.. كما كانت تنـزوي في الحياة، قبر لا يُزار لامرأة مجهولة، الزوج ميت، وربما ضاع قبره بين قبور الأغراب، تهدمت شاهدته واختفت، وغدا مجرد أطلال قبر... ثم سمعت المانوي يقرأ في رأسي شيئاً من أقوال النبي يحيى أو يوحنا المعمدان: « اللّهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين».

قلت له بعد ان هدأَت كلماته من روعي: أنت تحفظ لغير نبيك إذن!

قال: كان يوحنا المعمدان نبيا صابئياً، والمانوية انشقت عن الصابئية.

لم أعد إلى البيت إلا بعد أن هدأت ثورة نفسي، وبعد أن شعرت أن حزناً آخر سيستولي على مشاعري، حزن لذيذ له جذور الطفولة الضائعة والألم الخفي والفقر والمعاناة، فأخبار محزنة من هذا النوع كانت تعرف كيف تجدني حتى ولو كنت في أزقة مدينة طهران القديمة لتسرّ في أذني: أن السلطة صادرت البيت بعد وفاة أمي، وكانوا يسمونه بيت «أسمر المخرّب»

جالت بي رغبة لدخول بيتنا، فطرقت الباب دون أن أفكر بما سيحدث.. وخرج رجل سمين يلفّ رأسه بكوفية حمراء قال: ها أخي تفضل، قلت أليس هذا بيت تسواهن أم أسمر؟

لاحظت صوته وقد ارتبك وارتجفت شواربه الكثة.

قال: قل المرحومة تسواهن.

قلت: أعرف.. لكن أسأل إن كان بيتها، ضحك مستهزئاً بي: أنت ابنها، قريبها مثلا لتسأل، فأنا أعرف أن ابنها معدوم، أعدمته الدولة، لأنه من المخربين سنة 1991م.

قلت: أعرف، لكن البيت لمن الآن؟

قال: اسأل الحكومة، وصفق الباب بوجهي: قلت للمانوي الذي يقبع في إحدى زوايا جسدي: كيف تريد أن نعاقب هذا البعثي يا صديقي.

قال لي: لا نعاقبه، هناك ربّ هو من يعاقب في النهاية، ولا يمكن القيام بدور الربّ أو بدور القانون، اصبر على وقاحته هذه الليلة إن استطعت وسوف تنسى أمره.

قلت: لكن الربّ لا ينتقم، إنه إله حيادي، ينظر إلى البريء والمجرم بالنظرة نفسها.

قال: لذلك فهو إله...

كان الحزن قد تراكم في رأسي وفي قلبي مثل هذه المناظر الغريبة، ومثل الليل الذي بدأ يزحف بردائه الثقيل نحو سوق زبيد، بدأت الدكاكين تغلق أبوابها بعدما تمتلئ بالظلام، والنساء تتسربل بعباءاتها يتبعهنَ اطفالهنّ الحفاة بين حفر المجاري السوداء، وما هي إلا دقائق، حتى بدا السوق مقفراً، وأنا الوحيد الذي يقف في منتصفه كمن فقد عقله، وكانت الكلاب السائبة تتجول جائعة، والغرباء أمثالي وصلوا من الجبهات البعيدة، تفرقوا بين البيوت، بعدما اتفقوا على اللقاء في

الصباح عند سوق زبيد، إلا أنني لم أذهب ولم أستضف أي بيت بعد... أنا مأخوذ بالذكريات وبأشياء غامضة أخرى كغموض صمت صديقي الذي نام بداخلي.

دكاكين سوق زبيد أغلقت أبوابها، واظلمَّ كل شيء، وكأنني كنت داخل ذاكرتي لأوقظ من نام منها، وأزيح الغبار عمن تُرك مهملاً، لكن الذكريات لم تفُقْ، إنما أنا الذي صحوت داخل هذه الذكرى، الذكرى رحم، أتسمع يا صاحبي.. أيها المانوي.. هذه النداءات من هذا الرحم، فَكرتُ: لو أنني أرسم الذكرى على هيئة رحم، والحبل السري يمتد من المجهول ليغذّيني بالوهم الذي يأتي من عالم ما قبل الولادة، «عالم الذر»، عالم الأجنّة حيث كل المعلومات تبدأ بالنمو، معلومات جينية تتناسخ فيما بينها، معلومات تتدفق من الحبل اللامرئي، اتفاقات تُبرم في اللاوعي، مسودة الاتفاقات السرية التي ترسم للمرء المصير.. ترسم له خرائط مشوشة بالرموز، فكرتُ: لو أنني أستطيع رسمه يوماً، فهل ستختلط كل الألوان كما تختلط الحوادث في ذهني، وحين تمتزج كل هذه الألوان فإن اللوحة حتما ستغدو لوحة سوداء.

* * *

لكزه الحارس برفق، فنهض أسمر مذعوراً، حتى استفاق صديقه المانوي الذي ينام في رأسه وقال له: احترس.. تكلم بحكمة أنت في العراق الآن.

سأله الحارس: لماذا تنام هنا في السوق!؟

فأجابه: لقد وصلت متأخراً من الجبهات.. وأظنّ أن الناس نيام، ولا أريد أن أزعج أي عائلة في هذا الليل.

قال الحارس: لو أخبرتني على الأقل، فالجنود معذورون هذه الأيام، ومع ذلك، فنحن نخاف من المسؤولية كما تعرف الأوامر... مثلما نخاف من اللصوص.. كما أن الناس لم تنم بعد، نحن في أول الليل، سأذهب بك إلى بيتي هو قريب من هنا.

أجابه: لا، شكراً.. سأنام هنا هذه الليلة إذا سمحت، وغداً إذا استطعت سأواصل رحلتي.

من أين أنت؟

من بغداد.

أمامك رحلة طويلة.. عسى أن تجد سيارة لتوصلك.

تركه الحارس وهو يردد الله يكون في عونك.. وبعد قليل عاد ببطانية وكوب شاي ورغيف خبز قائلاً:

ـ اعذرني لو كنت أدري بوجودك لحضرنا لك عشاء.

ـ شكراً.. هذا كثير عليَّ.

وبينما كان يغمس الخبز بالشاي، سمع هدير سيارة، ثم انطلق من مكبرة صوت نداء تقربه الريح وتبعده «عاش القائد صدام حسين»، اقترب ثم ابتعد باتجاه الشوارع البعيدة، وصار يسمع من بعيد كنداء مختلط الحروف، ثم انطلقت أعيرة نارية من أمكنة مجهولة.

قال أسمر: هل هذا النداء يتكرر كل ليلة؟

قال الحارس: لا هذه أول مرة.. مثل صحوة الموت.

استغرب من جرأة الحارس، وراح يستجوبه بطريقة ذكية، مثلاً: أن يفتح موضوعاً، ويتعمد أن يضع فيها أخطاء واضحة، فيضطر الحارس عندئذ لتوضيح الأمر، وعبر ذلك كان الحارس يسرد الكثير من الأمور التي تجول بين بيوت المدينة.

قال أسمر: يقولون إن البريطانيين وصلوا إلى منطقة البتيرا.

قال الحارس: عملية إنزال.. نزل بعض المظليين فيها، ثم أخذتهم الطائرات، تركوا سيارتين في مكانهما، حتى السيارات نزّلوها بالمظلة، لا أحد يدري ماذا يقصدون في هذه الحركة.

قال أسمر: أحدهم قال لي.. هناك فوج طوارئ مستعد لحرق الأخضر واليابس.

قال الحارس: نصفهم هرب أنهم ينتظرون دخول القوات الأجنبية حتى يخلعوا ثيابهم العسكرية ويذهبوا إلى بيوتهم مثلك، لا فرق، كل الناس تكره حكومة الدكتاتور، حتى البعثيين، لكن الرفيق يخاف من رفيقه.. وهذه الطائرات التي فوقك تدري بالمواضيع التي نحكي بها الآن... (وبيني وبينك) قوات المعارضة وصلت، وسيدخلون إلى العماره خلال هذه الأيام.. تقول الناس:

إنهم يحيطون بالمدينة من كل الجهات.. هذه هي النهاية، أنت تسمع «راديو سوا» أم إنك لا تسمع؟ الدبابات الأمريكية ستدخل بغداد، ومعركة المطار انتهت قبل أن تبدأ، أنهتها طائرات الشبح.

قال أسمر: أعرف، والناس ما هو رأيهم؟

قال الحارس: (الناس خايفة وفرحانة).

قال أسمر: خائفة من المعارضة أم من طائرات التحالف؟

قال الحارس: الذين مع حزب البعث خائفون من المعارضة، أمّا بعض الناس فيخافون من الاحتلال، والفرحون هم من يريدون تغيير النظام بأي طريقة كانت.

قرر أسمر أن ينهي عمله السياسي، لكن بعد سقوط الدكتاتور، واتفق مع صديقه الذي ينام في رأسه على إنهاء عمله مع الحزب نهائياً (ستنتهي المهمة مع انتهاء حكم الدكتاتور)، ظل صديقه يردّد هذه الجملة حتى قاطعه أسمر: ومهمتك متى تنتهي يا ترى؟

فأجاب: الله أعلم.

فقال أسمر: أتعتقد أن مهمة مالك أوس قد انتهت؟ فأجابه: اسأل مالك أوس هل فهم من هذه الدنيا شيئاً حتى نفهم... ومن قال إن مهمتك أنت قد انتهت.. فربما ستبدأ مهمة أخرى لعصر آخر..

* * *

عندما سقطت مدينة العماره بيد المعارضة، وتلاشى أعضاء حزب البعث... ذهب ثلاثة رجال لملاقاة القوات البريطانية التي كانت تتقدم من جهة البتيرا، ظهروا في البدء في منظار الضابط البريطاني كثلاثة أهداف، ولمّا بدأوا بالتقرب بدأت أشكالهم تتضح شيئاً فشيئاً، فقال الرقيب: ليس لديهم أسلحة.

فقال الضابط: ربما يرتدون أحزمة ناسفة.

واصلت المدرعات البريطانية بالتقدم، وواصل الرجال الثلاثة بتقدمهم أيضاً، وجهت الأسلحة نحوهم، وتم إيقافهم على مسافة تمكنهم من خلالها سَماع الأوامر، أمروهم بالانبطاح، من خلال مكبرة الصوت بلهجة المترجم الخليجي، ولمّا انبطحوا تقدم نحوهم ستة من الجنود المدججين بالأسلحة والدروع، وقفوا قريباً منهم، وهم يوجهون نحوهم الأسلحة، قال لهم المترجم: لا تتحركوا، سيتم تفتيشكم، بدأت عملية التفتيش الدقيقة، أخذوا هوياتهم وسلموها للمترجم، رطن الضابط مع المترجم، فقال المترجم: ماذا تريدون؟ فقال الأول وهو يؤشر على ظهره: انزلاق، فنقل المترجم الكلام إلى الضابط، وقال الرجل الثاني: عيوني ستعمى، وأما الثالث فقال: مرض جلدي. نقل المترجم الكلام إلى الضابط، ضحك الضابط وراح يتحدث مع الرقيب الذي بجانبه، ورطنوا للمترجم بشيء من الكلام، قال المترجم: نحن جيش وليس مستشفى، فقالوا: إذن، نريد حلاً لأمراضنا، فقال الضابط قل لهم نحن ليس مثل النبي عيسى الذي ما إن يضع يده على المريض حتى يشفى.. نحن مقاتلون لا سحرة ولا أطباء، قال المترجم لهم:

(يا جماعة هذا جيش فيه جنود وأسلحة للقتال.. لا أطباء ولاهم يحزنون، ارجعوا لأهلكم وراجعوا المستشفيات.. هو العراق ما فيه مستشفيات يعني وتراجعوها.. شي غريب والله).

قال كبيرهم: (كَالوا راح يحلون كل المشاكل، ويعالجون كل الأمراض، لندن هي أم الطب، أنت ما تدري بضيمنا، متونس وياهم

ومرتاح، واحنا من حرب لحصار ومن حصار لحرب). صُدم أحدهم عندما علم بأن البريطانيين لا يعالجون المرض الجلدي الذي يزحف على جسده ويشوهه بالتدريج، ولا أحد سيرسله إلى لندن للعلاج، فازداد أمره سوءاً بعد هذه الحادثة التي فقد فيها هويته الشخصية عند ضابط الكتيبة، التي كانت تتقدم باتجاه مدينة العماره، وكانت هذه الكتيبة تشعر بخيبة أيضاً، لأن قوات المعارضة قد سبقتها لفتح هذه المدينة.

لكن ـ فيما بعد ـ أي عندما ستروى هذه الحادثة وسيستمع أسمر لها ستبدو غريبة عليه.. ربما لأنها ستروى بأكثر من لسان، وتظل الكلمات تدور في صالون حلاقة نعيم، عارضة أشكالها عبر المرايا التي تغلف جدران المحل، وكانوا يتبادلون في سردها، وتختلف بعض تفاصيلها من شخص إلى آخر مثلما تختلف سحنات وجوههم التي تعكسها المرايا وتقاطعها في مخيلة أسمر الذي أضاف لها وحذف منها الكثير، لكن الأحداث كثيرة، ومخيلة أسمر متعبة، لذا لم يخطط لرسم هذه القصة مثلما كان يفعل دائماً مع أن المانوي قال:

إنها تستحق الرسم.

فقال أسمر له: إنها قصة يا سيدي.. قصة حقيقية وليست مثل أسطورة «الشاه نامة».

فقال له المانوي: ولكن ألم نتفق أن كل شيء قابل للرسم.

قال أسمر: نعم كل شيء قابل للرسم.. لكن في فرشات النبي ماني وألوانه.

فاجأ أسمر الحزب الذي ينتمي إليه، بعد أن أعلن انسحابه من الحزب ومن السياسة برمتها، حسب الاستقالة التي خبأها المسؤول الأعلى للحزب عن أنظار الأعضاء الآخرين، سلم أسمر كل شيء إلى جماعته: جهاز الاتصال، المسدس، وثياب الجندي الذي ظلت جثته عارية، وبعض الأشياء التي تعود إلى الحزب، ولم يبقَ بحوزته غير أشيائه الخاصة، مثل الراديو الأسود الصغير وساعة الجيب الويست إند السويسرية التي تعني أقصى الغرب أو نهاية الغرب وهوية الجندي الميت.. قال: انتهت مهمتي بسقوط نظام الدكتاتور، فباركه المانوي لهذه الخطوة قائلاً: ما أجمل أن تنتهي المهام وتُصحح الأخطاء.

بعضهم فرح لهذا الأمر، فعلى أية حال كانوا يعتبرونه واحداً من المنافسين على بعض المناصب، وبعضهم اعتبر ذلك خيانة وهروباً من المسؤوليات القادمة، والمشاكل التي قد تحدث، ولم يستطع المسؤول الأعلى أن يغير من قناعات أسمر وظل متشبثاً بقراره، شاعراً بنشوة انتصار خفية كانت تنتابه حيناً، وكأنه حقق هدفه وسيرتاح حتى نهاية عمره، ولكنها تختفي في أحيان أخرى وتتحول إلى حزن وخيبة وضياع، وقد توقظه في الربع الأخير من الليل، وتظل تدور في جمجمته وتتلاعب برأسه مثلما تتلاعب أقدام اللاعبين بالكرة، وحين يحلّ الصباح يجد الصداع بانتظاره... لكن حزبه لم يتركه وشأنه، فراح يستدعيه ولمرات عديدة.. وطالبوه بتقديم تقرير مفصل عن أسباب انسحابه من الحزب، لكنه كان يعرف أنها مجرد ضغوط، فكتب تقريره وكان يعرف أن لا أحد سيقرأه، لكن كان يشعر بخطرٍ ما سيلاحقه فيما بعد... فكلمات الترغيب والتهديد تختلط في مسامعه وتتلوى مع كلمات الترحيب والتوديع...

(من يحميك غيرنا انت بلا عائلة ولا عشيرة ونحن...) هكذا كانت الكلمات تلاحقه في نومه وتستيقظ كما يستيقظ القلق.

فقال للمانوي: ما العمل الآن؟

قال المانوي: لا أريد أن أشمت بك، إن المليشيات مثل العصابات لن تترك أعضاءها يتفرقون بسهولة...

قال أسمر: لا.. لا أعتقد ذلك، إنهم يستولون على منصبي ومهامي، ثم إنني كنت مجرد عضو بسيط، وكنت أتوقع طردي بأي مناسبة، ولم أتورط بقضية كبيرة سوى...

ثم صمت وراح يفكر بجثة الجندي التي تُركت عارية وصارت مجرد جثة مجهولة، بعدما أُخذت هويتها، وفكر كيف سيوصل الهوية إلى أهل الجندي...، وكيف سيخبرهم بالأمر، ثم فكر: أن يذهب إلى الطب العدلي ويترك لهم ظرفاً يحتوي على الهوية ورسالة توضح عائدية الهوية إلى الجثة العارية وأوصاف صاحب الجثة...

عندما هرب رجال السلطة أو القادة البعثيون ورجال الأمن ظلت مدينة العماره بلا سلطة، وليس لدى القوات البريطانية أي خطة لإدارة المدينة، فاستغل اللصوص ومن يحسب على شاكلتهم هذا الخلل، فعاثوا في المدينة الفساد، وعمت فيها الفوضى، ولم تسلم إلا المستشفيات من النهب الذي طال معظم مؤسسات الدولة أمام أنظار الجيش البريطاني، وكان أسمر يُرى احياناً وهو يدور بين اللصوص وتجار السلاح، ليعود في آخر الأمر إلى شارع دجلة.. إلى الفندق الذي أقام به بوجهٍ مخذول، لكن المثير في الأمر أنه صار يشبه كل هؤلاء، يشبه تجار السلاح، ويشبه

اللصوص أيضاً.. فسأله المانوي: ما الذي يجبرك على ارتياد هذه الأماكن!؟

قال أسمر: لا أدري.. هكذا أجد نفسي وهي تقودني إليهم، ربما هو نداء الجنون الذي يلتف على مصيري.

عندما دخل إلى محل «حلاقة نعيم» أول مرة وجلس مُحرجاً، عرفه «نعيم الحلاق» بعد أن طرح عليه عدة أسئلة، وتعرف عليه أحد الجالسين، وأنكره بعض الزبائن، تعرف عليه أبناء جيله، ومن كان من أصدقائه المقربين، لكن حتى من تعرف عليه كان لديه شكوك في شخصيته، كأنما قد حدث شيء ما لـ«أسمر»، قال لهم: لم يتعرف عليّ الناس تصوروا!!

قالوا له: كل الذين عادوا من الغربة مثلك تعرفنا عليهم بسهولة، أما أنت فأمرك غريب، شكلك مختلف، وصوتك أيضاً، كأنك شخص آخر.

قال أحدهم: كان عمره صغيراً عندما هرب إلى إيران.. وهذا هو السبب.

قال الآخر: (فلان) أصغر منه، ولكن تعرفنا عليه بسهولة، لكن الأخ أمره عجيب.

نهض وراح يتأمل أرشيف الصور التي كان «نعيم الحلاق» يضعها بين الزجاج الصقيل وخشب معرض الصاج، بدت الصور غريبة لـ«أسمر» ثم بدأت بالاتضاح شيئاً فشيئاً.. لكنه ركّز ببصره محدثاً المانوي الذي كان يجول في خاطره هذه صورة مالك أوس، فتسمرت عيناه عليها لفترة وكأنما يريد اختراق الزجاج للوصول إلى ملامح صديقه...

سأل: هل تعرف أين صاحب هذه الصورة؟

اقترب منه نعيم الحلاق وهو يقاطع مقصه فيوسوس في الهواء، وقال: هذه صورة إسماعيل النجار... اختفى فجأة..

ففهم أسمر من الجالسين في الصالون أن هذ النجار اختفى ولا أحد يعرف إن كان قد اعتقل أم هرب إلى إيران، وقيلت عنه أخبار كثيرة لا يُعرف مصداقيتها إلى الآن... ولم تظهر صورته مع الذين أعدمهم الدكتاتور، ولم يعد مع الذين عادوا من المنفى..!

كانت الوجوه التي حنطها نعيم الحلاق في أرشيفه، هي وجوه زبائنه وروّاد صالونه الذي تُغلف المرايا كل جدرانه، فأينما يولي المرء وجهه يواجه نفسه... وهذه الوجوه فحصتها مرايا نعيم الحلاق من زوايا عديدة، وهم من الذين عانوا الحصار الاقتصادي، إبّان عقد التسعينات من القرن الماضي.. يقدمها حلاق سوق زبيّد للتاريخ، كنماذج من الناس التي عاشت تلك الفترة الرهيبة، التي صار فيها الخبز خليطاً من نوى التمر ومخلفات الشعير وبقايا القمح، هي الفترة التي خاطت الناس فيها بطانيات الجيش لتكون جاكيتات وقماصل لدرء البرد، هي فترة شحّ فيها السُكر حتى صارت الناس تشرب الشاي مع حلاوة الدبس المغلي الذي يكسر بالفؤوس الصغيرة.. يضع من يشرب الشاي قطعة الحلاوة في فمه ويديرها من جانب إلى آخر، فيتذوق طعم الفقر قبل أي طعم آخر... وبدت الوجوه لـ«أسمر» وكأنما قد التُقطت صورها من خلف القضبان، حيث كان القلق يتوارى بين سحنات الوجوه ومعانيها، بعض هذه الصور تعود لأشخاص يجلسون الآن في الصالون، وتختلف صورهم

التي التقطت في أقسى أيام الحصار إيلاماً عن هيئاتهم الآن، هذه الصورة التقطت الألم والفقر والعوز ثم عادت لالتقاط معالم وجوههم...

انتبه أسمر إلى من كان يقتعد كرسي الحلاقة، وبدا وكأنه يتأمل في وجه وكلمات أسمر من خلال المرايا دون أن يطرح عليه أي سؤال، فكان هذا الرجل هائماً بأفكاره، بينما كان المقص يتلاعب حول رأسه يشذب بقايا الشعر الشائب، ظل صامتاً هذا الرجل يستمع إلى كل ما قيل، وظل يُراقب أسمر من خلال المرايا التي كانت تعرض صوره باتجاهاتٍ عدة..

قال: ألا تعرفني يا أسمر!؟ حدّق به أسمر طويلاً، ثم قال:

ـ أنت مدير المدرسة.

قال الرجل: تحملت سياطهم المؤلمة بسبب صورة الرئيس اللعينة التي حطمها غيرك وعوقبت أنا وأنت بذنب غيرنا.

قال أسمر بينما كان يرسم بخيالاته هذه الصور التي تطالعه من خلف الزجاج: دائماً يتحمل الأبرار ذنوب غيرهم، فلكزه المانوي قائلاً: أحسنت هذه من أقوال ماني.

قال له أحد الجالسين: لماذا هربت إلى إيران وتركت أمك وحيدة؟

قال: لم أكن أفكر في الهرب خارج العراق حينها، ولم أكن أفهم ما يعنيه الهرب بصورة واضحة، لكنني صعدت إلى السيارة التي كانت تنادي للهروب، وكنت أعتقد أن هذه مجرد مزحة، وأننا سنهرب خارج العماره، لنعود بعد حين، أعني عندما ينتهي الخطر، وما إن خرجنا من المدينة وبتنا في حدودها.. في الصحراء، ورأينا من بعيد كيف كانت

الهاونات تَدُك في قلب المدينة، وتابعتنا قوات الجيش بالمدافع، وهربنا مُبتعدين حتى دخلنا الأراضي الإيرانية، ويوم بعد يوم صرنا مجرد لاجئين، وقد حالت الدعايات بيننا وبين الوطن الذي كنا لا نسمع عنه إلا أخبار الإعدامات والمقابر الجماعية.

ولما خرج أسمر من صالون حلاقة نعيم كان هائم الأفكار، يقارن صورة مالك أوس التي تقبع في خياله مع صورة إسماعيل النجار، وسأل المانوي: ألا تساعدني بحل هذه التطابق يا صديقي؟

قال: دائماً كنت أقول لك الحياة تخفي أكثر مما تظهر.

قال أسمر: لكن كيف.. هل يمكن أن ألتقي بالنجار أو بمالك أوس!؟

قال المانوي: هناك أشياء كان مالك أوس أو إسماعيل النجار يريد أن يبثها بين الناس، لعل مفاهيمهم عن الحياة وعن الله تتغيّر، لكن الناس لا تملك سوى أن تندهش أمام السلوك الراقي الذي يتمتع به مالك أوس، فعندما كان نجاراً كان يتقاضى القليل من الأجر، ومن لا يستطيع الدفع لا يحاسبه، كان يعمل بالمجان للفقراء والمعدمين.

قال أسمر: والحادثة؟.. أعني حادثة طهران، كيف يشنق مالك أوس نفسه حينما اكتشف أن أخته تبحث عن اللذة مثله في أماكن الدعارة؟

قال المانوي: هذه إشارة... المتصوفة يهتمون للإشارة أكثر من العبارة.

اضطر أسمر أن يغادر الفندق الذي سكنه في شارع دجلة، بسبب المضايقات الأمنية، فكأنما كان يسمع صوت زعيم الحزب الذي استقال

منه عبر أصوات الذين يسألونه عن هويته، ولأنه لا يمتلك أي هوية تثبت شخصيته أجّر شقة مطلة على سوق زبيّد، وفي المساء كان ينـزل ليدور في السوق ويمر من زقاق بيته، ويجلس في صالون نعيم الحلاق ليطالع أرشيف صور الوجوه القابعة خلف الزجاج، ويدقق في تفاصيل صورة مالك أوس، ويلتقي ببعض الأصدقاء.

ثم فتح محلاً صغيراً ليخطّ للناس يافطات الموتى (انتقل إلى رحمة الله...) و(تنعى منطقة سوق زبيّد الشهيد السعيد... الذي أعدمه...) عمله الجديد هذا سرق منه معظم وقته، فإعلانات من هذا النوع كانت رائجة في ذلك الحين، بحيث امتلأت أركان البيوت وجدران المدارس وأسيجة البنايات العامة بـ«لافتات النعي»، لأن معظم الذين أعدموا إبّان حكم النظام الشمولي لم يُسمح لأهلهم بإقامة أي مرسوم من هذا النوع، فتكدست لافتات الموتى للسنين الماضية على الجدران مثل ديون الماضي، حتى غدت بعض أركان البيوت سوداء بالكامل.

لكن سكنه في سوق زبيّد لم يكن مريحاً أيضاً، فكانت دوريات الجيش البريطاني تصرّ على المرور من شارع السوق، فتعترضها مجاميع الشباب التي تشكلت بعد سقوط النظام، كانوا يطلقون النار من على أسطُح البيوت ومن خلف أُركان الدكاكين على المدرعات البريطانية، وهذا الأمر كان يصيب الجنود بالجنون، فيبدأ إطلاق النار عشوائياً، وكان يتكرر هذا بين ليلة وأخرى، ذهب بعض الضحايا نتيجة لتبادل إطلاق الرصاص، ودُمرت بعض البيوت، ثم شيئاً فشيئاً بدأت الدوريات البريطانية تعي ما يحدث، بعد أن تطورت ستراتيجية الشباب في اعتراض المدرعات البريطانية، فالعبوات الناسفة هي من أنهت هذا القتال.

فوجئ أسمر بعلاء أحمد عبد الباقي يفوز بانتخابات مجلس مدينة العماره، لأنه كان قد حطم صورة الرئيس عندما كان طالباً!! تذكر أسمر هذه الحادثة التي سببت بطرده من المدرسة، ونفته إلى مزارع سامراء، في حين استطاع علاء أن ينجو بفعلته التي جاءت انتقاماً من والده الذي عاقبه في يوم ما، ووالده هو: الرفيق احمد عبد الباقي وقد هرب إلى سوريا، وهناك صار خبّازاً في أسواق السيدة زينب... ويوزع أكلة الهريسة مجاناً في أيام عاشوراء، بينما كان يمنع هذه الطقوس عندما كان عضو شعبة في حزب البعث العربي الإشتراكي في العراق.. أما عبد الباقي فقد ارتفع ضغط دمه فجأة فأصيب بجلطة دماغية، حالما رأى تمثال الرئيس تجره الدبابة الأمريكية في ساحة الفردوس ببغداد، قال أسمر: يا للمفارقة العجيبة، ابن الرفاق الذين استغلوا الوضع في السابق يستغلونه الآن.. ابن البط عوام.

لم يدُم الأمر طويلاً هكذا لأسمر، فقد اغتيل الرفيق الذي كان قد استولى على بيت أم أسمر، وقد اتجهت أصابع الاتهام نحوه، لكنه كان يعرف كيف يتوارى عن الأنظار، فاختلفت الناس في أمره، قيل إنه صاحب (البطة)، وهي سيارة نوع كراون يابانية الصنع بيضاء اللون، كانت تغتال رفاق حزب البعث وضباط الأمن المتورطين بإعدام الناس في زمن النظام السابق، وتتوارى بسرعتها الهائلة، فشاع أمرها في مدينة العمارة، فحينما يُغتال واحد من رجال الدكتاتور كانت الناس تقول: (نِكْرَتَهْ البطة) أو (صَكَّتَهْ البطة)، وإذا أرادت زوجة رفيق البعث أن تشاكس زوجها تقول: (ترى البطة بالماي).

بدأ رجال عشيرة الرفيق الذي اغتيل يبحثون عن أسمر، فهرب إلى

البصرة، ومن هناك انتقل إلى بغداد، سكن في منطقة الصدرية ببغداد، وعمل مع تاجر يسمى بـ«السيلمي» كان قد التقى به في إيران، وكان هذا من العراقيين الذين سفّرهم وهجّرهم النظام الشمولي إلى إيران في نهاية سبعينات القرن الماضي، ففقدت عائلته محالها الكبيرة وتجارتها ووطنها، ولم تمرَّ سوى سنة على عمل أسمر مع السيلمي التاجر، وبعد أن وثق به، وعرف ضياع نسبه وحسبه حسبما كان أسمر يقولها بصراحة له: تفرق نسبي بين القبائل، فقرر هذا السيلمي التاجر أن يزوجه من ابنته، التي مَرت سنين شبابها دون ان يخطبها احد...، في البدء أُحرج اسمر من عرض صاحبه السيلمي التاجر، فلم يفكر يوماً بالزواج بصورة جدية، كأنما كان تكوين الأُسر والزواج يحدث لغيره فقط، طلب أسمر من صاحبه السيلمي التاجر أن يمهله بعض الوقت للتفكير بالأمر، وعاش لأيام كان يقرر قبول العرض في الليل، ولكنه كان يلغي هذا القرار في النهار، ويبدو أن المانوي الذي يقبع في رأسه كان يريد إقناعه بالأمر، لكنه كان يقاوم بعناد أخرق، كان يعتبر الزواج بمثابة الاستسلام للحياة، بينما هو يحب أن يبقى متمرداً عليها، فحدث أن زاره صديقه السيلمي التاجر في الليل وكان قد اقتنع بالزواج، فوافق على الزواج من ابنة التاجر، وحينما أصبح الصبح، كانت قناعاته بالزواج قد تلاشت، فأحدث ذلك خلل في مزاجه حتى مرض، وتزوج أسمر محرجاً، وساعدته زوجته على تخطي هذه العقدة بهدوئها، صحيح هي لم تكن من الجميلات، لكنها من النساء الحنينات، وكانت تعرف كيف تؤثر على أسمر.. لمسة بسيطة من الماكياج وعيون دائمة الكحل، هكذا تستقبله حينما يعود من عمله في السوق، فمارس حياته الزوجية بصورة طبيعية، حتى أنجب

منها ولداً جميلاً، واستقر كل شيء في مكانه، ولم يزعجه شيء سوى هذا المانوي الذي يحثّه على تأليف كتاب عن «تعاليم النبي ماني» مقترنة بلوحات هذا النبي الرسام.

وبينما كان يغلق دكانه في سوق الصدرية في أحد المساءات، اهتزت أركان السوق بانفجار ودوي هائل، لكن أكثر ما اهتزّ هو قلب أسمر، كان أكثر اهتزاز من البنايات والسوق، وأكثر اهتزازاً من أعمدة الكهرباء والسيارات، قال له المانوي: فلتسيطر على أعصابك.. هذا أوان الصبر يا صديقي.

لكن أسمر كان لا يستطيع سماع من يتكلم في رأسه، ولا يسمع أي شيء، كان قلبه يدمدم ويواصل دمدمته الرهيبة...

لم تبعد شقته كثيراً عن سوق الصدرية، لكن هذه المسافة بدت له كمئات من الأميال، وكلما كان يتقدم كان الغبار والدخان يزداد كثافة، وكان عوي الإسعافات يتعالى من مكان ما، وشاهد بناية تحترق ويكافح رجال الإطفاء للوصول إلى طوابقها العليا، لكن المكان كان قد تغيّر ولا يعلم تماماً هل كان بسبب الدُخان المتصاعد أم أن هناك شيئاً ما قد حدث! فلا وجود للبناية التي تسكن عائلته بإحدى شققها، واختلطت كتل الجدران وانتشرت في المكان، ظل أسمر لبرهة من الزمن يراجع ذاكرته، بينما كان المانوي يصرخ في زاوية ما من رأسه، حاول أن يجمع شتات أفكاره ويركز أكثر، قال وبصوت عالٍ لكن هذا الصوت كان يختلط متلاشياً مع ضوضاء الفوضى المدوخ: هذا الشارع نفسه الذي تقع فيه البناية التي نسكنها، وتلك البناية التي يتصاعد منها الدُخان تقع

مقابل بنايتنا، لكن أين صارت شقتي يا تُرى!؟ كان يتساءل بذهول بينما يقف بلا حراك غير عابئ بالشخوص العائدين بجريح أو الحاملين ميتاً، وكانت هناك وجوه عديدة تظهر لمخيلته أولاً ثم تظهر لعينيه.. وجوه تقترب منه وأخرى تبتعد، كأنما يبتلعها تيار جارف تُخلف صوتاً غريباً مثل الذي يسمعه النائم أثناء الحلم أو الكابوس... ومع أن الصراخ كان يتعالى بالقرب منه، غير أن ذلك بدا له بعيداً جداً، كأنما بينه وبين هذا الصراخ زمن أو مسافة هي غاية في البُعد، لم تكن تلك المناظر تعني له كثيراً، ولا تلك الأصوات التي تتعالى بالقرب منه، وكان بدلاً من ذلك يشعر بأشياءٍ وأشباح كانت تدور حوله، أو يحدث له شيء من هذا القبيل، فكأنما الدهشة قد عطلت جميع حواسه وهي التي تطبق على مخيلته وتصكها.

Telegram: @Arab_Books2

الفصل الثاني

ولد النبي ماني في بلاد بابل عام 216 بعد ميلاد المسيح، في الزمن الذي كانت فيه الألسن تختلط بشتى اللغات، وكانت الأديان متعددة وكثيرة حالها حال اللغات، وحيث بابل كانت عاصمة الأرض وملعونة التوراة، إذ إنها تظهر كما العاهرة في النصوص التوراتية التي كتبها اليهود سبايا نبو خذ نصر، وحيث استمر النبي العزير بتدوين التوراة خلال عمره الذي أنهاه في بلاد سومر، في الموضع الذي تجلس به مدينة العماره الآن.

وقد تأثرت النصوص التوراتية بالأساطير السومرية، وعَبَرت الكثير من هذه الأساطير إلى الكتب المقدسة، فلا تختلف كثيراً قصة الملك سرجون الأكدي التي عُثر على ألواحها (في أور) عن قصة النبي موسى، فـ(سرجون) كان قد وِلد من زواج سري بين كاهنْ وكاهنة، وكان الملك يُحرّم زواج الكهنة، لأن هناك نبوءةً تقول: إذا تزوج كاهن من كاهنة فإن ابنهم سيكون نصف إله، وهذا سيشكل خطراً على سلطة الملك، لأن الناس تتبع المقدس دائماً، فما إن يُشك بطفل من نسب كهذا حتى يُقتَل بأمر الملك، ولمّا حدث أن أنجبت كاهنة من « أور» ابنها سراً فوضعته في قفة، والقفة في اللغة السومرية: هي آنية كبيرة تُصنع من خوص سعف

النخيل... وتركت تيار مياه نهر الفرات يسري بها، ولمّا أفاق فلّاح ذات صباح صيفي وذهب ليغتسل في شاطئ الفرات، حتى وجد طفلاً ملفوفاً وموضوعاً في قفة كبيرة، وتابع الكاهن والكاهنة أخبار الطفل، ولكن من بعيد، حتى استدلوا على الفلاح الذي رَست القفة عند بستانه، فقاموا بزيارة هذا الفلاح وتنكروا حتى لا يعرفهم، وقدموا له الهدايا، كان الفلاح مستغرباً من أمرهما، فالمترفون لا يصادقون الفقراء عادة، ولكي يطمئن لهذه الصداقة قالوا له: سنشتري ما يجود به بستانك من تمر وبالسعر الذي يعجبك فلقد أعجبتنا ثماره.

وتكررت الزيارات وتكررت الهدايا، ولما بَلغ الولد وصار شاباً، أخبروا الفلاح بأمره وسرى الخبر بين الفلاحين، فتحول بغضونِ أيام بيت الفلاح إلى مكان مقدس، وتحول الشاب إلى نصف إله، وانقسمت الناس فجأة إلى أتباع للملك، وأخرى تتبع الشاب المقدس.

وشيئاً فشيئاً خَسر الملك أتباعه، فاضطر إلى التنازل عن السلطة، وصار الشاب ملكاً، واسمه الملك «سرجون الثاني» الذي وصلت سلطته إلى بلاد الفراعنة في مصر، ومن هناك على ضفاف النيل دوّنِت حكاية أخرى، إنها حكاية النبي موسى.

كان النبي ماني صابئياً مندائياً حتى 240 ميلادية، وهي السنة التي أعلن انشقاقه عن دين أجداده.. دين يوحنا المعمدان، أي النبي يحيى بن زكريا الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، خرج النبي ماني عن المندائية ليعلن ديانته الجديدة، التي راح يروّج لها في المدن السومرية الواقعة جنوب العراق، وصعوداً إلى بابل التي كانت تقع تحت سلطة

الإحتلال الساساني وقتذاك، ثم قام برحلة طويلة استمرت عامين إلى بلاد الفرس والهند والسند، تاركاً وكيلاً له بكل مدينة يمر بها، حتى عاد إلى قُرى العماره من جديد عن طريق البحر، ومن ثم ركب أمواج نهر دجلة، فاستراح كادر البلم السومري الذي تهالك من هول جرّ هذا الزورق بعكس جريان الماء، الذي كان يتهادى في هذا الموضع من الأرض، حيث مرقد العزير أحد أنبياء بني إسرائيل ومُدون التوراة العظيم، تقابل النبيان في الحُلم، وهذا ما جعل النبي ماني يذهب بنفسه إلى أعدائه في عام 277 ميلادية، ليموت ميتته الغامضة في السجن، ويكون بطلاً في حكايات الدراويش، ولمّا أفاق النبي ماني من حُلمه الطويل، ظلّ لبرهة من الزمن مثل المُخدر، يحاول أن يوائم ما عاشه في الحلم مع هذا الزمن الواقعي، وشعر وكأنه ينتمي إلى ذاك العالم أكثر، فسأل أتباعه: كم لبثتُ نائماً؟

قالوا: قليلاً.. ما كدنا نُنهي طعامنا.

قال: لقد عشتُ دهراً هناك أيها السادة.. مع هذا الرجل!!

قالوا: عن أي رجل تتكلم!؟

قال: عن صاحب هذا المرقد.

قالوا: وكيف كان ذلك الزمن وهذا الرجل؟

قال: الإنسان ذاته، والمشاكل ذاتها، والدين ذاته أيضاً.. لم تتغيّر إلا الثياب ونُطق الحروف، فالشرّ شرّ، والخير خير، والظلام ظلام، والنور نور، فلا يختلط عليكم الأمر، وما على (البارقليط الذي بشر به يسوع

المسيح) سوى أن يَجمع شَتات الأديان، ويخلطها ويجبلها لتكون ديناً واحداً لا غير، وكما تعرفون أنا البارقليط آخر الأنبياء، الذي بشّر به يسوع المسيح، الذي لم يشئْ مسح الأرض إلا بوجودي، مما أغضب اليهود وجعلهم يتحالفون لصلبه مع الرومان، أعدائهم الذين كانوا يحتلون القدس وهذا ما حدث...

ثم قال النبي ماني لهم: ارفعوا الأشرعة لنواصل الرحلة.

قالوا: إن رفعناها ستعيدنا إلى الموضع الذي جئنا منه.

قال: بل ستُغيّر الريح اتجاهها بعد أن أفرغ من صلّاتي، وستحملنا إلى قُرانا حيث انطلقنا قبل عامين..

لكن ما كتمه عنهم هي مصائرهم، وأما ما سيحدث لهم فسيفوق الوصف، وسيعجز التاريخ في إيصالها... لكن القصص هي من سيتكلم في النهاية، لأنها ستتكلم قبل أبطالها وكتّابها...

* * *

أنا المانوي الذي يسكن في رأسك يا أسمر، لا أدّعي أنني أتذكر كل شيء، ولكنني أشعر بالأحداث والوقائع، وأشعر أن لي حياة أخرى غير هذه الحياة، ولي قصصي وأحداثي، ولكن كثيرة هي القصص التي تبدأ حوادثها في مخيلتي، ويتلامح لي شخوصها في ساعات الصباح الباكر، حينما أستيقظ قبل أن تصحو يا صديقي أجد الكلمات بانتظاري، لتدور عارضة أشكالها وألوانها في مخيلتي، كلمات رشيقة تنساب في روحي مثل أنغام موسيقية، لها خفة الهواء وانسكاب الماء، وأخرى لزجة لها قوام

الصمغ، إن التصقت بها فتمسكني ويتعذر الانعتاق من إغراء لحظاتها، غير أنها في أحيان أخرى، تصبح هشة كأوراق يابسة تتطاير من أشجار روحي مع ريح الهموم، إذ أن هناك اشجاراً كثيرة قد تخيلتها في لحظات ما، وانطبعت بأمكنة عدة في خيالي، ربما يا أسمر قبل أن أتقمص جسدك أو أكثر بكثير من هذا الزمن... إذ تتراءى لي جذوع الأشجار بأشكالها الغريبة، وعلى لحائها حُفرت تواريخ تُغالب الزوال والزمن والنسيان.. حُفرت لتبقى لتَحترق مع لحاء الجذوع، وحينما ستَحترق ستتلاشى أسباب كتابتها ومعنى تأثيرها والحدث الذي تسبب في وجودها، ولا يظهر ذلك كما تتوقع، في الدُخان الذي تُشعل ناره روح غامضة مثل روحي، قد حاصرتها الأخطار أو الأمطار في يوم عاصف، وبدأت نيرانها تبدد المخاوف قبل أن يبددها البرد، ولا يظهر مغزى هذه العلامات، أعني: الأشجار المتخيلة والعلامات المحفورة على جذوعها، حتى لو في حريق يشبّ بين تأويل وتأويل، فتظل العلامات عصية على الفهم، مادمنا لا نفهم من هذه الحياة شيئاً... وقبل أن تسأل يا أسمر: هل هناك حرائق بين جنبات التأويل؟ أقول إن المشكلة العرضية التي ظهرت ونمَت في كل الكتب المقدسة وغير المقدسة هو: التأويل فبسببه حدثت الحروب، وبسببه اغتيل الكثير من العلماء، وبسببه انشقت أمم وأُنشئت مدارس، ومدارس بعضها ضد بعضها، وكان التأويل هو شعلة الشر، وكان التأويل هو شعلة الخير، يمكن لهذا التأويل أن يكوّن وينتج آلاف الرؤى المختلفة، التي تظل تتناسل فيما بينها مثل تكاثر البكتريا، وعندي الكثير من هذه الرؤى، لكن السؤال المهم: هل أستطيع أن أجمع كل الرؤى في رؤية واحدة، وأن أجمع كل آلام أصدقائي، أقاربي وأبناء

ديني من المانويين، الذين تعرضوا لشتى أنواع المحن، وأن أخلط جميع مشاكل الكون في مخيلتي، وأجعلها مشكلة واحدة لاكتشف لها الحل، ومن ثَمَّ أجمع كل الحلول في حل واحد فقط.. فهل أنا النبي ماني حقاً حتى أستطيع مزج الأديان في دين واحد؟ وهل موته وموتي الغامض جمع كل ميتات الأنبياء: الصلب، الحرق، السم وقطع الرأس، مثلما قطع رأس النبي يوحنا المعمدان، وهل لوحق أتباع المانوية في كل أصقاع الكون ليقضى عليهم، لكني لا أظن أن الأرض قد خلت يوماً من مانوي، ففي بادئ الأمر، أعني حينما شُنت حملات الإبادة، سواء في زمن الملك بهرام الذي ورث نصف العالم مُلكاً صرفاً، بعد جده أردشير وأبيه شاه بور، الذي جعل ملوك الروم تسجد سجدات طويلة أمام جبروت ملكه العظيم، وبعد أخيه هرمز الذي لم تمهله المؤامرات وسموم الشوكران في البقاء حياً، كان الأمير هرمز هذا مانوي الهوى، مما أعطى فرصة لأخيه الأمير بهرام أن يتحالف مع كهنة زرادشت ليقضي عليه بواسطة أقوى السموم...

أنا الشاهد الأخير على نضال المانويين يا صديقي، وما تبقى منهم في العراق حتى زمن الوليد الثاني في القرن العاشر الميلادي.. فقد طوردوا وطوردا حتى تلاشوا في الزمن العباسي، بعد أن حُرِّفت آراؤهم وأُلصق بهم اسم «الزنادقة»، فقد تحوّل بعضهم إلى دين آخر تقيةً من الموت، تحولوا إلى الزرادشتية مثلاً، وبعضهم إلى المسيحية أو البوذية، وإلى الدين الإسلامي.. لكن روح ماني كانت ترفرف في رؤوسهم كما أرفرف الآن في رأسك يا أسمر...

حينما ينقل التاريخ للناس أخبار الفتنة الأولى التي حدثت في التاريخ

الإسلامي، والحروب والحصارات التي حدثت في فترات مختلفة في التاريخ، تبدو هذه الأمور لمعظم الناس مجرد أكاذيب أو أساطير لُفقت ثم لُفقت، حتى صارت بهذه الصورة الشوهاء، لكن الوقائع الحالية والحروب الطائفية والمشاهد التي تنشرها القنوات الفضائية وصفحات الأنترنيت، ستجعل الناس تُعيد النظر بآرائها القديمة، وتصدّق ما حدث للأرمن على يد الأتراك، وتصدق ما فعلته محاكم التفتيش، وما حدث للسود من بيع وشراء، وما حدث للشرق إبّان الفتوحات الإسلامية، وحروب المغول والتتر وغيرها...

وكل مَن اقترف ذلك هو الإنسان المجرم، بينما الضحية هو الإنسان أيضاً، هي المعادلة ذاتها إذن يا صديقي، لم يتغيّر فيها أي طرف، وعلينا أن نصمت لكي تتكلم القصص.. تتكلم قبل أن تفترسها حرائق النسيان، ولولا النسيان لتراكمت في ذهني الكثير من القصص، حتى ليغدو من الصعب التخيّل، والسير في مخيلتي يصير وعراً، وتتخبط روحي كما القتيل الذي يرفض ويقاوم الموت، ويتشبث بأوهام شخوص جاءت لتنتشله من تخاذل قلبه الذي يتراخى بنبضاته الأخيرة، لأنه أدرك أن لا معنى من النبض إذا ما هربت الدماء وتلاشت من الشرايين...

حسب الطب والأطباء إن القلوب مِضخات للدم مثل أي آلة أخرى، ولكن رؤية القلب بهذا الشكل ستغدو هجينة، ولن يظهر القلب بصورته الحقيقية إلا حينما يُنذر سائر أعضاء الجسد بخطرٍ ما، وقد يخادع القلب أحياناً.. حينما يصاب بخللٍ ما فلا يتألم، إنما يجعل عضواً آخر من الجسم يعاني بدلاً عنه، ولا أحد يعرف كيفية ترحيل وتصدير الألم لبقية زملائه من أعضاء الجسم، فربما يتبرع أحدهم ليتألم بدلاً من القلب

لأهميته بضخ الدم لهم، أو لكي لا ينشغل القلب بنفسه، لهذا تنازل الدماغ عن بعض السلطة للقلب المدمدم دائماً... فلو كان مجرد آلة فكيف يعلم بالمخاوف ويدق طبول الخطر، ذلك حينما يتسارع وحينما ينبض على إيقاع طبول الحرب، وهذه الطبول ما كانت لتُكتشف لو لا ضربات القلب ودمدمته الرهيبة بين الأضلاع، ولولا أضلاع الصدر ما كان هناك سجن، كان الإنسان يعتقد أن القلب كائن آخر محبوس خلف أضلاع الصدر، حُبس القلب لينذر الإنسان بالخطر وبشغف الحب، ولأن القلب عاطفي.. لذا تراه يسوقه نحو العواطف ـ لاحظ الشبه بين العواطف والعواصف ـ التي ربما ستحطم الإنسان، وتتحطم الأضلاع، وتعتقد بعض قبائل الهنود الحمر بأن أكل قلوب الأعداء يعني أسر المزيد من القلوب داخل أقفاص الصدور.

ما أَتذكّره عن الشخوص الذين تقمصت أجسادهم كثيرة.. لا، لن أتكلم عن ابن سينا، ولن أتكلم عن أبن النديم أو الفارابي أو المتنبي أو عن حمدان بن قرمط، وسأعترف بأني بخيل في طرح المزيد منها لأسباب سأحتفظ بها لنفسي، كنتُ في يوم ما في رأس رجل أسمه «آلكسي كاريل»، وهو عالم فرنسي ولد سنةً 1873م، ومات في عام 1944م، كان كاريل هذا عبقرياً في علم الفيزياء والبايلوجيا، وحصل على جائزة نوبل للعلوم عام 1912، في العام نفسه الذي غرقت فيه سفينة تايتانك، مما أزاح هذا الحدث المسرة من قلب الرجل، ولمّا كنت في رأسه مثلما أنا الآن في رأسك، وكنا نتناقش حول وظائف أعضاء الجسم وعلاقتها المدهشة مع بعضها، اكتشفنا معاً أن القلب ليس مجرد آلة تضخ الدم، بل هو مثل أي كائن آخر، كائن يتحسس آلام الجسم

فيضطرب من أجله ويعاني ويزيد نبضاته، لعله ينقذ الجسم أو ينقذ أحد الأعضاء الأخرى، واكتشفنا أن تعابير الوجه التي تتحكم بها عضلات عديدة هي استجابة للحالة النفسية وانعكاس لحالة الأعضاء لما يشعر به الإنسان بصورة عامة، صحيح أن الممثلين يحاولون خداع أجسامهم، فيضعون تعابير معينة على وجوههم، لكن هذه التعابير سرعان ما تزول، ويعود الممثل إلى وضعه الطبيعي عند انتهاء زمن التصوير، وكلما عرف الإنسان ذاته وعرف كيف يتصرف بجسده وبأحاسيسه، ربما سيتحول إلى رجل خارق، فلم يجد أي عالم، روحانياً كان أم علمانياً تفسيراً مقنعاً لما يفعله الدراويش في لحظات التجلي، ولحظات ذوبانهم مع إيقاع الدفوف، واستخدامهم الأسلحة الجارحة لضرب أجسامهم وطعن بطونهم وخرق جماجم رؤوسهم بالحراب، دون أن يصابوا بأذى، ظلت هذه المشاهد مبهمة دون أي تفسير، أما كيف يحل المتصوف بالأشياء؟ وكيف يموت قبل الأوان؟ وكيف يسافر عبر الأزمنة؟ وكيف يجتاز لمسافات؟.. فلم يقدم العِلم أي حل لها إلى الآن...

وظل الإنسان يجهل الإنسان، لذا فإن كتاب آلكسي كاريل صديقي القديم الذي سماه «الإنسان.. ذلك المجهول» ألّفه بعد أن عرف أن هناك صعوبات جمة تعرقل معرفة الإنسان لنفسه، وكثير من الناس تعتقد أن جسد الإنسان منفصل عن نفسه، وتنسى أن الموت هو جسدي قبل أن يكون روحياً، ولو كانت الأجساد غير مهمة لخلق الله الأرواح بلا أجساد.

فيا أسمر يا صديقي، أعرف أنك لا تعرف نفسك مثل كل الناس، مع أنك تستطيع أن تحوّل نفسك إلى شخص آخر، لكن هذا قد يدوم بعض السنين وتعود مرة أخرى إلى شكلك، لو عرفت نفسك لعرفت الكون،

وعندما تعرف الكون لربما ستعرف الروح، التي هي مجموعة من القوى التي تنتجها أو تفرزها الخلايا الحية، وهناك علاقات معقدة من عرفها صار مثل النبي ماني ومثل الخُضر أو مثل صديقنا مالك أوس.

يقول الفلاسفة المسلمون: إذا عرفت نفسك عرفت الله، ولا تختلف النظرة الإسلامية إلى الإنسان عن الفلسفة اليونانية التي يقول فلاسفتها: إذا عرفت نفسك عرفت الكون، وكلا الفلسفتين كانتا تحاولان أن تنظرا إلى الإنسان فلسفياً فقط، وهناك فرق ما بين معرفته فلسفياً عن معرفته وظيفياً وبايلوجياً، وبغض النظر عن ما طرحه آلكسي كاريل فهناك أمور لا يمكن للفلسفة التوصل إليها مثل المملكة الباطنية أو العقل الباطن الذي تكلم عنها «كولن ولسن» كثيراً، وهناك أشياء أخرى، فبعض الرجال لديه حضور غريب ومؤثر على كل من يقابله، فما إن تلتقيه حتى تجد نفسك وقد احترمت هذا الرجل، وقوة الحضور هذه لم يُعرف لها سبب واضح، وهناك الأشعة الجسدية والتلباث والانبعاث التي اهتمت بها المعاهد الروسية... وهناك ثمة ذاكرة أخرى للإنسان تحتفظ العضلات بها حيث إنها تتجاوز المهارات التي يتمتع بها الإنسان، فلاعبو السيرك تتذكر عضلاتهم المهارات التي يحفظونها.. ويقومون بأكثر من حركة في الوقت نفسه، والإنسان إذا تعلم السباحة لن ينساها، حيث تحتفظ عضلات جسمه بهذه المهارة لسنين طويلة، وهلّا.. لاحظت الأصابع التي تضغط على الزر الصحيح، بينما الطابعي يواصل حديثه مع زميله أو زميلته.

على مر العصور كان الإنسان يراقب الحيوان ليتعلم منه المهارات، فمثلاً كان الإنسان لا يعرف الادّخار، فتعلم من بعض الضواري كيف

تدفن فرائسها، وتعلم من النمل كيف يؤمّن متاعه لأيام الشتاء في أماكن بعيدة عن الرطوبة... إذا لم يتعلم الإنسان من خلاياه ومن أعضاء جسده نظام التواصل سيبقى في متاهته وهناك رأي يقول: إن متاهة اليهود كانت متاهة معنوية... وتقول كذلك الحكمة المغولية هناك ثلاثة أشياء معتمة في الحياة: «جهل الإنسان لنفسه، وحياة بلا شمس، وخراف بلا سياج»، هذه العتمات الثلاث قد تسبب الضياع، وأقواها هو جهل الإنسان لنفسه.. وهذا ما يحدث للناس حيث السعادة وَهْم، والثروة والغنى لا علاقة لهما بالسعادة، والتطور التكنولوجي لا يجلب السعادة أيضاً، أليس هذا ما يحصل الآن للإنسان، أوَليس هذه هي الخيبة الكبرى؟ إذا لم يحاول الإنسان دراسة نفسه جيداً، ويدرس العلاقات الحيوية التي تجري داخله لن يتوصل إلى الطمأنينة.. فالخلايا أشبه بأقوام وشعوب تتفاهم وتتفق فيما بينها، فهناك ساعة بايلوجية وزمن آخر غير الزمن الأرضي المتعارف عليه، الذي ينتج بسبب دوران الأرض حول الشمس، هناك الكثير من الأمور الغامضة التي يجهل الإنسان معرفتها، وهناك أعضاء تُربي البكتريا وتستخدمها لإنتاج مواد كيمياوية معينة، مثلما يفعل القولون لإنتاج الغاز لرفع ضغط البطن ودفع الغائط إلى خارج الجسم، وأما على الصعيد الحسي فثمة مشاعر متضاربة غير مفهومة، تحدث بسبب المصير والموت وعلاقة كل ذلك بالروح والكون، فتضيع الروح في متاهات ومتاهات.

المشكلة في ذلك إن علم المجتمع يهمل الإنسان الفرد، ويتعامل مع البشرية كقطيع يحاول البقاء، ويحاول الحصول على مصادر التنمية الاقتصادية، لن يصبح الإنسان إنساناً إلا إذا اكتشف عالمه الخاص

المريب والغامض الذي يومض مثل كوكب بعيد، صحيح إن اكتشاف الخارطة الجينية يُعد فتحاً علمياً كبيراً يوازي صعود الإنسان إلى القمر، لكنه غير قادر على اكتشاف الآلية التي تتفاهم عبرها الخلايا الحية وأعضاء الجسم الأخرى، لأن الكروموسومات معنية بنقل الصفات الجينية بصورة عامة، ولم يكن جهاز الرنين الكهرومغناطيسي إلا جهازاً لتحديد الأعضاء المصابة أو الخلايا المريضة، وظلت علاقة أعضاء الجسم والخلايا فيما بينها عملية غامضة... فأحياناً تتواصل الخلايا عن طريق المواد الكيمياوية(الفورمون)، وأحياناً عن طريق الإيعازات الكهربائية التي تنقلها حُزم الأعصاب، وهناك طرق كثيرة لا نعرف تماماً آليتها.

يا أسمر يا صديقي.. الإنسان مخلوق عمودي، قدميه في الأرض ورأسه متجه نحو السماء على خلاف معظم المخلوقات الأخرى، التي لا تنتصب على طول الوقت، فمعظم المخلوقات تمتد أفقياً، وهذا الوضع يجعل من رأس الإنسان يعيش ككائن سماوي، بقدمين تمشيان على الأرض، فلم يكن مكوّناً من روح وجسد فقط، لكنما هناك أشياء أخرى أبعد من ذلك بكثير هي من تجعله مشدوداً إلى السماء وثابتاً في الأرض، ومشدوداً إلى الحياة، ومشدوداً إلى الموت، وكانت كل محاولات الطب في فهم الإنسان هي تشريح الجثث، ويحاول المنقبون والآثاريون اكتشاف كيف يعيش الأقوام القديمة عبر التنقيب في مقابر المدن المندثرة، ولم يستطع الأطباء دراسة وتشريح الإنسان الحي تشريحاً طبياً ومعرفياً في ذات الوقت لمعرفة الحياة والعلاقات الوظيفية للأعضاء الحية وليس للأعضاء الميتة... فَمن الذي يعطي أمراً إلى

الكِلى لتستخلص الأملاح والشوائب الأخرى من الدم.. مثلاً، وكيف لا تُخطئ وتفرّغ محتويات الدم الضرورية؟ وكيف يوازن البنكرياس نسبة السكر في الدم؟ وغيرها من الوظائف الأخرى التي تقوم بها بقية الأعضاء، ومن يدّعي أن الله وضع برنامجاً لها فهو جواب كسول، لأننا يجب نعرف هذا البرنامج، ويجب أن نعرف من يرسل الدواء إلى الخلايا المريضة، فهناك احتمالات تحاول أن تفسر كيفية وصول الدواء إلى العضو المصاب، ولم يتمكن أحد من التأكد من هذه العملية قطعاً.. ثم أين تذهب الروح حينما يُبنج الإنسان قُبيل إجراء العمليات الجراحية، وكيف يمكن أن تؤثر الأدوية المنومة أو المخدرة على الروح، أليست الروح شيئاً غامضاً، وإن أمرها من الله، فالمادي لا يمكن أن يؤثر على غير المادي، فمن يدري.. فلربما تُخبئ أعضاء الجسم روحها في مكان آمن بعيد عن الأدوية المخدرة، وحينما تضعف هذه الأدوية وتتلاشى تستدعيها للخروج ثانية لتتجول بين أعضاء الجسم... لم يستطع علماء المجتمع معرفة ودراسة الأحياء قبل أن يذهبوا إلى المقابر، ولم يقدم التطور الصناعي أية حلول، بل كانت له آثاراً مدمرة على الطبيعة بصورة عامة، والتي سرعان ما انعكست على الإنسان الفرد، ثم على البشرية ككل، كان اليكسي كاريل يصف مأساة الإنسان بأنه: «الحجر والنحات معاً.. فكيف ينحت نفسه!؟».

ألا يا أسمر يا صديقي، كيف ستعرف نفسك؟ ثم كيف ستعرفني؟ وكيف لي أن أنقذك مني؟ كيف لي أن أتحرر منك وتتحرر مني؟ وإلى أين ستذهب بحريتك؟ وهل تستطيع العيش بدوني؟ وكيف أستطيع العيش خارج سجنك؟ من أجلك يا أسمر.. وأنا القابع هنا وهناك، سأتحمل

وزر عبوديتك، وسأرافقك أينما حللت، يا عدوي ويا صديقي، إن مصيراً مشتركاً يشدنا لبعضنا، كم أحبك وكم تكرهني، وأكرهك وتحبني، ما أغرب هذه الثنائية التي تبقيك وتبقيني على قيد هذه الحياة، التي نجهل حتى مغزاها، لكن أيها الصديق العزيز سأظل أحاورك، وسأحاول أن أكشف عن مكنونك، سأُعبِّر عما يجول به خاطري وخاطرك، سأكتب عن هواجسك ومخاوفك وأحلامك، ستبقى أنت أغلى سجين، وسأبقى أرقّ سجّان، وكم أتمنى أن أُسجَن معك في سجن انفرادي، أليست هذه أمنية مجنونة، ليكن الجنون بقدر الحب... ربما حتى أنزل منـزلتك، فنكون معاً زملاء سجن واحد، وسيتسنى لي أن أصاحبك.. كل أملي بعد هذه السنين من العمر هو: أن نعلن السلام معاً، ونحطم القطيعة والحرب الباردة بيننا، الوحدة التي نعانيها معاً، هي نتيجة للحروب الوهمية التي نشنها على بعضنا، تعال يا أسمر يا صديقي نتصارح، ألم نؤمن بالأوهام أكثر من الواقع؟ ألم يكن الواقع نتيجة للوهم؟ إذاً لا خلاف بيننا، تعال لنعش معاً في هذا الأثير كروحين ومصير واحد، وحيث كل شيء يكون قريباً... المكتبة المتخيلة قريبة من السرير المتخيل الذي نتقاسمه، سنقرأ حتى ننام، ونرسم مثلما كان النبي ماني يرسم لوحاته، ونخطّ مثلما يخط بقصبة من غابات القصب التي تنمو في أهوار الجنوب، وسنكتب كما يكتب تلميذ صغير، حينما يستلقي على بطنه مُجرباً أي وضع مريح لكتابة واجباته المدرسية، سأعذّب روحي لأشفي جسدك، ولو أن هناك من بد لحاولت، لكنه القدر الذي جعلني أختارك لهذه المهام، فكيف لي أن أحررك كما يتحرر عصفور من قفص... لم أتخيلك يوماً كما أنت، كتلة من اللحم والدم، ولم أتخيلك كذلك مثل هيئتي أو إنك تشبهني،

فلا أحد يشبهني، فأنا لا أسير كما تسير أنت على قدمين، أو مثلما تأكل بيدين، أو إنني أرى بعينين لا لا أنا شيء لا تدركه، ولا تستطيع أن تتخيله، فأنت لا يمكن أن تراني أو ترسمني، فمن يرسم الجنون ومن يرسم الموت، فإذا ما انتهت الحرب القائمة بيننا، فلربما يمكن لك أن تعرف شكلي، ومن أي قوم أنا، وستعرف بأي عقيدة أعتقد، وستدرك رؤيتي للكون وللوجود والعدم، ستقرأ أفكاري وسأسألك سؤالاً واحداً لا غير: إذا سيطرت الأجساد علينا، فهل سنُلقَى في سجن القفص الصدري، ونصير كما القلوب.. ونتبادل الأدوار؟ قصتي معك من القصص التي لم تنتهِ بعد.. وهي من القصص التي تتكلم قبل اكتمال أحداثها، ولكن إذا استطعنا أنا وأنت من التخلي عن فكرة أسمر يساوي جسداً، بينما المانوي يساوي الروح أو القلب، حينذاك سنتمكن من كتابتها وسنعنونها عدوي أيها القلب، أما قصتك يا أسمر، فإن شخوصها تنفلت وتضيع مني كما الخرزات التي تتحرر من خيطها، وتضيع في ظلام دامس... عائلتك المكونة من الأب والأم وولد واحد، تفاصيل حياتكم لم أدونها بعد، لأن الأم وابنها ماتا تحت كتل الجدران قبل أن أفكر في تجسيدهما، وكنتَ تنوح وحيداً، تركتَ عملك لتتفرغ للبكاء، وعندما جفّت دموعك صرت تنوح بغناء أهل الأهوار، لكن الكلمة الدالة على معظم مراحل حزنك كانت كلمة عويل، التي لها علاقة بكلمة عائلة على ما أعتقد... وعندما انتهت هذه المرحلة، باشَرت العمل في دكانك، فاكتشفت أنك لا تستطيع أن تتحدث لزبائنك، لأن عيونك كانت تتكلم قبل أن يتكلم لسانك... تركت الدكان نهائياً هرباً من الإحراج وأسباب أخرى، ونفد آخر دينار في جيبك، ومارس الجوع عليك ضغطاً لا يطاق،

فلا أعرف تماماً كيف قادتك معدتك إلى المزبلة ليلاً، لتبحث عن كسرة خبز أو طعام لم تُفتتها البكتريا بعد، ولمّا كنت تلوح بقايا الخبز على النار، قاتلاً البكتريا والعفن لكي تطرد الرائحة المقززة، متلذذاً بحروق تصيب أصابعك تارة، ودُخان يلهب عينيك تارة أخرى، فتنساب الدموع على خديك، تتركها لتجفّ على وجهك، فتتحسسَها قبيل أن تنام، فتنبعث في نفسك طمأنينة غريبة، فتدخل عالم النوم بلا كوابيس... وفي أحيان كثيرة، كنت تنوح قبل أن تنام بصوت أشبه بالغناء الحزين، ولمّا استهلكتَ كل الكلمات التي تندب بها ابنك وزوجتك ما عادت تؤثر في نفسك، كنت تطلق صوتاً غريباً يخرج من أعماق نفسك، كما يخرج العواء من جوف الذئب.. فالذئب يوحد كل أعضاء جسده لإنتاج العواء.. العواء نشيد الذئب في ليالي الوحدة والبرد والجوع، لكن صوت الذئب كان يسمع من بعيد، إلا أنك ايها المنكوب بالفقدان كنت تنوح داخل نفسك.. تنوح بصوت غير مسموع، ولا أعتقد أن أحداً غيري يعرف تماماً، إن كنت فعلاً قد تركت المدينة، وذهبت لتبحث عن الذئب الذي يعوي في نقطة ما من الليل البهيم، أم إنك كنت تبحث في مخيلتك..

غادرت المدينة وسرت وسط حقول زراعية، وكنت تأكل كلما جعتَ نباتات لا يُعرف صنفها، فتجتازها إلى الصحراء، باتجاه النداء الذي كان يأتيك من بعيد، إنه نداء الذئب الذي يشاركك همك وحزنك ووحدتك، إلا إنك لم تعثر على الذئب إلى الآن، لأن القصة لم تنتهِ بعد.. القصة قائمة في ذهني أو في ذاكرتي، وأخشى أن تأكلها حرائق النسيان، وأنا الآن أُفتش عليها وأنبشُ تراكمات الماضي، كما يحفر المنقب عن آثار الماضي البعيد، أو كما الرسام إذ يزيح البياض من فوق لوحته، باحثاً عن

الأحداث والرؤى والكون والحياة الحقيقية، والمعنى.. نعم المعنى، هذا هو مبتغاي من الدنيا، كأنها هنا بلا معنى، وتظل الريشة تحفر، بينما أنا أحدّق في لون التراب المستخرج، لكن المعروف أن ريشات الرسامين المهَرة تظل تحفر حتى بعد موتهم لقرون طويلة، ومن بين غبار الألوان أو الأحداث، تتراءى لي صورتك باهتة تزيحها ريشتي الوهمية، فتبدو من بعيد مثل صورة يغطيها غبار الزمن، لكنها تبدأ بالاتضاح رويداً رويداً.. هيكل لبناية لم يكتمل بعد، وثمة ماكنة خلط الخرسان الهَرِمة التي تدور وتجأر بصوت مُلح، وكنتم تدورون حولها لتغذوها بالماء والحصى والرمل والإسمنت، يغطيكم نتيجة لذلك الغبار الذي يتطاير باتجاه أبخرة «البحر الميت»... تتراءى لي معاني كثيرة في وجوهكم، وإن كانت تتمرأى حيناً ويخفيها الصلف والاعتداد بالنفس حيناً آخر، تنطبع بين سحناتكم الحجرية التي لوّحتها شمسٌ لا تغيب، إلا بعد أن تشويكم وتُسلمكم لأفواه ظلام الليل، ولكن كيف لي أن أعرف كل ذلك.. إذا لم أكن موجوداً في رأسك كالجنون؟

Telegram: @Arab_Books2

الفصل الثالث

يظهر «العراقي» مع مجموعة من العمال المصريين وهم يدورون حول ماكنة خلط الخرسان، ويبدو منظرهم في هذا المشهد من بعيد وكأنهم مجموعة من الهنود الحمر تدور وتحتفل تحت أقدام آلهتها.

إذ تحتم عليهم في هذا الصباح الوحشي تدوير خلّاطة الخَرسان.. ليلقوا في فوهتها بتناوب الماء، الرمل، الحصى والإسمنت.. وحينما تستدير بفعل سائق الخلّاطة، الذي يفتح فمه فتظهر سنه الذهبية، فيصرخ بصوت يبدد حدته هرير الماكنة الهرمة، قبل أن يفرغ حمولة الخلّاطة بعربة نقل الإسمنت، عندها يندلق الخَرسان في عربة الدفع فيُدير العامل المكلف مقود الخلاطة فتظهر عجيزة الماكنة المتسخة بدهانات سوداء وبقايا إسمنت متجمد، لتعود فوهتها مفتوحة من جديد، وتعود أصواتهم المنطلقة من أفواه تحاول أن تزيح الوهن وتتصارع مع صرير الماكنة، وتعود صفائح الرمل والإسمنت والماء والحصى لتلقى في الفوهة التي لا تشبع، وكأنها بصريرها الحاد هذا تطالبهم بالمزيد.

وفي استراحة الغداء تناولوا غداءهم المطبوخ في صفيحة زيتٍ، مرسوماً عليها شمس متألقة وفتاة تحمل إناء المقليات، لكن صورة الفتاة مُحيت أو تكاد بسخام الطبخ أو الواقع، وضاع جمالها المفترض...

شربوا أكواب الشاي الثقيل، وذهب ذو السن الذهبية ليسند خلّاطته بالأحجار، وما إن رفع إحدى الأحجار إذ شعر بتوهج سيكارة في أحد أصابعه، فخرج صوت غريب من فمه لا إرادياً، وسقطت الحجرة من يده، فشاهد الأفعى تحاول الهروب من الشمس المُحرقة لاصفرار لونها الحسّاس، هرسها تحت حذائه الملوث بالخرسان بتقزز، بينما ظلت الجمرة مشتعلة بطرف إصبعه، تناول بهياج فأس تقطيع الحجر، وثبت إصبعه على أقرب حجر، وضرب بالفأس الحادة طرف إصبعه الملدوغ وقطعه في الحال، ولم يسمع في هذا الوقت الأصوات التي انطلقت من أفواه العمال التي تحذره وتذكره بالسم الذي قد يسري بجسده، وأخرى تشجعه وأخرى أطلقت أصوات الدهشة... فتعاون زملاؤه لشد يده بقوة من المرفق لإيقاف السموم، لئلا تواصل سريانها مع الدم، تاركين إصبعه المبتور ينـزف حتى صبغ كفيه، ثم ذهب إلى شاطئ البحر الميت، يتبعه شبح السم ويرافقه الألم.. غمس كل كفه بالماء، وكابد ألم الأملاح وهي تلسع جرحه بألسنة وهمية، فصرخ بصوت حزين (آه) على إصبعه الذي فقده، وشعر بآهته تذوب عبر مويجات البحر وتتلاشى، مثل دمائه التي تلاشت وصبغت للحظات الماء الرائق، وبعد دقائق.. عاد صرير الماكنة ليبدد أصوات الشَغيّلة، ثم يذوب في صخب البحر المهيمن على المشهد برمته.

يبتلع البحر الميت الشمس، ويُذوّب لون دمائها في مويجاته البعيدة، فيغدو البحر مريباً ومخيفاً.. إذ يتحول لونه من الرائق الشفّاف إلى اللون الأزرق السمائي، وكلما يزداد عمق البحر الميت يعتم لونه أكثر، ثم يصبح فجأة أزرق داكناً حد السواد، وكلما مد المرء بصره أكثر يتحول

لون البحر الميت إلى اللون الكحلي المعتم، ثم إلى اللون الرصاصي الفاتح، حتى يختلط مع لون الحافات الحجرية التي ترسم الأفق الهلامي البعيد، فتظهر خيالات ووهم قامات أُناس، تبدو مثل شعيرات ناتئة تظهر لمن يحدق في الأفق طويلاً، لكنها تتلاشى وتظهر كالوهم أشباح اليهود ذلك الشعب الذي غزاه «نبو خذ نصر» وسلب أمواله وكل مدخراته، لأن مملكة يهودا لم تدفع لـنبو خذ نصر الضريبة، وإنما كانت تدفعها مُخفضّة للفرعون المصري، ولم يرجع الجيش البابلي إلا بعد أن نَصَّبَ لليهود ملكاً جديداً خاضعاً لسلطة بابل، ولم ينه هذا الملك في المنصب من السنين سوى عقد ونصف، حتى اتّبع هوى شعبه وعاد لمعاداة بابل من جديد، لكن نبو خُذ نصر لم يمهله قليلاً، حتى غزا الناصرة ونابلس والجليل والقدس، وعاد جيشه بالغنائم وسبايا كل كادر كنيست الهيكل وحائط المبكى ليواصلوا بكاءهم في بابل وبلاد سومر، ويواصلوا حقدهم على بابل، ليس في كتبهم المقدسة فقط، وإنما في كل مناحي حياتهم، التي كانت تتشتت تارة بفعل تنامي دول واضمحلال أخرى، وتارة أخرى تجمعهم التوراة، فقد عرف هذا الشعب أن لا وجود له بين الشعوب غير الموحدة لله فظل قابضاً بيد من حديد على التوراة.

عاد العمال إلى مساكنهم.. بعد أن خلفوا البحر الميت هامداً وراءهم، حاملين أدوات العمل، وبأقدام منهكة وصلوا إلى مساكنهم التي لا تبعد كثيراً عن مقر عملهم.. قبل أن يغرقهم الظلام بسديمه غسلوا أيديهم ووجوههم من لعاب الخلّاطة الإسمنتي، وتناولوا عشاءهم، دون أن تغيب عن مخيّلاتهم أحداث النهار المنصرم بالتعب والمصاعب، وطرف إصبع زميلهم الذي ظل خلفهم بالعراء، كأنه يشير إلى العدم...

احتسوا أكواب الشاي، وغطّ بعضهم بنومة مفاجئة، وظل صاحب السن الذهبية ممسكاً بيده المربوطة بخرقة قميص قديم حائلة ألوانها وملوثة ببعض الدماء، يغالب ألماً كان ينبض بطرف إصبعه الوهمية، فسهر معه زميلان لئلا ينفرد به السم.

قال لهم: ناما.

قال أحدهما: نعم.. لكن مازال الوقت باكراً.

كانت أجوبتهم حذرة، حتى لا يشعر بأنهم كانا يسهران من أجله، وحين تقترب جمرة سيكارته من شفاهه المسودة، يطبق عليها بفمه، فتضيع سنه الذهبية للحظات وسط الدُخان، ويرتفع صوته الهامس مختلطاً بالتوجع إلى مسامع زميليه، حدثهم بلهجته الصعيدية عن رجل ما، غير أن القصص كانت دائماً تتكلم بلغتها الخاصة.. ويواصل صوته الذي كان يبعد الدُخان عن مخارج الحروف قال:

كان الرجل يعمل هنا على ضفاف البحر الميت.. يعمل في بناء فنادق للسواح الأجانب، مثلنا، وظل هنا لمدة ست سنين يواصل النهار بالليل.

ثم ينغمر سنه الذهبية بكتلة دُخان جديدة، وليستأنف حديثه من خلال الدُخان...

جمع الرجل ماله ديناراً على دينار، إلا أن زميلاً له سرق (تحويشة العمر) وهرب بها إلى مصر، تبعه الرجل إلى هناك، لكنه لم يذهب إلى أهله (وانتم عارفين.. ازاي اهلو واحشينو وازاي كان يتخيل رجعته للحته...).

كتلة من الدُخان تملأ الفم، فيضيع بريق الذهب ويتابع من بين لفائف الدُخان المتلاشية...

كانت المدينة التي هرب إليها اللص لا تبعد سوى ساعتين بالسيارة، ساعتين فقط تفصلانه عن أمه وأخوته الذين فارقهم ست سنين...

(آه) يهمس زميلاه من بين كتل الدُخان الذي يتواطأ معه ظلام الليل لإخفاء سحنات الوجوه، ويظل الهمس والهمهمة يديران دكة المشهد...

لكنه لا يفعل ذلك (عارفين ليه؟)

ويجيء الجواب من الظلام (عارفين!)

وحملت الناس عبر القيل والقال خبر وصول الرجل إلى مصر، وأن هناك حكايةً لا يريد أن يعرفها غيره، وخاصة أهله فيصيبهم الهمّ في عقر دارهم، وظلت الأم تنوح بالسر، وظلت العائلة تتابع الحكاية من بعيد، حتى عرفوا بأنه لم يعثر على اللص، ولا على نقوده، فعاد ثانية للغربة وكأن شيئاً لم يكن، أتعرفون من هو هذا الرجل، إنه...

ثم صمت لفترة، وخرجت الحروف مع الدُخان: (أ ن ا... أنا)، وضرب بحرقة على صدره بيده السليمة... فانطلقت في أجواء الغرفة أصوات تحمل معنى التساؤلات والكلمات المبتورة (ازاي.. ازاي إدرت... تسكت كُل...)، (معأولة يصير فيك كده...).

كان العراقي يصغي لحكاية المصري (أبو سن دهب) كما يحلو لزملائه حينما ينادون عليه.. فتلاشى عنه القلق، واستثاره حماس شديد قبل أن يقدم على ما هو مزمع عليه... وما إن قال ذو السن الذهبية

(أنا) حتى أجلسته هذه الكلمة على فراشه وقال لهم: ليناولني أحدكم سيكارة.. ودعوني أسرد لكم حكاية تصلح لهذه الليلة الدامية.

قالت كتلة الظلام: (ياساتر!! أنت صاحي يا عراقي.. بس ما نعرفش أنت بدخن سكاير).

قال العراقي: ستعرفون عني الكثير.. أيها السادة..

ثم تألقت أربع جمرات من التبغ، في غرفة مصنوعة من الطوب الطيني، غرفة تضم على جانبيها أفرشة أربعة من عمال صبّ الخرسان، بينما المجموعة الثانية تنام في الغرفة الأخرى، وهم جميعاً كادر الخلاطة التي تُركت هناك قريبة من جثة البحر الميت، تنتظرهم ليغذّوها في الصباح بما تطلبه منهم من قرابين...

(ايوه كده عايزين حكايات رجال) قال أحدهم.

أخذ «العراقي» نفساً عميقاً من الدُخان، وحبسه لفترة، ثم أطلق سراحه بعد أن ذابت ذرات النيكوتين، ومرت بتجاويف قلبه، وانتقلت بطرف عين إلى خلايا المخ، لتخدر رؤوس أعصاب كانت تنتظر بقلق مفرط أمراً ما... لم يكن بباله كيف يروي الحكاية، فترك مخيلته لتحلق في فضاء الغرفة، وتمسح الموجودين بأيدٍ وهمية، ثم حدّق بجلسائه، ولم تظهر إلا هيئات لرجال كانوا قبل قليل يصارعون الزمن في اللحاق بآلة تأكل من لحظاتهم ومن قوتهم، لتتركهم نهباً لأذرع التعب.. قال:

كان هناك رجل اسمه «أسمر»، عاد من عمله ذات مساء، فوجد البناية التي يسكنها وقد تحولت إلى كتل من الجدران، وراح هذا الرجل

يتلمس الأبواب المحطمة والنوافذ بيديه، ليتأكد من أن شقته قد تهدمت واختلطت جدرانها مع أجساد عائلته، حصل ذلك بفعل انفجار سيارة مفخخة كانت مركونة بالقرب من البناية، وتجمد الرجل وسط الدخان والغبار، محاولاً أن يصدّق ما حدث، فالحقائق أحيانا تكون أشد غرابة من الوهم... واحتاجت السلطات ثلاثة أيام لاستخراج الجثث من تحت كتل الجدران، وقد جُنَّ جنون أسمر فترك عمله، وظل يبكي وحيداً لشهور، وضاع في الأرياف والصحراء، حتى عثر عليه رجل بدوي فاستضافه في خيمته... كان للبدوي ابن يذهب بأغنامه قبل طلوع الشمس ولا يعود إلا في المساء، وكعادة الأعراب فإن الضيف لا يُسأل إلا بعد مرور ثلاثة أيام.

قالوا: (ايوه بنعرف دا).

وفي نهاية اليوم الثالث في الليل، حيث النجوم تطرز ليل الصحراء بشبكة من الضوء الشفيف، وكان من عادة البدوي أن يحرس أغنامه من غارات الذئاب، وبدأ أسمر يرافق البدوي بجولاته الليلية، مستمعاً إلى اجترار الأغنام وإلى تنفس الليل المتوحد مع بعضه، سأله البدوي: عما جرى له، فأخبره: بأن سيارة مفخخة انفجرت قريبة من شقته في بغداد.. ففقد كل عائلته في ذلك الانفجار.

توقف العراقي قليلاً بعد أن دار لغط وهمس بينهم، أنهاها ذو السن الذهبية قائلاً: (أكمل يا سيدي...)

قال العراقي: بكى البدوي كثيراً فأحس أسمر لأول مرة بمشاعر حقيقية تفيض دموعاً... بكيا معاً، فخرج صوت نواحه مسموعاً... ولم

يبكِ داخل نفسه مثل كل مرة، انطلق نحيبه الغريب ليذوب ويختلط مع أصوات كائنات الليل، شعر بارتياح كبير ورغبة عارمة في النوم، انزوى بالخيمة واستغرق في نوم هادئ لم ينمه منذ أن فقد كل شيء.

استغل ذو السن الذهبية هذه الأجواء، فتنهد عالياً من ألم إصبعه...

بينما واصل العراقي حديثه:

وفي الصباح سأله البدوي: ماذا تريد أن تصنع بعد هذه المصيبة يا أسمر.

قال: لا أريد أي شيء، أريد أن أبكي فقط.

قال له البدوي: ولكن بكاءك هذا لا يجدي نفعاً.

قال: أعرف ذلك، ولكني لا أملك غير دموعي، وأريد أن أهدرها في هذه الصحراء كما يهدر الذئب عواءه.

قال له البدوي: أنت تملك الثأر، والثأر وحده من يعيدك إلى نصابك.. اثأرْ من الإرهاب.

قال ذو السن الذهبية: (هذا الكلام والا بلاش).

أكمل العراقي سرده للقصة، وكأنما لا يسمع تعليق هذا وذاك...

قال أسمر: وأين أجدهم.

قال البدوي: سنساعدك على ذلك لتنضم لهم أولاً.

قال أسمر: فهمتُ.

ولم تمرَّ سوى أيام، وبينما كان البدوي وضيفه يضعون الخطط

للوصول إلى قادة الإرهاب، تأخر ابن البدوي حتى حل الليل، فتكهربت خيمة البدوي بارتباك وقلق لا يطاق، وظلت زوجة البدوي واقفة على مرتفع قريب من الخيمة، حتى غطّاها الظلام، وأمست مثل خرقة سوداء معلقة على حبال الوهم...

قال ذو السن الذهبية بحرقة تتناسب مع ألم إصبعه: (الله يكون بعونها).

ارتدى البدوي حزاماً جلدياً، وعلق مسدسه بالحزام، ولمّا وصل إلى زوجته الواقفة هناك مثل الفزاعة في الظلام، قال لها بحدة: ادخلي الخيمة واهتمي بالبيت وبقية الأولاد.

اتجه صوب الظلام يرافقه أسمر، وقد استبدّ به حماس وحزن أضفيا على موقفه بعض الأهمية.

علق أحدهم: (كويس أسمر مشي معه وإلا كان موقفو يصير زي الزفت...).

... سارا صامتين حتى اختفت الخيمة، واختفى فانوسها وراء كثبان الرمال وأمواج الظلام، حدد البدوي النجوم التي سترشده إلى المراعي، وسارا لمسافة لا يعرف «أسمر» مداها، قال كاسراً الصمت: إنه منتصف الليل على ما أظن، قال شبح البدوي: ظنك في محله، هل وصلنا المرعى؟ لم يسمع «أسمر» جواب البدوي، لأن عواء ذئب أمسك بتلابيب وعيه وبدده بين الوهاد.... اتبعني، قال البدوي.. بعد أن أخذ قبضة من الرمل وفركها بين كفيه، تبعه أسمر بخطى تتناسب مع سرعة البدوي، محاولاً نسيان الألم الذي راح يزحف على ساقيه، هبطا إلى وادي معشوشب

إذ إن صوت خطاهم قد تغيّر، وفجأة توقف البدوي ووضع أذنه لصق الأرض، ثم صاح بصوت طويل «محموووووود « بعد أن لفّ كلتا يديه مكوناً ما يشبه الأنبوب، وكرر نداءه لثلاث مرات باتجاهات مختلفة، ثم تمدد واضعاً أذنه لصق الأرض، وظل يصغي لفترة من الزمن وكأنما يصغي لضربات قلب الصحراء، وبدت هيئته وسط الظلمة كأنها ربوة أو طية رملية من تلك الربى الكثيرة، نهض نافضاً الرمل من ثيابه وقال: لا شيء.. لا جواب.

قال أحد المصريين: (مين عاوز شاي...).

(كُلنا) قال أبو السن الذهبية.

استمر العراقي بحديثه:

كان أسمر يسير خلفه، ولا يدري إن كانا ذاهبين إلى مكان ما، أم كانا عائدين، حتى بدت معالم الصحراء تظهر شيئاً فشيئاً، قال: لنعود.. فربما نجد ابني وأغنامه قرب الخيمة... ارتفعت الشمس، حتى بدأ لهيبها ينعكس من خلال حبات الرمال ويهمي العيون... ظهرت الخيمة مرات عدة، ولكنها تختفي في كل مرة خَلف طيّات الصحراء، واجهتهم الأم بعيون دامعة.. عيون مفتوحة على وسعها لترتسم عليها الخوف والقلق والدهشة، وتستوعب الحزن والأسئلة، ولما كانا لا يملكان جواباً هربا من تلك العيون المستفزة...

قال واحد من الكتل المظلمة: (يهربوا فين مهيا المصايب حلت).

كان للشاي مذاقه الخاص للعراقي، وكان للشاي طعم آخر لصاحب

السن الذهبية، مادامت مشاعرهم مختلفة، ومادام الألم الذي يعانيه (أبو سن دهب) لا يشبه القلق والترقب الذي يعصف بالعراقي، إذ أن لحظة التحدي هي التي تقود مجريات الحكاية وتحدد الأفعال، استمر العراقي بحديثه وهو يرتشف شايه من قدح غير مرئي:

جلسا بالخيمة، فتكلم «أسمر» محاولاً أن يوصل صوته إلى أسماع المرأة: ربما اعتقله الأمريكان، وربما الإرهابيون، قال البدوي مشجعاً إياها: أعدّي لنا طعاماً إذا لم يكن لنا فلضيفنا... وبعد أن تناولا طعامهما صامتين، شرب البدوي الكثير من القهوة ليطرد النعاس والتعب، بينما كان « أسمر» يغطّ في نوم عميق، تلثم البدوي ثانية وركب على فرسه التي همهمت قبل أن تنطلق ناثرة الرمال خلفها، وبين عَدْوٍ وخبب استمر لساعة أو أكثر، حتى وصل إلى خيام كثيرة...

قال أحد الجالسين:(خيام القبيلة).

قال الآخر: (هذي الحكاية والا بلاش.. العراكَيين عندهم بلاوي من الحكايات).

قال ذو السن الذهبية: (مهو النفط بيعمل كده).

استأنف العراقي سرد حكايته بعد أن اعتدل بجلسته:

اتجه البدوي إلى خيم شيخ القبيلة، وصلهم في وقت الغداء، كان المضيف خالياً عندما جلس، رحّب به خادم المضيف وسقاه عدة فناجين من القهوة، أخبره بأن الشيخ يتناول غداءه، جاء خادم المضيف بغداء للبدوي، وأخبره بان الشيخ سيأتي وعليه أن يتناول طعامه، وما إن

أتم غداءه حتى حضر الشيخ احتضنه، وقال: هذه مدة طويلة لم تزرنا، وكأن لا عشيرة لك، وقبل أن يجيب البدوي قرأ الشيخ القلق والحزن في وجه البدوي، قال الشيخ: سلامات، وظل ممسكاً بفنجان القهوة.

قال ذو السن الذهبية: (شيخ ابصحيح يعرف وجوه رجالته).

داهم أحدهم العراقي بعلبة سكائر، ثم راحت قداحة السكائر تشتعل عند وجوههم، فتظهر للحظات الأخاديد على صفحاتها، التي حفرتها الهموم والتعب إلا ذا السن الذهبية، فقد انطبع الألم الذي كان يكابده على طول الحكاية، ويسلّي نفسه بتعاسة البدوي وأسمر.

واصل العراقي حديثه، وكانت جمرة سيكارته تتحرك وفقاً لإيقاع الحديث..

ولما عرف الشيخ بالأمر ظل مطرق الرأس، ثم قال: وابنك لم تكن له علاقة لا بالأمريكان ولا بغيرهم؟ أجاب البدوي بحزم: ليس لابني أي علاقة بأحد، قطع حديثهم توافد رجال القبيلة على المضيف فأخبرهم الشيخ بالأمر، وصار نقاش بين الرجال وبين البدوي، أنهى الشيخ الأمر بعد أن ارتفع صوته بين الأصوات الأخرى، آمراً بأن يتم البحث والاستقصاء في الصحراء والمراعي وحتى بالمدن، اتصل بهاتفه النقال بشخص وأخبره بالاسم الكامل للشاب المفقود...

قاطع أحدهم حديث العراقي وهو يلم أقداح الشاي: (ونعم الشيخ.. الشيخ كده) ورفع إبهامه في الظلام... وتساءل (طب ازاي عند الشيخ خلوي وبيتصل مهو في الصحراء... فاختلطت الأصوات لتوضح شيئاً وتتساءل عن أشياء أخرى.

كان العراقي يحكي وهو يطوح بيديه باتجاهات متعددة، يبسط يديه غير المرئية لهم، وكأنما يحكي لنفسه بلهجة مصرية تارة، وأردنية أخرى، وعندما ينسى يتكلم بلهجته العراقية، فوضح لهم: هناك مولدات كهرباء يمتلكها الشيوخ والأغنياء في الأرياف البعيدة عن أعمدة الكهرباء.. قال:

ركب البدوي فرسه، وعاد أكثر حزناً من ذي قبل، فقد صار الأمر واقعاً.. سرى الخبر في الخيم كما النار في يوم عاصف، ولكنه تشوه بين خيمة وخيمة، ولمّا انفضّ المجلس وعاد الرجال إلى خيمهم، وضّحوا الأمر لعوائلهم، وسردوا لهم القصة بتفاصيلها، ووجه بعضهم التهمة إلى الضيف أسمر المجنون باعتباره غريباً مجهول الأصل.

مرت ليلتان على اختفاء الشاب، كان البدوي ينام خلالهما وكأنه مستيقظ، إذ إنه يهب بعد كل غفوة كالمجنون، ويطالع ما حول خيمته.. ولمّا لم يرَ الأغنام التي كان يحرسها تذكر المصيبة التي حلت به، ليغرق بتعاسة لا حدود لها.

قال ذو السن الذهبية: (مش حينام.. أنا ضيعت إصبعي وما عرفش أنام).

كان العراقي يتكلم بنبرة حزينة، ولكن في أحيانٍ أخرى يكون صوته حاداً يتلاءم مع المشهد الذي يرويه، ولهذا فقد أمسك بأسماع الجالسين... وأثناء بحثهم في صباح اليوم الثالث من فقدان الشاب حملت الريح رائحة جيفة إليهما، فتوقفا عن المشي ليتأكدا من اتجاه الريح، فقال أسمر للبدوي: أشم رائحة، قال البدوي نعم.. وأنا أشم كذلك، وبدءا يبحثان عن مصدر الجيفة، وشيئاً فشيئاً بدأت الرائحة الكريهة تزداد أكثر، فعثرا على جثة الكلب، كانت منتفخة وتغطيها

طبقة من الرمال تكاد تخفيها، وبغصن شجرة صحراوية بدأ البدوي يزيح الرمال عن فروة الكلب الأبيض، ثم ظهرت ندوب الرصاصات المتخثر عندها الدماء، قال البدوي بصوت يغالبه الزفير والحنق: محمود ليس بعيداً من هنا، وبحث بِهياج رافضاً أن يشرب الماء الذي كان أسمر يحمل مطّارته، وقادتهم الرائحة من جديد إلى البئر القديمة، وحالما وصلا إلى البئر صرخ البدوي بصوت أشبه بالعواء «محمموووود »، وانكبّ على وجهه بالرمال، أمسكه أسمر محاولاً أن يهدئه، ولكنه أفلت نفسه بقوة لا يمكن الصمود أمامها، فانزاح لثامه وظهر وجهه بتقاطيع شديدة الانفعال، وكأنها ليست للوجه الذي استقبل أسمر ذات يوم، هدأ وخارت قواه فجأة، وأقسم بشرفه وعلى نفسه بالثأر صارخا: سأموت من أجل الثأر.

قال أحدهم وهو يسعل: (ايوه كده دا البدوي زي الصعيدي عندنا كل شيء إلا التار).

استأنف العراقي قصته:

جمعا بقايا الجثة التي أكلت الضواري معظمها، إلا أن الرأس لم تنهشه، وكان مغطى بدم متجمد من أثر طلق ناري عند الجبهة، وضعا بقايا الجثة في عباءة البدوي، وعادا بها إلى الخيمة، ولما رأت الأم منظرهما هربت.. ربما هربت من الواقع، ثم عادت، ولمّا اقتربت وغزتها الرائحة لطمت رأسها وجهها، وصرخت: لا لا.. هذا ليس ابني وظلت تُردد...لا لا.. بلوعة ولفترة طويلة، وقف بقية الأطفال قريباً من أبيهم، وراحوا يبكون بكاءً مراً، قال البدوي لأسمر: اركب على الفرس وبلّغ القبيلة.

سعل العراقي وارتشف ما تبقى من شايه، وقال: (ملّ الرجال من حديثي).

قالت الأصوات: (استمر)، وقال أحدهم (دانت امير.. حكواتي بصحيح)، وهو يمسح بعض الدموع اللامرئية عن عينيه الغائرتين في محاجرها المظلمة.

واصل العراقي الحكاية لكن بنبرة مختلفة هذه المرة:

كان أسمر منذ أن فُقد الشاب بدأ يرتدي ثياب البدو، وركب الفرس لثلاث مرات، وقبل حلول المساء، وصل الشيخ ومعه جمع من الرجال مسلحين بالبنادق، ماعدا الشيخ كان يضع في حزامه الأحمر مسدساً ضخماً، وما إن وصلوا حتى بدأوا بإطلاق النار في الهواء.

حملوا الجثة لدفنها، وأسقط الرجال خيمة البدوي، وحملوها على حصان، ثم وصلت القافلة التي تحمل الجثة على فرس البدوي والخيمة على حصان لأحد أقربائه إلى خيم البدو، فاستقبلوهم بالبكاء والنحيب... انتهت أيام العزاء الثلاثة.

قال ذو السن الذهبية: (دا عندهم العزاء ثلاثة ايام).

مر أسبوعان حتى ذهب أسمر والبدوي إلى مدينة سامراء، بعد أن نصبا الخيمة قريباً من أهل زوجة البدوي، وقبل كل شيء زارا مقام الإمامين علي الهادي والحسن العسكري، صلا كلا على طريقته، وأجهش البدوي بينما كان يدعو ربه أن يوفقه بأخذ الثأر.

غادرا المزار، وكأن ظلال المأذنة الملوية تلاحقهما حتى دخلا سوق الأغنام، ولمّا لم يعثرا على شيء قال أسمر: إلى بغداد.

قال أحدهم: (مش بغداد بعيدة من سامراء والا إيه).

وضّح العراقي لهم بأن سامراء تبعد حوالي ثلاثة أرباع الساعة في السيارة عن بغداد، واستأنف حكايته بعد أن انتظر ولاعة السكائر التي كانت تدور على الجالسين، فاختلط الظلام مع الدخان وسعل ذو السن الذهبية، استمر صوت العراقي متدفقاً ليملأ الحجرة ويدور فيها:

ولما وصلا إلى بغداد كان ظلام الليل قد حلّ وسط زحام السيارات، وكان عليهما أن يجدا فندقاً مناسباً، وإلا فإن منع التجوال سيمنعهما من مواصلة البحث، كانت اطلاقات نارية تسمع في مكان ما من بغداد، ثم تلا ذلك دوي لانفجار، ثم سمعا صفارات الإسعاف تعوي، فزاد ذلك من قلقهما أكثر، سكنا في فندق في شارع السعدون وناما.. وثمة انفجارات كانت تهتز لها جدران الفندق، وهدير لطائرة مروحية غطى على أسماعهما لفترة قصيرة حتى تلاشى إلى وشيش.

قال أحد المصريين: (طب الانفكارات دي مين بيعملها).

قال الآخر: (يَاعم ما الحرب عندهم متهداش...).

قال العراقي دون أن يوضح سبب الدوي الذي كان يضرب نواحي بغداد:

في الصباح، تناولا فطورهما واحتسيا الشاي في أحد المقاهي، ثم استقلا التاكسي إلى (سوق الأغنام)، تجولا طويلا حتى عثرا في النهاية على نعجتين من أغنام البدوي، كانتا معروضتين للبيع، لكن أسئلتهما عن مصدرهما ضاعت، فمن تاجر أغنام إلى تاجر آخر.. حتى توصلا بعد يومين من تحرّيهم عن الأمر إلى اسم الشخص الذي باع النعجتين إلى

آخر تاجر، سجل أسمر اسم الرجل الأخير الذي باع النعجتين، ووضعه بين قوسين وطوى الورقة في جيبه، وقال للبدوي: سنتحرّى عن اسم هذا الرجل بهدوء وبسرية.

(العملية مو سهلة) قال العراقي معلقاً، قالت الأصوات (آه أبداً مش سهلة).

واستأنف العراقي:

هدءا بعد أن شعرا بأنهما يقتربان من الهدف، بعد ذلك تناولا طعامهما في المطعم، وشربا شاياً في المقهى، وتمنى البدوي أن يشرب دلّة كاملة من القهوة ضحك «أسمر» قائلاً: لا تقل لي إنك مشتاق إلى أهلك.

قال البدوي: طبعاً، ولكن المهم أنهم بأمان...

عادا إلى الفندق نفسه، اغتسلا وناما لبعض الوقت، وبدّلا ثيابهما وحلّقَ البدوي لحيته الخشنة، وارتدى ثياباً عصرية...

(مودرن) قال أحد الشخوص المظلمة.

استمر العراقي يروي قصته، فيرتفع صوته حيناً وينخفض في أحيان أخرى:

قال البدوي لـ«أسمر»: كيف تعيش في المدينة، أنا أراها مزدحمة وضاجّة بالضوضاء، على المرء أن يمر بالمدينة لا أن يعيش فيها، ضحك أسمر وقال: قل إنها ليست بيئتك، أنا ابن مدينة.. وجمال المدينة في حيويتها.. أُحبها صباحاً حيث يتوجه الموظف لوظيفته، ويتوجه العامل إلى عمله، والطالب إلى مدرسته، هذه الحياة في رأيي.

قال أحدهم: (أنت ياعراقي.. مش متكيف معنا هنا والا ايه؟). صمت

العراقي قليلاً، ثم استأنف حديثه ناقلاً وجهة نظر البدوي:...أنت دارس يا أسمر وتفهم الأمور أكثر مني.. أنا بدوي افهم في الصحراء والمراعي والأغنام والإبل، ولا أحب أن أمارس غيرها.

علّق ذو السن الذهبية: (أنا متكيف مع الخلاطة بنت الكلب دي هي زي زوجتي).

ضحكوا وقال أحد الجالسين: (ما عندهاش أُخت يعني وتخطبها لي).

قال ذو السن الذهبية: (حسألها بس أنته تهندم شوي).

قال العراقي موضحاً:... لكن عظمة الإنسان تكمن في التكيف.. إذا اضطر الإنسان أن يعيش في الصحراء عاش، أما من لا يطيق مثل هذه الحياة فلن يكون له وجود في الصحراء).

قال أحدهم: (ايه يبو سن دهب فهمت).

قال العراقي: (إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب).

قال ذو السن الذهبية: (دا الوقت افهمت).

عاد العراقي إلى حكايته:

تعاهدا البدوي وأسمر أن يأخذا بثأريهما معاً، كان البدوي قبل أن يفقد ابنه يسمى الإرهابيين بالمجاهدين، أما بعد مقتل ابنه صار يسميهم كما هم.

قال أحدهم: (هم مش يقاتلوا الأمريكان، ليه بنسميهم إرهابيين!؟).

قال الآخر: (الله وحده بيعلم هم مجاهدين وله لا).

قال العراقي لكن بنبرة صوت حادة هذه المرة، ربما ليقطع حديث زملائه:

وبينما كانا يغطان في نوم عميق طُرق باب الغرفة بشدة، فهرع أسمر ليفتح الباب، تفاجأ بجنود أمريكيين يقتحمون الغرفة بعد أن وجه أحدهم بندقية إليه، أمره أن يرفع يديه، ووضعوا البدوي بجانبه، وفتش الجنود الغرفة جيدا، عثروا تحت وسادة كل منهما على مسدس...

فاختلطت أصوات الجالسين بالظلام.. (متلبسين..).

فقال ذو السن الذهبية: (يبني متلبسين في إيه.. مفيش جريمة..).

قال الآخر: (سلاح مُش مُرخص).

فواصل العراقي حديثه غير عابئٍ باللغط الذي حدث:

قيدوهما، وغطوا رأسيهما بأكياس سوداء، وبسرعة نقلوهما إلى المُدرعة، فانتقلت بهما بدروب ودروب، تارة تجأر وتسير بسرعة، وتارة أخرى تبطئ سرعتها، أنزلوهما وقادوهما في أروقة، ونزعوا عن رأسيهما الكيسين، كانت الإضاءة مؤذية لعينيهما.. ثم شيئاً فشيئاً اعتادا على الأمر، قابلهما ضابط ومجموعة من الجنود، وكان للمترجم لهجة هجينة، ولا يمكن معرفة أصوله العربية بسهولة، يبدو كأمريكي يجيد اللغة العربية، وقبل أن يحققوا معهما، فتشوا جيوبهما، فعثروا على ورقة مطوية بعناية في جيب أسمر... قرأها المترجم، وتناقشوا مع المترجم للحظات، كتبوا الاسم الموجود في الورقة بالكمبيوتر، وماهي إلا لحظات حتى دار لغط بين الضابط الأمريكي ومجموعته،

كلموا المترجم وبدوره نقل المترجم ما يقوله الضابط.. سألهم: ما هي علاقتكما بهذا الاسم وعرض عليهم الورقة..

قال أسمر: لا علاقة لنا به.

قال البدوي: لقد سرق أغنامي.

نقل المترجم كلامهما، فقال المترجم يقول الضابط إجابة غير مقنعة، هل تريدون التنسيق معه لتنفيذ عملية إرهابية؟ أجابا: لا، فقال المترجم يسألكم الضابط لماذا تحملون أسلحة؟ فقال أسمر: لنقتص منه، سألهم: ومن أعطاكم اسمه، قال أسمر: عرفنا بطرقنا الخاصة، لم تكن أجوبتهم مُرْضية للضابط، ومرّ أسبوع وهم في السجن، ولا أحد يعرف مصيرهم.

(ضاعوا) قال أحدهم.

قال ذو السن الذهبية: (لا مش حيضيعوا.. الأمريكان مش زينا)، قال أحدهم: (طب الإرهابيين بيفكروا البيوت ويأتلوا الناس ليه!؟).

قال العراقي: (هم يفجرون الوضع بهذه الطريقة، حتى لا ينجح مشروع الأمريكان، الإرهابيون عندهم مشروعهم الخاص).

قال ذو السن الذهبية: (أنت متعلم... سولف يا خويه انتوا مش بتسّموا الحدوته سالفة).

(نعم) قال العراقي واستأنف حديثه:

وما هي إلا أيام حتى نقلوهما من سجن ابو غريب إلى سجن «بوكا» في البصرة...

كان السجن كبيراً، وكان السجناء منقسمين حسب طوائفهم الدينية، فاحتار أسمر والبدوي لبعض الوقت، ثم اتفقا أن ينضمّا إلى اتّباع المذهب السلفي الجهادي، ليتعرفا على من يبحثان عنه، كانت كل المجاميع تدرس أصول الدين الإسلامي، لكن كل حسب تأويله للآيات وللأحاديث النبوية... ولأن البدوي كان سنياً، ولكنه ليس متطرفاً، ولا يكفّر الطوائف والأديان الأخرى، لذا كان عليه أن يكتم أفكاره هذه، وأن يكون متطرفاً ويكفّر ويسب الآخر، أما أسمر فإنه ادّعى بأنه لا يفهم من الدين شيئاً.. خافياً بذلك تدينه الشيعي، وظلا يمارسان صلاة طويلة مع المتطرفين حتى صارا يمارسانها مثل الرياضة المملة.

قال العراقي: (نحتاج إلى ليالٍ وليالٍ حتى تعرفوا ما يدور في السجن... السجن مدرسة لإعداد الإرهاب لكلا الطائفتين).

قال ذو السن الذهبية: (لم نفهم).

قال العراقي: (أعني تحريضاً على العنف... الغاية تبرر الوسيلة).

قال ذو السن الذهبية: (لو سمحت اشرح لنا الغاية دي).

قال العراقي: (حتى ما تشتغل بكرة تعطل الخلاطة اليوم)، قالت أصوات الهيئات المظلمة (الله الله.. إيه ده!!).

وأضاف العراقي (الإرهاب يقتل ألف شخص من أجل أن يقتل أمريكياً واحداً... الغاية قتل أمريكي، الوسيلة تفجير قاعة مليئة بالناس المسلمين... الغاية أن أقتل أحد النائمين في الغرفة المجاورة، الوسيلة أحرق كل من في الغرفة).

اختلطت بعض الأصوات، فخرجت منها كلمات مثل (حرام والله دا أكبر حرام... غلط.. مش معقول الإسلام مش زي كده... كمل يا سيدي كمل.. والله دانته نورتنا دالوكت...).

قال العراقي: (الغاية أن تعيش الوسيلة تبتر إصبعك... بس الإصبع مش إنسان.. ومش تؤذي الآخرين، صح!!).

قالت الأصوات: (والله دا أكبر صحيح).

واصل العراقي بصوت منتصر هذه المرة، وكأنه وصل إلى غايته أو اقترب منها:

بعد سنة قضوها في السجن، دَرسوا خلالها أصول الدين الإسلامي المتطرف، وتعلموا كيفية التفخيخ بالسيارات، وبالأحزمة الناسفة، وزراعة العبوات والعبوات اللاصقة التي نسمع عنها بالأخبار... خرجوا من السجن بعد أن غُسلت أدمغتهم، وجُنّدوا وحُمّلوا برسائل سرية إلى شبكات ومجاميع مسلحة في التنظيم المنضوي تحت قيادة القاعدة.

قال أحدهم: (تنظيم بن لادن والزرقاوي)، (نعم) قال العراقي واستأنف، المهم في هذا كله، إنهم عرفوا بطريقة معينة ودقيقة أسماء الذين قتلوا ابن البدوي والذين سرقوا الأغنام ليمولوا بها عملياتهم.

قال العراقي شارحاً لجلاسه: (الغاية التمويل.. الوسيلة قتل ابن البدوي).

قال العراقي: كانوا ستة إرهابيين مسؤولين على البادية التي قتل فيها ابن البدوي، حفظا الأسماء الستة، ولم يخطئا ويسجلا هذه الأسماء

على ورقة... عرفا أن واحداً منهم كان قد فجر نفسه في سوق شعبي في الحلة، بقي خمسة منهم، قتل أسمر الإرهابي الثاني عندما تعرضت الدورية الإرهابية إلى دورية أمريكية في بغداد، عندما أدارَ بندقيته إلى رأس الرجل الثاني وطحنه بصلية وكأن الدورية هي من قتلته ولم يعرف الأمر إلا البدوي الذي تهلل فرحاً، ولم تمرّ إلا أيام حتى اغتال البدوي الإرهابي الثالث في الصحراء، ودفن نفسه بالرمال ليوم كامل، ولمّا حلّ الليل، انسحب زاحفاً.. لكن الإرهابيين عرفوا أن البدوي هو من اغتال زميلهم، فتوارى في الصحراء ثم دخل إلى بغداد باحثاً عن أسمر حتى وجده، فأخبره بأن أمرهم قد انكشف، وخلال أيام وبينما هما في إحدى المقاهي القريبة من الفندق الذي يسكنه أسمر، مرت سيارة الأوبل السوداء المتربة وتوقفت، نزلوا منها أربعة من الإرهابيين، ودخلوا إلى مطعم كان بينهم اثنان من قتلة ابن البدوي.

قال البدوي: لنقتحم المطعم.

قال أسمر: دعنا نبلغ عنهم.

قال البدوي: ومن سيقتلهم داخل السجن.. أنا أريد أن أشفي غليلي.. إياك أن تنسى عائلتك التي أبيدت، إياك أن تنسى ثأرك، سنقتلهم الآن.

قال أسمر: لا تنفعل سيطر على نفسك.. دعنا نختفي لنغتالهم واحداً واحداً.

قال البدوي: لقد عرف الإرهابيون بأمرنا سنُقتل لا محالة.. علينا أن نأخذ بثأرنا قبل أن يقتلونا.

قال أسمر: لكن يجب أن يبقى أحدنا حياً ليقتل الرجل الأخير... أنت مُرتبك، اتّبع أوامري، سنقتلهم ونأخذ سيارتهم، لكن انتظر الوقت المناسب، عددهم أربعة بينما نحن اثنان، انتظر أوامري.

مرّ أكثر من نصف ساعة حتى خرجوا من المطعم، سحب أسمر مسدسه وفعل البدوي مثله، ثلاثة منهم وصلوا إلى السيارة قال أسمر: اذهب واقتل من بقي بالمطعم، وحين يترك هؤلاء السيارة يمكن أن نسيطر عليهم.. هيا.

قال البدوي: لا، وركض نحوهم وقبل أن يركبوا إلى السيارة أطلق النار على السائق فأرداه قتيلاً، وأطلق أسمر النار على قائدهم فقتله، انبطح أحدهم تحت السيارة، استدار البدوي إلى ناحية المطعم، بينما انبطح أسمر على البلاط، وشاهد جزءاً من الرجل الذي احتمى تحت السيارة، وكان يطلق النار بهياج وبلا تركيز، صوّب أسمر مسدسه إلى الجزء الظاهر من الرجل وأطلق نحوه طلقتين فقتله، اشتبك البدوي والرجل الذي بداخل المطعم بتبادل إطلاق النار، انبطح أسمر وصار مقابل المطعم، وبدل مخزن العتاد لمسدسه وصرخ ليسمعه البدوي.

قال البدوي لأسمر: شاغله حتى اقتحم المطعم، كان أسمر هدفاً مكشوفاً، لكنه ظل يطلق النار، فاقتحم البدوي المطعم وقتل المقاوم الأخير، لكنه أصيب برصاصة اخترقت جنبه الأيمن.

قال ذو السن الذهبية: (دا البدوي مخه ناشفة.. زي الصعايده)، بسرعة وضعه أسمر في سيارة الأوبل السوداء، وأخذ مفتاح السيارة من السائق الذي كانت يده متشنجة على المفتاح.

انطلقت الأوبل بعد أن داست على جثة الرجل التي كانت تحتها... كان يقودها أسمر بسرعة جنونية، وتجنب السيطرات بطرق فرعية حتى خرجا من بغداد بغضون ساعة، رفض البدوي أن يذهب إلى المستشفى كان يريد أن يرى عائلته قبل أن يموت، وقال: أريد أن أبشّر القبيلة بالثأر، وعندما وصلت السيارة إلى مضارب القبيلة كان كل أفرادها قد خرجوا ليشاهدوا السيارة وهي تشقّ عباب الغبار، توقفت وخرج أسمر وهو يسند البدوي، قال البدوي بصوت ضعيف: أنزلني هنا، وتمدد بين خيم القبيلة، جاءت زوجته لاطمة الخدود، وأولادها يركضون خلفها حفاة الأقدام، أشار إلى أولاده، فاحتضنهم، بينما وضعت زوجته رأسه بحضنها، حضر الشيخ فرفع البدوي عيونه باتجاهه قائلاً: لقد أخذت ثأري، فأطلق الشيخ النار بالهواء، وقال البدوي لأسمر: بقي واحد وعليك أن تقتله، ولم يبقَ إلا ساعة حتى فارق الحياة، فشيع بإطلاق النار بكثافة صوب السماء.

قال أحدهم: (طب فين ايلائي أسمر الإرهابي الأخير مش يكفي أتلوا خمسة!).

قال ذو السن الذهبية: (يا بني دا تار والتار زي الألم ميهداش).

أما أسمر فظل عند شيخ القبيلة كضيف لفترة وبعد محاولات عديدة حصل الشيخ على معلومات تخص الإرهابي الأخير.

قال الشيخ لـ اسمر: (صاحبنا مصري.. وهذا اسمه الكامل وعنوان عمله).

اخذ أسمر الورقة وقال: هو حاليا في الأردن.. يجند الارهبيين

ويرسلهم إلى العراق.. لكنه يعمل في البناء وهذا يعني ان عنوانه متغيّر.. صارت مهمتي اصعب!

قال الشيخ: لكنها سهلة عند الشجعان.

وتهامس المصريون فيما بينهم، فارتبكت كلمات الحكاية عند هذه النقطة، فهزّ العراقي رأسه الذي احتدمت به أفكار شتى.

قال ذو السن الذهبية: (الإرهابي مصري وموجود في الأردن!؟).

فأجابه العراقي: (نعم، موجود هنا، وهو قريب منا الآن.. وأنت تعرفه جيداً!!).

ثم صمت لفترة وقال: (ما عندك زميل امسوي نفسه شيخ... ويدعو للجهاد!).

صمت ذو السن الذهبية، وقال أحد الشبحين: (أوعى يكون...).

نهض العراقي وذهب الى فراشه واخرج من تحت وسادته مسدسا ووضعه في جيبه الايمن وخبأ خنجراً صغيراً في جيبه الآخر، لكن الظلام لم يسمح للآخرين برؤية ما فعل... خرج من الغرفة.

فقال ذو السن الذهبية: (عاوز ايه يا عراقي!؟).

فرد عليه: (ماكو شي، هو في الغرفة الأخرى.. اصحية ليكمل بقية الحكاية).

غاب العراقي لدقائق في الغرفة المجاورة ثم خرج ومعه الإرهابي وكان العراقي يضع فوهة مسدسه اللامرئي في فم الرجل ويكتم على

انفاسه، كان الارهابي مندهشا ومأخوذا ايضا، فكأن الذي يحدث له هو امتداد للكابوس الذي كان يعانيه اثناء النوم... قاده خارج الغرفة، فخرج ذو السن الذهبية وزميلاه إلى العراء، فحذرهم العراقي بصوت صارم من الاقتراب منه أو أن يحدثوا أي ضجة وإلا فأنه سيطلق الرصاص... وقال للإرهابي تكلم: (من قتل ابن البدوي وسرق أغنامه؟).

رفض الإرهابي وحاول أن يرفع صوته ليوقظ الآخرين لكن «أسمر» طعنه بحركة سريعة في رقبته، ووضع المسدس في فمه، ثم بسرعة سدده باتجاه ذي السن الذهبية وزميليه.

بعد ما بدأ الخنجر يخترق ثياب الارهابي ويلامس جلده ويدميه اعترف على: تفجيرات بسيارات مفخخة كثيرة في العراق قتل فيها الكثير، وكلما كان الخنجر يغور في بطنه كان الإرهابي يعترف بجرائمه، وكان العراقي يضع المسدس تارة في صدغ الإرهابي، وتارة أخرى يوجهه نحو ذا السن الذهبية وزميليه، بينما كان يمسك بالخنجر بيده اليسرى، ويغرسه في خاصرة الإرهابي الذي كان يرفع يديه للأعلى كلما كان الخنجر يغور في جسده أكثر.

وفي غضون لحظات، وبعيداً عن سكن الشغيلة بدا ذو السن الذهبية وزميلاه عاجزين عن فعل أي شيء.

صحا من كان نائما في الحجرة الثانية من الشغيلة وخرجوا ليستطلعوا الأمر... فخاف أسمر فطعنه عدة مرات في صدره.

قال لهم وهو يسدد مسدسه نحوهم: أنا آسف.. بلغوا عني في الصباح.

ولكنهم لبثوا واقفين تجمدهم الدهشة، وكأنما ما يحدث الآن يحدث في عالم آخر.. ربما هو جزء من الحكاية التي كانت تروى لهم قبل قليل.

قال لهم العراقي وهو يتراجع: أتعرفون من أنا الآن؟

قالوا: نعم.. عرفناك!

الفصل الرابع

لأنفاسه المتلاحقة صوت ينفثه من أغوار جوفه، ولخطاه المتسارعة صوت آخر وهي تدوس على الأدغال والحصى والأحجار الصغيرة، وقبل أن يصل إلى الوادي، التَفتَ إلى الخلف، بينما كان يركض بسرعته الجنونية، فارتطمت قدمه بإحدى الأحجار التي تهشمت تحت حذائه الرياضي الملوث بأشياء مجهولة قبل أن يتعثر بمخاوفه، فتهاوى على الأرض وقد ضاعت من ذاكرته في هذه اللحظة ما التقطته عيونه من صورٍ أخيرة للمكان الذي قتل به الإرهابي الأخير، كانت ذاكرته على ما يبدو تريد أن تضع في أرشيفها صورة تذكارية للمكان الذي أنهى فيه خلافاته مع القدر وثأر لنفسه قبل أن يثأر للآخرين، لكنه سرعان ما نهض غير عابئ بما لَحقَ جسده من كدمات، مواصلاً هرولته المرتبكة داخلاً في فوهة الوادي، فابتلعته كتلة الظلام والرطوبة في آن معاً، وبصعوبة جَمة عثر على المجرى المائي، وعلى الصخرة المدببة التي وضع تحتها الحقيبة الظهرية، كان منظر هذا الوادي في النهار يختلف كثيراً عن رؤيته من خلال ظلام هذا الليل.. صحيح إن الجبل كان قد انشق في زمن ما، مكوناً ذلك الدهليز الغائر الذي تجري في قاعه ساقية ماء وتتلوى لتموت عند أذيال البحر الميت.

Telegram: @Arab_Books2

مضى مهرولاً عكس جريان المجرى المائي.. ونظر إلى ساعته، محاولاً أن يسير حسب الخُطة التي وضعها قبل أيام، من عثوره على هدفه الإرهابي السادس والأخير من الذين قتلوا ابن البدوي، فخاطب المانوي: أين أنت.. أتغيب في لحظات حرجة كهذه؟

فقال المانوي: أنا معك مادامت خُططك الغبية على ما يرام، أنا أكره الظلام مثل أي مانوي.. الظلام ابن الشيطان، وها أنت تغمسنا به.

تمتد أراضي وعرة وهضاب وبعض التلال بين البحر الميت والعاصمة الأردنية عمان،وتنبسط في بعض المساحات منها لتصبح حقولا زراعية، لهذا سيحتاج أن يسير باستمرار لمدة تتراوح بين أحدى عشرة ساعة واثنتي عشرة ساعة، الخروج الوحيد عن هذه الخطة هي في طريقة قتل الإرهابي، فكان من المفترض أن يقتل الإرهابي خلسة، يغمد الخنجر في قلبه، ويغادر غرفة الشغيلة في منتصف الليل، لكن إغراء اللحظة والحكاية التي رواها أبو (سن دهب) هي من غيّرت الموقف.

نتيجة للظلام ولجسامة الموقف يصبح الوادي أكثر عمقاً لمخيلته، وكأنما قد انطبق عليه، ذلك عندما يتوارى القمر وراء غيوم البحر الميت، والتي تمكث لأيام فوق منطقة «الأغوار»، كما يسميها سُكّانها دون أن تمطر، وتكون مخاوفه كبيرة من أن يكون هناك حيوان ما، يهاجمه فجأة، دون أن يترك له فرصة لاستخدام مسدسه، أو أن هناك دوريةً للجيش الأردني، تلقي القبض عليه وينتهي الأمر، لكن مهما حدث بعد الآن.. فالمهمة قد نجحت بمقتل الإرهابي، بقيت إذن العودة إلى قبيلة البدوي للاحتفال، وعادة ما تنتهي قصص من هذا النوع بتزويج ابنة الشيخ من

البطل الذي يقوم بالمغامرات ويؤدي المهام الصعبة، لكن هذا يحدث في مخيلة الشعوب، أما في الواقع فلا يحدث أبداً، فالوقائع لا تنتهي كما الحكايا الشعبية، فها هي الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، وها هي أنفاسه تتلاحق، وساقاه متعبتان، وأمامه ساعات طوالٍ للوصول إلى عمان والاختلاط بين الناس، حتى يصعب على الشرطة تحديده، ليدبر له مخرجاً من الأردن الى العراق.

ظلّ أسمر يحادث المانوي عن الإجراءات التي اتخذها دون أن يشاوره بالأمر...

فقال المانوي: أنا ضد أخذ الثأر، وأنا مع محاكمة المذنبين، وكان بإمكانك أن تؤجل انتقامك إلى ليلة أخرى هذا أولاً، وثانياً: زملاؤك العمال صاروا في وَرطّة، وقد يسجنونهم وبلا ذنب، وثالثاً: تركت الخنجر وعليه بصماتك، وتصرح باسمك لهم كأنك تهدي الشرطة إليك.

فقال أسمر: للمواقف الصعبة شروطها يا صاحبي.. ثم إن هذا ليس الوقت المناسب للّوم، نحن في مأزق، لنحسب ما تبقى لنا من الوقت... سنصل إن واصلنا السير بهذه السرعة، وبدون مفاجآت عند منتصف النهار، فقال المانوي: لكن عليك أن تتأكد من أننا لم نفقد الاتجاه الصحيح، فمدَّ أسمر يده إلى المجرى المائي ليتأكد من اتجاه تياره، فقال لصاحبه: لا، لم نفقد الطريق بعد.

انقشع الظلام أو يكاد، بعد أن تنفس الصبح في الوهاد الخاوية، فشاهد أسمر الربية التابعة للجيش الأردني، معلقة فوق الصخور التي

بعثرتها الطبيعة الغاضبة.. ربما كان ذلك في أيام جيش دقناووس، عندما كانوا يتابعون الشلة الموحدة بالله، حتى اختفت هذه الشلة بالكهف مع قطمير كلبهم، ولم يُسمع حتى نباح قطمير بعد.

انحرف أسمر باتجاه الحقول الزراعية التي يعمل بها عادة مزارعين من مصر.. يتغربون عن اهلهم لسنين ليعودوا بعد ذلك ليتزوجوا ويشتروا فداديين زراعية، وينجبوا اجيال جديدة هي الاخرى ستتغرب بعيدا... وكان على اسمر في هذه الحالة أن يمشي كما يمشي الصعيدي في حقوله وسط البرسيم، ارتدى (الكَلبية) المصرية التي كانت محفوظة في حقيبته الظهرية، واستخرج قطعة من القماش، لف بها الحقيبة، والتقط من الأرض عصا وراح يشق طريقه وسط البرسيم، شاهد أحد الفلاحين يخرج من كوخه، فحسب أسمر مع زميله المانوي: إن أربعة من الفلاحين يسكنون في هذا الكوخ على الأقل، وعليه أن يتفاداهم جميعاً، لئلا يكتشفوا أمره من خلال لهجته، فحيا الفلاح من بعيد، وراح يسرع بمشيته، وبعد عدة خطوات، لاحظ ظهور الآخرين من الكوخ وهم يشيرون نحوه، فحث خطاه بسرعة وانحرف خارج الحقول، قال للمانوي: مازالت الخطة على ما يرام، فها هو الطريق الملتوي الذاهب باتجاه عمان، وها هي السيارات الذاهبة والعائدة تقترب، ثم تتلاشى بين طيات التلال.

وسمع المانوي يقول: لقد ورطت زملاء الخلاطة يا صديقي، فهل تتصور حيرتهم أمام الجثة المطعونة لهذا الإرهابي اللعين.. ماذا سيفعلون بها؟ فالسلطات لا تصدق أقوالهم بسهولة، سيُحقق معهم، وسيفقدون عملهم لأسابيع أو قد تطول الفترة أكثر، صارت الغاية قتل

الإرهابي أما الوسيلة فهم زملاؤك الذين سيذهبون إلى السجن! وهذا خطأ أخلاقي كبير.

قال أسمر للمانوي: أنت تعرف أن الخطة تغيرت في اللحظات الأخيرة... إنه قدرهم يا صاحبي وهذا ما حدث... فلو ركض أحدهم عند انبلاج الصبح، ولمدة ساعة حتى يصل إلى أقرب نقطة عسكرية، وعندها سينتشر الخبر في سيطرات الطريق، وستعلم الشرطة والأمن بالأمر، وخلال الساعة السابعة صباحاً ربما ستنتشر الدوريات في شوارع عمان، بحثاً عن الجاني وبالمواصفات التي يعرفونها عني، لكنهم لا يعرفون أن في هذه الحقيبة باروكة شعر شقراء لها خصلات طويلة، بحيث يمكن أن ألفها لتكون بلحظة على شكل جديلة، وهي تتلاءم مع لون بشرتي، فأصبح خلال لحظات إنساناً آخر، ربما أشبهك يا مانوي.. من يدري! وسأكون مجرد سائح أجنبي يبحث عن الآثار، وعن أماكن الاستجمام والاستحمام في حمامات معين وأطيان البحر الميت، وسأختلف تماماً عن صورة المجرم الهارب الذي في مخيلة رجال الأمن.

جلس أسمر خلف ربوة، وراح يزيل الشعر من ذقنه بلا مرآة، بعد أن استخرج من حقيبته ماكنة حلاقة يدوية، أنهى العمل بدقائق معدودة، ثم نزع عنه الجلابية المصرية، وارتدى بنطلون جينز صحراوي اللّون، فآلمته ركبته التي انسلخ جلدها اثناء تعثره وسقوطه في مدخل الوادي، ارتدى كذلك قميصاً بذات اللون أيضاً، ولف بلوزة سمائية اللون حول وركه كما يفعل السواح الأجانب، وعلق حقيبته على ظهره بعد أن ارتدى باروكته الشقراء، وبدا وكأنه شخص آخر.

بسهولة كان باستطاعة أسمر أن يتحول إلى شخص آخر، يتحول إلى فقير وما إن ينـزع ثياب الفقر، ويرتدي ثياب الأغنياء سرعان ما يتحول إلى غني، يتغيّر كل شيء فيه، نظرته للأشياء، رنة صوته، طريقة السير، وحتى حركة رأسه عندما يتكلم، شيئاً ما يحدث بداخله.. إن ذلك يحدث ربما بسبب المانوي الذي يسكن بداخله، أما ما يعتقده أسمر عن شكل المانوي فكان يتخيله أحياناً على شكل جني ويتخيله في بعض الأحيان يشبه (سبوك) أحد أبطال مسلسل ستار تريك..

مضى أسمر يسير بين الربى والأحجار، وكانت تتراءى له صورة ضحيته الإرهابي الأخير، ولا يدري لماذا ظهرت صورته في ذهنه، فمنذ أن غمد الخنجر بين أضلاع الرجل وطرحه أرضاً، حتى غابت عنه هذه الصورة ولم تظهر إلا في هذه الساعة، وهي الثامنة تماماً، مثلما كانت تشير ساعته «الوست إند» السويسرية، التي لم يتخلَّ عنها يوماً، وكان يعلق سلسلتها المعدنية في حزامه ويضعها في جيبه الأيسر، حيث تمتد يده وتداعب مفتاح الشحن (التكويك) كلما كان يشعر بالتوتر.

أخرج منظاراً يدوياً صغيراً من حقيبته، وراح ينظر إلى كل الاتجاهات، فارتجف قلبه بعد أن اندفعت جرعة من الأندريالين في دمه بسرعة، فها هي وحدات من الجيش تنتشر على طول الطريق، ولاحظ بعض أفرادها يدخلون إلى الوادي المتجه نحو عمان، ولاحظ أيضاً خيمة كانت تبدو كالنتوء الصغير، كانت تتراءى على بعد كيلو متر عن الطريق تقريباً، وبلا تردد قال للمانوي:

ـ هيا لنغير الخطة الآن، مال نحو الخيمة، وحثّ خطاه بعد أن أنساه

الأندريالين التعب والآلام التي كانت تنبض في مكان ما من ظهره وفي ساقيه، ومثلما كان قد توقع، فهذه الخيمة لبدو يؤجرون إبلهم إلى السواح الأجانب، وقبل أن يصل الخيمة، ظهر منها شاب أسمر نحيل، وقف أمام الخيمة، ثم ظهرت خلفه امرأة لعلها كانت أمه، رفع أسمر يده وحياهم فذكّره المانوي: لا تنسَ أنك الآن أجنبي.

قال: أعرف ذلك.. شكراً على هذه الملاحظة.

سمع الشاب البدوي يقول للمرأة: (هذا أوربي.. أشقر، شوفي جديلته أحلى من جديلتك).

قالت له المرأة: (لك يامُه شو بيكون كلو رُزق...).

تكلم الشاب البدوي باللغة الإنكليزية، فقد تعلمها لكثرة احتكاكه مع السواح قال: (هَلو.. يو وش رايد كَمل؟).

قال أسمر: (يَس.. بُت تو امّان).

كان صوت أسمر قد بح نتيجة لتدخينه السكائر ليلة البارحة ولم يكن معتاداً على ذلك.

ترجم لأمه: (يقول أريد أصعد جملاً إلى عمان).

فقالت أمه: (يلّه كلُه بسعره).

فقال الشاب البدوي: (وَان هَندرد دولارز (100) دولار).

قال أسمر فيفتين دولارز (50).

فهز الشاب البدوي رأسه وهو يلعن حظه: (يلعن.. يلعن اللي طركك بدك تغلبني... شو هالحظ!).

بدا الجمل عالياً جداً لأسمر بأنسجته الصوفية المزركشة بألوان صارخة، وأخرى خافتة مُنمنمة بالخرز الملّون والسجاجيد، حيث تشكل الألوان في النهاية لوناً موحداً يَطغي على تنافر أطيافها اللوّنية، فيتراءى للناظر من بعيد.. الجَمل وألوانه مثل لوحة واحدة... حيث طُعِمت بعض مفاصل السَرج بمعادن لامعة، تتدلى منها زوائد مضفورة بأشكال متشابهة الشكل ومختلفة بالأحجام، وعلى رأس الجمل غطاء تبرز منه الأذنان، مكوناً شكلاً أشبه بالتاج، ويتدلى أسفل فكّ البعير العظيم ضَفيرة كأنما هي لحية مسرحة خيوطها بإتقان، وعندما يتحرك الجَمل تَرن نواقيس صغيرة كانت مربوطة مع الزوائد النسيجية التي تلتف حول بطن وصدر البعير.

صعد أسمر بعد ما برك البعير، فتلاشى رنين النواقيس مع رغاء البعير العالي، وما إن حدا الشاب البدوي بصوته، ومشى حتى تبعه البعير، وتناغمت أصوات النواقيس مع حداء البدوي، وقبل أن يصلوا إلى الجنود المرابطين عند مدخل الوادي، شعر أسمر بقلبه يخفق بشِدة، وراح يحدث المانوي عما يجب أن يكون في حالة أن طلبوا منه جواز السفر، بينما راحت يده لا إرادياً تدير مفتاح شحن ساعة الويست اند في جيبه.

سأل الجندي شاتماً السائح في الوقت نفسه: (شو ها العرص!).

ضحك الشاب البدوي قائلاً: (يمكن فرنسي أو إيطالي، فهو ضعيف باللغة الإنكليزية.. وكُلهم نَوَر وغجر.. شوف جدايلو ولا أحلى منها).

قال جندي آخر:(على وين ماخذه؟).

قال الشاب البدوي: (عَـعمان).

صاح أسمر بصوت أجش وملوحاً بيده كالسكارى (... هاي).

فصاح الجندي: يلعنك.

وراح أسمر يغني ويرقص فوق الجمل، واختلطت أصوات ضحك الجنود مع صوته الأجشّ، والذي يصلح للبكاء.

(اوه ماي كُد.. اوه ماي كُد.. اوه ماي كُد..اوه ماي كُد).

تنفس أسمر الصعداء، بعد ما اختفى منظر الجنود عن أنظاره وراء التلال والصخور والأحجار المترامية، التي كأنما بعثرها هنا وهناك كائن غاضب، ومن وراء تل صغير، ظهر جمل آخر يركب عليه رجل وامرأة شقراء عارية الفخذين، بينما كان رفيقها يرتدي بنطالاً كاملاً، اغتبط أسمر قائلا للمانوي: ارتح قليلاً يا صديقي..

فأنا أزجّك بين فترة وأخرى بمواقف صَعبة.. ومَتِّع ناظريك، فمشهد مثل هذا لا يراه المرء دائماً، أو قد لا يراه أبداً.. جمل أسود اللّون مغطى بسجّادة حمراء، عليها امرأة شهباء بأفخاذ تبض وتلمع من بعيد، بلون وردي تطوق رفيقها بيدها خوفاً وشبقاً معاً، حيث يتحرك الجمل حركته البندولية التي تهز وتهز... كما المرجوحة الطربة، وهذه الحركة يا مانوي ويا صديقي هي من خَلقت وبَلوَرَة الشعر في مخيلات الأعراب، كيف لي أن أرسم مشهداً مثل هذا؟ وبأي ريشة يمكن لي رسمها؟ أأرسمها بريشة لم تُصنع بعد؟ وبأي ألوان يمكن تلوينها؟ وبأي معرض ستُعرض؟ لكنني ويا مانوي سأرسمها حتى ولو في الخيال، سَأستعير من النبي ماني ألوانه وفرشاته لأرسم وأرسم حتى تنتهي كل أطياف مخيلتي.

توقف الجملان قرب بعضهما، وسَرت بينهما إشارات صوتية غامضة مثل همهمة الوحوش.. لابدَّ إنهما يشكيان لبعضهما التعب والإرهاق وقلة العلف وغيره، وربما هناك أمور أخرى تختلف عن الشكوى، فمن يعرف أموراً مثل هذه، فلابدّ من وجود لغة تتفاهم بها هذه المخلوقات، أما الشكوى فلا أحد يعرف هل تشتكي الحيوانات لبعضها.. فربما هناك أشياء لا نعرفها تحدث بينهما، والمشكلة إن الإنسان يعتقد أنه يعرف كل شيء، وهذا هو الجهل الحقيقي، أما العلماء والحكماء فهم الذين أدركوا جهلهم التام بالحياة وبالكون أيضاً...

يقال: إن الجمل هو الحيوان الوحيد الذي يعرف الثَأر، والثَأر قادم من الحقد، وبما أن البدو هم من يحقدون أكثر من غيرهم، إذن الثأر ناتج طبيعي من الحقد الذي يتصفون به، وهناك من يدعّي أن الجمل هو من علمهم على الثأر، لأن الإنسان يتعلم من الحيوان ومن الطبيعة.. الإنسان هو المقلد الأكبر في الكون، وادّعاء كهذا هو محاولة لتبرئة ساحة البدو من هذه الصفة، لكن البدو يتباهون بها، والثأر هذا هو من جعلني في هذا الموقف الصعب، وهو من جاء بي من العراق إلى الأردن لقتل الإرهابي الأخير الذي استهلكت الكثير من الوقت والجهد والمال في سبيل العثور عليه، ويقال أيضاً: إن البدوي إذا خسر معركة أو إذا تعرض إلى أذى من الآخر، فإنه يصمت ويتظاهر بأن الوضع طبيعي، ويستطيع أن يتظاهر حتى أربعين عاماً، أي حتى يجد الفرصة المناسبة من الاقتصاص من غريمه، وبهذه الحالة فإنهم يتفوقون على الجمل في هذا المضمار.

وقف البدويان وراحا يتحدثان بلهجة صعبة أشبه بالرموز، وتظاهر أسمر بالسُكِر، ولم يجب على أسئلة السوّاح فشتموه (فك يو) فأجابهم

باللعنة نفسها، وراح يغني بلحن عربي (أوه ماي كُد.. أوه ماي كُد)، فانتقلت عدوى الأغنية إلى السائحين، وظلا يغنيان معاً حتى تلاشت أصواتهما، بعدما خفتت قليلاً قليلاً، واختفيا هما وجملهما وكل المشهد الذي يستحق التأمل خلف التلال.

ارتقى الجمل تلاً رملياً كانت نباتات صحراوية قليلة متشبثة على ظهره، فبانت من بعيد جبال عمان التي تتسلقها الأبنية فصاح أسمر عمان عمان وراح يغني أمان... أمان أماااان، وأنشدها كما يؤدّى المقام العراقي «الحسيني»، بينما غنى المانوي أبيات الشاعر يوسف اللمبجي لكن بطريقة أخرى:

ولمـا أناخـوا قبيـل الصبـح عيسـهمُ..

وحملوهـا وسـارت بالهـوى الابـلُ

وما هي إلا ساعة، كان أسمر فيها مع حوار مع المانوي حتى وصلوا إلى «وادي السير» وكم كره أسمر أن يستمر بركوب الجمل، فقد آذته مواضع كثيرة في جسده، وتمنى لو نزل الآن ومشى على الأرض، لكن الجمل سيطرد عنه شرّ الشرطة، فربما مداخل عمان الآن تراقبها الشرطة السرية، أوقف البدوي جمله قائلاً: إنه وادي السير (السير فالي) وراح يردد أبيات الشاعر «مصطفى التل» وكأنما كان يقرأها لبعيره..

ليـت الوقـوف بـوادي السـير إجبـاري

وليـت جـارك يـا وادي الشـتاء جـاري

أعطى أسمر للشاب البدوي 50 دولار دون أن ينزل، ثم أعطاه 10 دولار وهو يقول: (كمان كمان.. تو أمان عمان).

ولمّا صار من الصعب على الجمل السير في الطرقات الضيقة لمداخل عمان وسط ضوضاء السيارات، وبدا على الجمل الارتباك، فقال الشاب البدوي: هذا يكفي (ثاتـز إنف...).

ساعد الشاب البدوي أسمر في النـزول، لأن الجمل رفض أن ينوخ به على البلاط المؤذي، فهذا الحيوان يعرف أن الأشياء الصلبة ليست الأمكنة التي يجب أن يجلس أو يمشي عليها.

لِعمان رائحة مميزة لا يُخطئها أنف، إنها رائحة القهوة التي تنبعث من المقاهي، ومن مطاحن البُن، ومن بَاعة القهوة المتجولين.. فقرر أن يشرب القهوة في أقرب مَقهى، لكنه في الدوّار السادس وهذا خطر... تناول كوب قهوة من البائع المتجول، وراح يرتشف ماشياً شاعراً ببعض الانتشاء الذي يبثه الكافايين في دمه، نظر إلى ساعته، فوجدها تشير إلى الثانية عشر والنصف بعد الظهر، قال لصديقه المانوي: رقم قياسي أليس كذلك؟ فلم يجبه المانوي بشيء.

كان بإمكانه أن يذهب باتجاه منطقة صويفية.. حيث الفنادق الفخمة التي تؤوي السوّاح الأجانب، لكن المانوي لم يوافقه الرأي، قائلاً له: الزحام وكثرة الناس تفيدنا أكثر.. ثم وهذا المهم إن صديقنا المهرِّب لا يتردد على أمكنة مثل الصويفية...

واصل سيره وسط الزحام، ثم صعد تاكسي، لكن يفترض به أن لا يتكلم العربية، ولا يفهم السائق اللغة الإنكليزية... وبصعوبة عرف سائق التاكسي المكان الذي يقصده (وسط البلد)، وهو المكان الأكثر ازدحاماً في عمان، هكذا يضيع أكثر، مشى لبضع خطوات في الساحة

الهاشمية، فامتدت يده إلى ساعته التي تقبع بأمان في جيب بنطاله، وراح يدير مفتاح الشحن لقلقه من رؤية شرطيين كانا في غاية الطول، وكانا مُدّججين بأدوات الاعتِقال من مسدس، عصا كهربائية، قيود وأجهزة اتصال تتدلى من أحزمتهم، جُعلا هكذا لإفهام الناس: هذه السلطة وهذا هو النظام.. القوي والمسلح والمجهز بأنواع الأدوات القامعة والمهيبة في ذات الوقت.

أراد أن يشتري جريدة من المكتبة التي بجانب أمانة عمان، فحدثه المانوي: انتظر! أنت الآن أجنبي، وعليك أن تشتري صحيفة أجنبية، اشترى صحيفة الكَارديان الإنكليزية، طواها في يده، فاكتملت هيأته الأوربية، لاحظ، بينما كان يعيد لفّ جديلته: أن الشرطيَين بدءا بتفتيش العراقيين، ممن كانوا جالسين على مساطب الساحة الهاشمية، فقال له المانوي: أخبارك وصلت إلى عمان، فقرر أن يصعد إلى جبل الجوفة، وما إن وضع قدمه على السلّمة الأولى، وشاهد طول السلم الحجري الذي لا يمكن رؤية نهايته، حتى اعتراه التعب، لكن تعبه هذا لا يمكن أن يقارن بتعب شيخ قبيلة الشابسوغ الشركسية سنة 1868م، الذي كان يتحّامل على كل الألم أمام أفراد قبليته، وهم يتسلقوّن صخور جبل الجوفة هذا، كانت هجرتهم مضنية من القوقاز، هرباً من بطش القيصر الروسي ومن رجال المسيح المتشددين آنذاك، وربما لكره وحقد الروس على الدولة العثمانية، التي استمرت بمضايقة وتهجير الأرمن من إسطنبول والعراق وبلاد الشام، فكانت القضية: قسوة بقسوة وهجرة بهجرة، فانتشر مسلمو القوقاز من الشراكسة، وحط بعض منهم الرحال في شمال العراق، وبعضهم الآخر في الشام، ووصلت قبيلة الشابسوغ

حسب تعاليم السلطان العثماني إلى جبال عمان الجرداء إلا من عين كانت تجري مياهها بين أودية الجبال السبع، من رأس العين إلى المحطة شرق عمان مارة بوسط البلد، لكن عين الماء هذه اختفت منذ زمن، ولم يبقَ منها سوى اسمها ملتصقاً بالسكان الأصليين، ومن الشركس ومن الفلسطينيين الذي هُجّروا من بلادهم عام 1948م، ليسكنوا في الكهوف المطلة على رأس العين.

لم يتخلَ شيخ الشابسوغ عن بلطته الثقيلة، وعن خنجره وعن لباسه التقليدي أول الأمر، وعندما صعد وتسلق معه الشبان الأقوياء إلى قمة جبل الجوفة، بأقدام دامية وقوى خائرة، ولما نظر من الأعلى إلى أبناء قبيلته، وشاهد المدرج الروماني، كأنه تجويف يريد الاختباء في أحضان جبل الجوفة، ثم شاهد جبل القلعة رابضاً على وجه الأرض كمثل الذي يخيف أشياء لا مرئية، ويتحدى جبال عمان الأخرى، نظر الشيخ باتجاه الأراضي الروسية، وحَدّق في البُعد، حتى تَعبت عيناه برغم أنه كان يعرف تماماً المسافات الشاسعة التي تفصل بينه وبين بلاد القوقاز، وكأنما يريد لنظره أن يطوي الآفاق كي يصل إلى هناك، فكّر بالذين ماتوا ودفنوا خلال رحلتهم الطويلة، وفكّر أيضا بقبورهم التي ستزول عن الوجود، حينما يتراكم عليها غبار الزمن والنسيان، حين تهطل عليها أمطار الشتاء، وتمر عليها حوافر الدوّاب ومخالب الكواسر، فبكى بلا صوت، وترك دموعه تغسل عيونه ووجهه من غبار السفر، رفع يديه لشعبه صارخاً بصوت باكٍ كما لو أنه يكلم السماء: هنا.. نعم هنا.. سنقيم في (عمون).

ومنذ زمن بعيد لا يتذكره أسمر تماماً، ربما منذ أن عثر على كتاب النبي ماني، وهو يتقمص الشخصيات بسهولة، بل بلا علم منه أيضاً، فها

هو ينتزع شخصية شيخ الشابسوغ الشركسي، ليعود فيتقمص شخصية السائح الأجنبي، فكل الظروف مهيأة ليكون ذلك السائح الجوال، الذي يبحث عن أشباح الأقدمين ويقتفي آثارهم... وجه أبيض قد حمّرته شموس البحر الميت لشهور، وجديلة شقراء تشبه ذيل حصان جامح، وجسد ممشوق القوام، وحقيبة ظهرية كثيرة الأحزمة تمتطي ظهره، ونظارة شمسية عاكسة لأشعة الشمس الضارة، تخفي خلفها عينين بنيتين كثيرتي الفضول، وليس التعب أو السهر من كان يقلقه، بل هو الخوف من انهيار خطة الهروب، فكان عليه أن يعثر على المهرّب وهو عراقي يقيم في جبل الجوفة، لكنه كان يرتحل من مكان إلى آخر، خوفاً من أن ترصده الشرطة السرية الأردنية، هذا الرجل يتواجد أحياناً في الساحة الهاشمية، ربما سيجده الآن أو ربما بعد شهر، أو قد لا يجده، وهذا هو نفسه الذي هرّب أسمر مع ثلاثة رجال من العراق إلى الأردن عبر الحدود، بعد أن دفع كل واحد منهم 300 دولار.

قال له المانوي: عليك أن تأكل لتقاوم التعب، وترتاح قليلاً في مطعم نظيف، فهكذا ستحطم نفسك وتنهار، ابحث عن مطعم يرتاده الأجانب، لكنه لم يعثر على ما يريد، وقواه قد خارت، ولم يجد في نفسه رغبة في مواصلة البحث، التعب يولّد الأخطاء، هكذا قال له المانوي، فقرر أن يجلس بأي مطعم، تناول طعاماً لا يعرف مذاقه، فباله منصرف عن المطعم والوجود برمته، فبعض الحزن واللاجدوى والقلق تدور هذه الأشياء في جمجمته، وتسبب له الصداع، ترك المطعم وراح يبحث عن مقهى، بالكاد وجد مقهى وكان مزدحماً بالشبان، عرف خطأ دخوله هذا المكان، انتهى به السلم إلى ساحة للعب البلياردو، وعرف أن من الصعوبة

أن يعود أدراجه، فرؤوس الحاضرين التفتت إليه، فامتدت يد أسمر إلى ساعته الويست اند وراح يدير مفتاحها بقلق... سمع همسهم، وكان واضحاً لمسامعه... ماذا يفعل هذا الأجنبي هنا.. من يدري ربما هو إسرائيلي، قال: (تي.. بليز)، وأدار إصبعه في الهواء، ولفظ كلمة شاي بطريقة غريبة، وما هي إلا لحظات حتى جاء العامل بكوب شاي لونه أصفر معد على الطريقة الأردنية.

فقال للعامل: (نو.. نو.. بلاك بليز).

فصاح أحد الحضور: (بده شاي أسود زي الشاي العراقي أو المصري).

ضحك الجميع، وسمع شتائمهم للأجانب، وما إن أنهى شايه حتى غادر المقهى، ولم يجب على الأسئلة التي وجهت له، وسمع أحدهم يقول بينما ينزل الدرج: (إسرائيل بتعرف كيف تتجسس اكويس)، كان عليه أن يبحث عن مقهى آخر، مقهى يرتاده الأجانب، فوجد فندقاً للسواح الأجانب، لأن الحافلات التابعة لشؤون السواح التي كتب عليها كلمة البترا الملتوية بأحد الخطوط العربية تنضفر بطريقة ما مع الحروف الإنكليزية في ذات المكان، بحيث تتداخل الحروف وتندمج مع بعضها دلالة على التلاحم والألفة.

جلس أسمر بزاوية بعيدة في المقهى التابع لهذا الفندق، بحيث تأخر العامل كثيراً حتى طلب شاياً ثقيلاً، فهذا العامل يجيد اللغة الإنكليزية وراح أسمر يتأمل طويلاً لون الشاي الأسود المُحمَر، وراح يرتشف قليلاً قليلاً.. شاعراً بالأمان أكثر من سخونة الشاي وطعمه، ولولا سخونة الشاي لغطَّ في النوم، وقبل أن ينتهي من الشاي.. راح

يتأمل الأخطاء التي ارتكبها، والتي ناقشها باستفاضة مع المانوي الذي لامه كثيراً، فما كان ينبغي أن يترك الخنجر الذي يحمل بصماته، وما كان الأجدر به أن يخبر العمال المصريين بأنه أسمر، فقد أعطى للأمن الأردني خيوطاً مهمة لاكتشاف القضية، إذن عليه أن يتأخر.. فقد يكون الخروج من الأردن في هذا الوقت أكثر خطراً من البقاء، سَتُراقب الحدود أكثر، وربما سيُراقب المهربون أيضاً، وماهي إلا لحظات، حتى وجد صاحب المقهى يهزه بعنف لإيقاظه، فانتفض أسمر بشدة وارتبك، وظل للحظات ينظر في وجهه صاحب المقهى، وكاد يكلمه باللغة العربية حتى نبهه المانوي في اللحظة المناسبة.. إنه منتصف الليل هكذا فهم، والمقهى سيُغلق، دفع لهم ثمن ما شرب، ساعده العامل في النهوض، وقاده إلى الباب الذي ينفتح على «رسبشن» الفندق، شاهد موظفي استعلامات الفندق مشغولين في حسابات ما، فانزوى وانضم إلى من كان جالساً يشاهد التلفاز، وجلس على الكرسي الوثير، وشعر بالديباج يبتلعه شيئاً فشيئاً في الوقت الذي كان فيه التلفاز يعرض فلماً عن نهاية العالم، وكيف إن نيازك ضخمة تتجه إلى كوكب الأرض، فأرسلت الحكومة الأمريكية سفينة فضائية تعترض هذه النيازك لتفجيرها، كان اسم سفينة الفضاء «المسيح»، لكن المسيح بدلاً من أن تنقذ الكرة الأرضية تضيع وتتيه كما تاه موسى وقومه، وينتشر خبر ضياع المسيح بين الناس، بينما في القاعدة يسري الخبر «فقدنا الاتصال بالمسيح»، أما الخطة البديلة التي قد أعدوها إذا ما فشلت المسيح بتفجير النيازك، وهي مغارة كبيرة في الجبال تحفظ الناس من المياه التي تغرق نصف الكرة الأرضية

وتحمي الناس من تلوث الغبار الذي سيستمر لأشهر أو سنين بأسوأ حالاته، واسم هذا الغار «نوح»، فيعرف المتلقي الذكي هذا الرموز ويقرأ المعنى ويؤوله... عاد إلى النوم من جديد، ولم يحلم إلا بوجه الإرهابي وهو يفتح فمه عندما كان الخنجر يغور في أحشائه.. استيقظ على جلبة الأصوات، ومد يده إلى ساعة الويست إند ليجد الوقت قد تعدى الثامنة صباحاً، ظل لبضع دقائق كالمخدر لم يفكر خلالها بشيء حتى نبهه المانوي: هيا قم واذهب للمراحيض، اقضِ حاجتك واغسل وجهك، وانتزع باروكتك، واغسل رأسك بعد أن تتأكد من عدم وجود كاميرات المراقبة، واغسل جسدك إن استطعت، عندما وقف كانت كل عضلاته تؤلمه، وشعر بعموده الفقري وقد تصلب نتيجة للوضعية التي نام فيها، ذهب إلى المراحيض ودخل، فوجد أنه من الصعب أن يقضي حاجته في هذا المرحاض الغربي، ولا يمكن له الاغتسال عند قضاء حاجته، لعن حظه وهو يمسح إليته بالمحارم الورقية المعدّة لذلك الأمر، فقال له المانوي: المرحاض الشرقي لا يناسب أهل الغرب ولا المرحاض الغربي يناسب أهل الشرق، علينا أن نفكر مثلما فكر النبي ماني بدين وسط بين المسيحية الغربية من جهة وبين الزرادشتية والبوذية وغيرها من ديانات الشرق من جهة أخرى، ونكتشف مرحاضاً غربياً وشرقياً في الوقت نفسه، نسميه المرحاض (المانوي).

قال أسمر: ارحمني يا أخي من هذا الكلام، فأنت تنشط في أوقات التعب وتتركني في أوقات الشدة..

بالكاد استطاع أسمر أن يغسل وجهه في المغاسل، وكان يودّ في نفسه أن يرمي هذه الباروكة اللعينة، ليضع رأسه تحت صنبور الماء،

ويدلك فروة رأسه الحليقة بالصابون، ويزيح هذا القرف الذي بدأ يحكه ويزعجه... وتوسل بالمانوي أن يكف عن محادثته في هذا الوقت.

عاد الى مقهى الفندق وطلب من صاحب المقهى أن يعد له حليباً بالكاكاو، وقطعة كيك كبيرة، تناولها ببطء، فليس هناك مكان أكثر أمناً من مقهى الفندق، ولا أغلى منه أيضاً، تردد أسمر من أن يذهب مع السواح الذين بدأوا بركوب الحافلة، ولا بد أنها ذاهبة إلى آثار البتراء.

قال له المانوي: لا تفكر بصعود الحافلة معهم فربما سيكشف أمن السياحة أمرينا.. لأن مقاعد الحافلة مخصصة للسواح وعددهم معروف.

(سري وعلى الفور)

إلى الجهات ذات العلاقة تقرير أمني

م / جريمة قتل

في الساعة الثامنة صباحاً من يوم 2 / تشرين الثاني/ 2005 تم تبليغ أحد نقاط الجيش الواقعة قرب البحر الميت عن جريمة قتل ارتكبها عراقي كان يعمل على ضفاف البحر، يدعى (أسمر)، والضحية رجل مصري يدعى أبو الفتوح عبد الله فرغلي، كان يعمل في نفس المكان، وكانت جريمة ثأر حسبما شهد زملاؤه من العمال، وقد وجد المجني عليه مطعوناً بآلة حادة في صدره، وترك الجاني آلة الجريمة (الخنجر) في مكان وقوع الحادث، وتم نقل الضحية إلى الطب العدلي، وتم حجز العمال الذين شهدوا هذه الجريمة للتحقيق معهم، ومعرفة الملابسات

Telegram: @Arab_Books2

الأخرى التي تخص الجاني والمجني عليه، وتم إخبار جميع نقاط التفتيش التابعة للأمن العام، في عموم المملكة الهاشمية الأردنية، وتم إعلام المخابرات الأردنية العامة بكتاب سري وفوري، وسنعلمكم بأي جديد يخص هذه القضية.. علماً أن هوية الجاني مجهولة، فلم يسجل اسم (أسمر) في سجلات شؤون الوافدين، ولم تبلغنا السفارة العراقية بصورة عن جواز السفر الذي يحمله الجاني بعد.

4/تشرين الثاني/2005

* * *

تجول أسمر بلا هدف، قبل أن يقرر النـزول إلى الساحة الهاشمية، لعله يلمح المهرب أو أي أحد ممن يعرف المهرب، أو أي أحد آخر لكي يبات هذه الليلة عنده، فقال للمانوي: علينا في هذه الحالة أن نفكر كما تفكر شرطة المخابرات، فَكِر.. كيف يُفكِر عَدوك.

فإنهم الآن يفكرون بما يفكره مجرم هارب وكالآتي:

أولاً: بما أن المجرم المدعو أسمر من العراق، فهو الآن يحاول الرجوع إلى بلده بأسرع ما يمكن بعدما نفذ الجريمة.

ثانياً: إذن، سيكون القبض عليه في هذه الحالة إما عند الكراجات، أو في المطارات وبحوزته جواز سفر مزور، أو يحاول الهروب عبر الحدود بواسطة المهربين.

هذا ما يفكر به رجال الأمن الأردني.. لكن أسمر الواقعي، كان يعرف

كيف يفكر رجال الأمن.. وعليه في هذه الحالة أن يعكس الخطط، بحيث لا يفكر كمجرم هارب، وإنما كسائح أجنبي، يدور على أماكن الآثار وأشياء من هذا القبيل، حتى تمرّ الأيام وتخفت صورته في أذهان رجال الأمن، وسيخرج عندها من الأردن إلى العراق.

قال المانوي: أَحسنت.. إذن التريث في الخروج هو الخطة المناسبة... واستأنف: لو تعرف الفريسة التي تقع في شبكة العنكبوت أن محاولتها في الإفلات من الشبكة تزيد من التفاف خيوط الشبكة على نفسها أكثر.. لما فعلت ذلك، ولو تعرف أيضاً أن حركتها وهياجها تنبه العنكبوت بوقوعها في الشبكة، وهذا هو الأخطر لما تحركت أيضاً.

قال أسمر: ولكن شبكة العنكبوت لم تصتادنا بعد، وحين تصتادنا فلا تفيد الحركة والسكون حينئذ لان هناك ادلة دامغة ضدنا.

عندما هبط من جبل الجوفة، ومشى في الساحة الهاشمية كان الوقت ظهراً، حيث تكون الساحة فارغة من العراقيين في الوقت، لكن الشرطيين مازالا يذرعان الساحة جِيئةً وذهاباً، فتوجه صوب المدرج الروماني، وصعد طوابقه الثلاث بصعوبة، فثمة آلام توخزه في عضلات ساقيه، كان هناك بعض السواح يجلسون في الطابق الثاني، ويقرأ بعضهم بصحف أو كتب ما، ربما من تلك التي تتحدث عن الآثار والمناطق السياحية في الأردن، جلس على المقعد الحجري، وتحسست يده الصخور التي جلس عليها آلاف الناس من الرومان وغيرهم، وفكر بالأقدام التي داست عليها، وفكر كذلك بالنـزالات الحامية التي تجري في ساحة المدرج، لاشك أن هناك اعداداً كثيرة قد هلكت لكي يتمتع الملك والجمهور،

وقال للمانوي: كيف كان يفكر الملك «أنطونيوس» عندما أمرَ بتصميم هذا المدرج، ولماذا لم يجعل المصممون المدرج باستدارة كاملة؟! أكان الإمبراطور يلهي الناس برؤية العنف؟ أم إنه يفكر بغير ذلك؟ مثلاً: كان يحاول التقليل من الجريمة بين صفوف الشعب، لكن هل النـزالات العنيفة تُهدِّئ من أعصاب المجرم، وكأنما المجرم يتقمص شخصية المصارع، حينما يضرب المصارع خصمه ويجهز عليه، ينهي المجرم خصمه المفترض كذلك... فقال المانوي: ولكن أنت الآن مجرم! لأنك تصفّي حسابك مع خصومك، دون أن تترك الربّ أن يأُخذ بثأرك من المجرمين، أو دون أن تترك القوانين الوضعية أن تأُخذ دورها، وتلقي القبض على كل من تورطوا بجريمة تفجير البناية التي تسكنها عائلتك، أو من المجرمين الذين قتلوا ابن البدوي...

قال أسمر: دعنا يا مانوي الآن من هذا الكلام، وعلينا أن نلحق بهؤلاء السوّاح، وننضم لهم بجولتهم على الآثار، فهذا عكس ما يفكر به رجال الأمن الآن، ولمّا سمعهم يكلمون سائق التاكسي عرف وجهتهم، استقل هو الآخر تكسي وأشار نحو جبل القلعة.

يحب السوّاح الأجانب القلاع الحربية القديمة، التي تصدر بيانات الحرب، والتي تشن الحروب حتى ولو كانت مبرراتها لا أخلاقية، في حين أن السواح ينفرون من المقرات العسكرية الموجودة حالياً، سواء تلك التي تعود لبلدانهم أو لأي بلد آخر، وينظرون للحروب من منظار التاريخ، وإن هذه الحروب وأدواتها يجب أن تبقى في حدود الماضي، لا بوصفها تُهمة يجب أن تتحملها البشرية، وإنما بوصفها وثيقة اعتيادية يجب التمعن والتمتع بها لا أكثر، تشاهد الناس الآثار بنظرة باردة وإلى

الجرائم والانتهاكات التي سببها أي ظالم لأبناء شعبه في التاريخ، وأحياناً يطغي الإعجاب على مشاعرهم، حيال الحاكم الذي يعثر على موميائه التي دفع أبناء شعبه كل ما يملكون في سبيل خلودها، أو عن آثار قصره الذي بناه على جماجم الشعب، يُخلَد الملك ويموت الشعب، فالسوّاح وغيرهم من الناس تَنظر إلى آثار الماضي كنظرتها إلى اللوحات الفنية، بعد أن تمرّ القرون وتنطوي الأحداث الجسام عن جرائمها... تنظر الناس إلى الجمال القادم من الماضي التليد، سواء كانت هذه التحف مرسومة بدماء الناس الأبرياء أم بغيره، وموقف الناس يصير محايداً وهم يقلبون تحفة السيف التي قطعت الكثير من الرقاب، لا يهمهم ان هذا السيف أو هذه الوثيقة التي وقعها رئيس أو ملك أُعدِم بسببها الكثير من الناس.

تَلَوّت سيارة التكسي مع الشارع الملتف على خاصرة الجبل واغنية (يسعد رب البنات عابو هواهم... مثل السمك بالماي نركض وراهم) تستدير هي الاخرى وتدور في جو السيارة وخارج نوافذها...

لكن عندما يرتقي المرء جبلاً ما، سيشعر بنشوة أخرى وغريبة وهو ينظر من على علوٍ للأشياء، البنايات، الشوارع، وكيف تبدو السيارات والناس يصبحون بحجم النمل، فيشعر عندئذٍ بنشوة التفوق، لهذ سكن الله السموات ولم يسكن الأرض، كان الإغريق الذين تركوا آثارهم هنا على هذه الجبال ومضوا يعتقدون أن الآلهة تملأ الأرض، حالها حال البشر، وخلو هذه الأرض من الآلهة قد يصيبها بالجنون، ولهذا.. كان الإغريق وغيرهم ممن يصنعون تماثيل جميلة لآلهتهم، ربما ليستدرجوها لكي تسكن بينهم، وإلا فإذا ما سكنت الآلهة السماء، فإنها ستنظر للناس

من علوٍ شاهق لا يتناسب مع العدالة.. العدالة: هي أن نكون في مستوى واحد على الأقل، ونحن نسير في دروبنا التي خطّها لنا القدر، فعندما بنى الإمبراطور الروماني «أوريليوس» معبد هرقل هنا.. على جبل القلعة، كأنما يريد من إله القوة أن يسكن في مملكة الرومان، وليس في السماء السابعة، يريده أن يحسّ بالفقراء وبالمرضى وبالجوعى والمظلومين، يريده أن ينقذ الضحية من المجرم، يريده أن يكون مثل سوبرمان أو مثل الرجل الخفاش في الأفلام السينمائية... لكن الواقع أو الزمن لم يبقِ من معبد هرقل إلا ستة أعمدة متفاوتة بالطول، دلالة على عدم وجود العدالة، كان أسمر يمرر أصابعه على أحجار هذه الأعمدة وكأنما يتحسس نبض الشعوب التي مرت من هنا، حاول أن يتخيل المعبد بصورته الكاملة، ولكنه لم يفلح بعدما طالعته الأحجار المتناثرة هنا وهناك، ولم تصمد بوابة المعبد المندثر إلا كعلامة للزوال وليس للبقاء، وهذا معنى آخر يشبه انعدام الرومان في الأرض، لكن أحفادهم الآن هم من السوّاح الذين يبحثون هنا وهناك عن آثار أسلافهم.

عندما صعد المسلمون على جبل القلعة في القرن السابع لم يبنوا قصراً لربهم، بل بنوا قصراً لخليفتهم، لأن الخليفة هو ظل الله في الأرض او خليفة الله حسب المعتقد الإسلامي، سموه «القصر الأموي» تحول بعد مجيء الشابسوغ الشركس إلى مسجد، ثم تُرك هكذا لا لشيء إلا ليعرف الناس أن خليفة المسلمين قد وصل إلى هنا، فصار القصر كالأعلام التي تُثبت على سطح القمر، أو مثل العلائم والاشارات التي يتركها متسلقو الجبال الذين يحتفلون على قمة الجبل بعد أن يكتبوا أسماءهم على أحجاره.

قال أسمر للمانوي: لو أن النبي ماني قد هرب من سلطة بهرام، كما هربت أنا من سلطة صدام في عام 1991 إلى إيران، لنجى كما نجوت أنا؟ وربما سينجى أتباعه أيضاً بالرحيل إلى جبال عمان هذه، لوجد الشركس جبال عمان في القرن التاسع عشر قد سُكنت من قبل المانويين، ولكانت عمان كلها مانوية، وربما صارت الأردن كلها مانوية، إذا ما تسلم قيادة المانوية قائد قوي ليجبر الناس على الانتماء لدينه، لو حدث ذلك، لوجد جيش المسلمين الذي توجه بثلاثين ألف فارس متعطش للجنس والغنائم، في غزوة تبوك إلى من يحاربونه، بدلاً من إخضاع القبائل العربية التي رفضت دفع الزكاة، ربما سَيخسر المسلمون هذه الحرب، لأن الخيول لا ترتقي الجبال، فيصيد النشاب كل من يحاول أن يتسلق، وسيحاصر جيش المسلمين الشعب المانوي ويمنعه من شرب الماء من العين التي كانت تجري من رأس العين وحتى المحطة، لا بد أن حول المحطة كانت غابة في ذلك الزمن، فيستظل القائد المسلم وجنده في ظلالها، وربما تحت ظلال الغابة كانت تُعقد الاجتماعات والمفاوضات، ولأن المسلمين لا يعرفون أن عدوهم المتحصن في أعلى الجبال قد نضب ماؤه وسيموتون عاجلاً أم آجلاً، لكنهم سيفاوضونهم على دفع الجزية ليعود الجيش الإسلامي إلى الجزيرة العربية، بعد ما يدفع المانويون كل ما لديهم من أموال... لكن النبي ماني لم يهاجر كما هاجر غيره من الأنبياء، ولم يعانِ التيه كما تاه النبي موسى، وليس مثل النبي إبراهيم الذي هاجر مرتين، الأولى من أور سومر إلى القدس، وبعد ذلك من القدس إلى وادٍ غير ذي زرع.

كلا، الظروف غامضة مع النبي ماني، والقدر لم يسرِ كما ينبغي، حتى

اشتدت الضغوط التي مارسها الزرادشتيون على السلطة الساسانية، كما هو الضغط الذي مارسه اليهود على سلطة الرومان للتخلص من النبي عيسى، فاشتدّ الحصار على النبي ماني وأصحابه، ومكث يدور في الأرض التي كان يحكمها الملك بهرام، واختفى لفترة ثم ظهر متنكراً بهيئة درويش، وبعد أن تأكد من أنه سيموت لا محالة، ولا يحب أن يموت وهو مطارد، فلا يليق بنبي إلا أن يواجه قاتله، ومثلما فعل السيد المسيح عندما واجه يهوذا الإسخريوطي قائلاً له: هيا اطعنّي بخنجرك، وقد جرّد ثيابه، مما جعل يهوذا يتراجع أو يؤجل ذلك الأمر حتى يتأكد من هذا النبي الشاحب النحيل، فقرر النبي ماني في النهاية أن يخدع الملك بحيلة، لكنها لم تنطلِ على الملك بهرام، وكان هذا في عام 277م، ولمّا فشلت خطته وقيدوه بالقيود الثقيلة قال: «أنا النبي ماني، لم أدحض نبوة أي نبي سابق، ولم أخالف تعاليم نبيكم زرادشت، ولم أدحض المسيح كذلك، فإن تعاليمي وسطى بين أنبياء الشرق والغرب.. بين أنبياء الأرض والسماء، وهذه ليست جريمة، ولكل عصر نبي، وأنا خاتم الأنبياء، ولأنني أمشي بينهم جميعاً دون أن أخالف أي واحد منهم، وأنا ابن بابل قلب الأرض».

وخلال أسبوع مات النبي ماني في سجنه بظروف غامضة، قيل منعوا عنه الطعام، وقيل أَضرب هو عن الطعام، وقيل مات بالتعذيب، وبعد ذلك مثّلوا بجثته قبل أن تعلق على بوابة «جنديشابور» في الأحواز، ثم بدأت عملية الإبادة التي طالت معظم أتباعه في بلاد فارس وفي بلاد بابل، وضاع بقايا منهم في بلاد الهند والسند والصين.

عندما يكون أسمر مُطَارَداً، أو عندما يريد أن يكون في المنطقة

الوسطى بين السنة والشيعة، وبين المسيح والإسلام، يستسلم للمانوي ويترك زمام الأمور له، فيصير مثل شخصية النبي ماني، فمنذ أن وقعت عينيه على مخطوطة كتاب «النبي ماني» والتي يجهل مؤلفها، لأن السلطات كانت قد مزقت غلاف المخطوطة التي انتشلها والده شولي من معجنة معمل الورق في مدينة العماره، حيث كانت السلطات في ذلك الزمن تتلف الكتب غير المرغوب بها في هذا المعمل، لتعيد صنعه كأوراق مقوية تستخدم لحفظ الأشياء.

صُدم بعض المتعلمين في سوق زبيّد حينما لاحظوا «أسمر» وهو يقرأ بمخطوطة غريبة، فلما سمعت السلطات بالأمر صادرت هذه المخطوطة، التي حفظها أسمر عن ظهر قلب، وسجن شولي لأسبوع وفقد وظيفته كحارس في معمل الورق.

حسب هذه المخطوطة كان النبي ماني في عمر 12 سنة حينما نزل عليه الوحي، وكان عمر أسمر حينما قرأ هذه المخطوطة 12 عاماً أيضاً، فكان أول تغيير حدث لـ«أسمر» هو إنه صار رساماً يرسم كل شيء مثل النبي ماني، وصار خطاطاً أيضاً، فالخط الفارسي مرت عليه قصبات النبي ماني، فأعطته هذه الانسيابية التي تشبه اندلاق الماء وسيرانه في الجداول الصغيرة في بلدته الأولى في جنوب بابل، كان النبي ماني صابئياً ويعيش مع قومه في المناطق المتاخمة لأهوار العماره، ولمّا بلغ الخامسة العشرين من عمره، خرج عن دينه وأعلن نبوته، وراح ينشر كتابه «إنجيل ماني»، وهو خليط بين التعاليم المسيحية والزرادشتية والصابئية والبوذية في بلاد بابل وفارس وفي أرض الهند والسند، وعاد إلى قرى العماره عن طريق البحر، ومن ثم عن طريق نهر دجلة.

قبل حلول الظلام، انسحب أسمر مع السوّاح الأجانب من جبل القلعة، لكنه قد فقدهم، فقرر أن يمر في الساحة الهاشمية، وتناول عشاءه في مطعم للأكلات السريعة وشرب شاياً، وما إن باشر بسيره حتى لمح الشرطيين وهما يقومان بجولاتهما في الساحة، فامتدت يده إلى ساعته الويست إند، وذهب باتجاه الأمانة، وفي لحظة أخرى شاهد أحد رفاقه من الذين اجتازوا الحدود الأردنية بصحبة المُهرِّب، قال أسمر: إنه «أبو حسين»، ردد الاسم فازداد خفقان قلبه أكثر، وقرر أن يراقبه من بعيد، توقف عند المكتبة ليطالع الصحف الأجنبية، ومر زميله من جانبه دون أن يتعرف عليه، تحرك أسمر وراء الرجل، وترك مسافة أمان بينهما، وراح يسير خلفه حتى صعد وراءه جبل عمان، وشاهده يدخل إلى بناية مكونة من ثلاث طوابق، دخل إلى البناية وشاهده يلتوي مع السلم في الطابق الأخير، ولمّا وصل أسمر إلى الطابق الأخير وجده مُظلماً بعض الشيء، ولاحظ وجود أربعة أبواب، فاحتار لبرهة فقال المانوي: أطرق أحد الأبواب الأربعة، فإن ظهر صديقنا فخير على خير، وإن ظهر غيره فاسأل عن صاحبنا مادمنا نعرف اسمه، لكن حاول أن تنـزع باروكتك وتنـزع حقيبتك وتُغيّر من هيئتك في هذه الدقائق، مادام المكان مُظلماً، استغل أسمر الظلام الشفيف على درجات السلم، فنـزع الباروكة من رأسه ودسّها مع بلوزته التي يلف بها وركه في الحقيبة، فشعر بالبرد يدور في جمجمته، ولمّا طرق أحد الأبواب ظهرت امرأة أردنية سمراء طويلة، فارتبك أسمر للحظة فقالت: شو خير؟ سلّم عليها فردت مبتسمة، سألها إن كان في هذا الطابق عراقي، فأشارت إلى الباب قائلة «هيو»، اعتذر عن إزعاجها فقالت: لا إزعاج ولا شي.

كان قلب أسمر يتعالى، ربما أقوى من طَرقات أسمر الخجلى على الباب، فخرج أبو حسين.. بدا الرجل مرتاباً في البدء، وعندما دخل أسمر وعرّفه بنفسه وعن الرحلة التي دخلوا بها إلى الأردن حتى تذكره لكن بالكاد...

ـ لكن كيف عرفت عنوان سكني!؟ سأل بارتياب.

ـ لقد رأيتك ولحقت بك إلى هذه البناية.. وأنا أبحث عن سكن، لقد... لم أتفق مع صاحب البيت الذي أسكنه، يقول ادفع إيجار البيت كاملاً، أو ابحث عمن يسكن معك.

قال أبو حسين: مثل ما يحدث معي، انظر هذه الشقة، فيها غرفة واحدة ويطالبني صاحبها أن أدفع إيجار بدلاً عن أربعة أشخاص.

قال أسمر: سنتقاسم الإيجار بيننا، حتى نجد شخصين آخرين.

صمت الرجل مطرقاً برأسه، فعرف أسمر ما يجول بخلده.

فقال له: لا عليك، سأدفع كل الإيجار، ثم تدفع لي عندما تجد عملاً، فليس من المعقول أن ننام في الشارع، سنؤجل هذه الأمور إلى الغد... هل أستطيع أن أستحم، فأنا متسخ من رأسي حتى قدمي، أدخل أسمر حقيبته معه إلى الحمام.

قال أبو حسين: لكن ليس هناك ماء دافئ، يمكنك أن تُسخن الماء على (البابوريه)، قالها باللهجة الأردنية، أقصد (بريمز)، لكن عليك أن تشتري بعض النفط (الكاز) مثل ما يسمى هنا، من الشقة التي تقابل شقتنا.. هذه المرأة عندها بقالية في شقتها، قال أسمر: آه عرفت، ذهب

أسمر وطرق الباب، فخرجت المرأة السمراء ذاتها، وهي من النوع الذي كان يفضلها المانوي: ـ أهلا.. خير.. شو بدك؟

(لتر كاز وصابون وجبن وبيض وربطت خبز وعلبة لحم وزيت وكيلو بصل).

كان أسمر يقف بعيداً عن الباب في الظلام الشفيف، ولكنه كان يراها في نور مصابيح شقتها، جعلته يقترب لترى وجهه.. فتأكدت من أنه الشخص نفسه الذي طَرق بابها قبل قليل.

عاد أسمر بمسواقه.. قائلاً: أنا مستغرب، فلدى هذه المرأة كل شيء.

قال أبو حسين: هي تعرف ماذا يريد الزبون، فتهيئ الأشياء لزبائنها، لديها عقل تجاري..

عندما قدم هذه الأشياء، شعر بارتياح، وطمأن أبا حسين لوضعه أيضا، فكأنما قال له: إنه ليس مفلساً، وإنه سيفيده إذا لزم الأمر.

لكن هذا كثير.. قال أبو حسين محرجاً، واستطرد: اعذرني، لم أستلم من المتعهد الذي أعمل معه فلساً واحداً، وكلما طالبته يقول: (يعطيك العافية)... أنا نادم لأنني غادرت العراق، غامرنا ومشينا طويلاً في الليل وهذه هي النتيجة (يعطيك العافية.. أنعل أبو العافية...)، لو كان لدي أجرة العودة لعدت للعراق، وليحدث ما يحدث.

ـ لا تقلق أبو حسين إن شاء الله نرجع للعراق معاً.

أخذ أبو حسين زجاجة النفط، ودخل بها إلى الحمام، ثم بعد ذلك سَمع أسمر صوت ملء البريمز بالهواء، ثم سمع وشيش لهب النار، خرج أبو حسين قائلاً: سيجهز الحمام بعد دقائق.

نام أسمر هذه الليلة نوماً عميقاً، ولم يستيقظ إلا في الساعة التاسعة، حيث لم يجد أبو حسين، لكنه وجد إبريق الشاي جاهزاً، سخّنه وسخّن الخبز وراح يأكله مع الجبن بارتياح.

ـ هذا لم أحلم به، قال للمانوي.

فقال له المانوي: هناك أشياء جميلة تحدث تلقائياً، وهناك أشياء رديئة تحدث بعكس ما يخطط المرء له.

قال أسمر: ها قد تفلسفت أخيراً.. وأخشى أن تجبرني على اعتناق وكتابة فلسفتك هذه..

قال المانوي: هذه فلسفة النبي ماني، وليست فلسفتي، لكن أشعر بأنني روح هذا النبي، أوَ لا تؤمن بالتقمص والحلول!؟ كيف إذن تؤدّي هذه الأدوار، كنت قبل ليلة رجلاً أوربياً.. وأعلم أنه ليس الباروكة هي من تحولك إلى رجل أوربي، أنت تنتحل قبل أن تتقمص الشخصيات، كيف إذن يقول النبي ماني إنه موسى وعيسى وبوذا وزرادشت.. إنه يتقمص شخصياتهم، هو خليط من كل هؤلاء.

قال أسمر: أنا أكره الحرباء، لأنها تتلاءم حدّ التلاشي في المكان! بينما أنا أتحول إلى إنسان آخر بغض النظر عن المكان، وبالمناسبة أنت تتعبني في هذه الترهات، دعني أعشْ بسلام..

قال المانوي: أنت إرهابي يا سيدي، أنت مطلوب لدى سلطات مدينة العماره في العراق، لأنك انضممت إلى القاعدة، ومطلوب عشائرياً أيضاً.. ومطلوب من قبل القاعدة أيضاً، لأنك قتلت رجالهم.. أنت

مثل النبي ماني طاردته المسيحية والزرادشتية في الوقت نفسه... والآن من أنت؟ هل أنت مانوي، مسلم، مسيحي؟ أم إنك لا تؤمن بكل هذه الأديان، احذر من نفسك.. فما أنت إلا هارب منها، قبل أن تهرب من الأديان، الثأر الذي تقتل من أجله ما هو إلا مجرد انفعال، وكان ينبغي لك أن تتأمل في وضعك وموقفك، لك أسماء كثيرة، ولك طائفتان، ولك دينان هكذا تضيع نفسك.

قال أسمر: أتمنى أن أضيعها، ولا تجدني حتى أنت، ألم تضيع نفسك؟ وها أنت هائم في الأثير.. غير أنني أكاد أعرفك، فما أنت إلا ماني ذاته.

قال المانوي: أنا لم أضيِّع نفسي.. ولكنني لا أصرّح بكل شيء، وعندما تموت ستعرف من أنا.

خرج أسمر من الشقة، وأراد أن يطرق باب المرأة ليشتري منها دجاجة مجمدة، لكن المانوي حذره ومنعه من ذلك، فذهب إلى البقالة التي تقع في الدور الأول من البناية.

وعندما عاد أبو حسين من العمل منهكاً في المساء، تناول مع أسمر حساء الدجاج، ثم شربا الشاي معاً، وعمَّ بينهما جو من الارتياح.

قال أبو حسين: (أَبشرك.. استلمت نصف ما أطلبه من هذا المتعهد البخيل.. الليلة ندفع إيجار البيت ونرتاح).

سأله أسمر: كيف تتحرك في عمان بلا جواز، ألا تخشى شؤون الوافدين؟

قال أبو حسين متهكماً: أنا أشبه المصريين، ثم إنني أتجنب السكن قرب العراقيين، وعندي بطاقة مساعدات أصدرتها لي مكاتب الأمم المتحدة، أستخدمها عند الضرورة، أعرف شخصاً يمكن أن يصدر لك واحدة، لكن بأي اسم أسجلها لك، فأنت كل يوم اسم..

قال أسمر ساخراً: سجلها بأي اسم تحب..

وضحك أبو حسين قائلاً: كن جاداً هذه البطاقة تنفعك، وأعطاها لأسمر ليراها.

قال أسمر: سجلها باسم: (ماني عيسى موسى).

ضحك أبو حسين قائلاً: هذا اسم أم لافتة؟!

سأله أسمر: كيف كانت أيامك مع العمل الشاق؟

قال أبو حسين: أيام لا توصف... وهذا التعب أحياناً لا نعثر عليه، مرت أيام لم نأكل خلالها غير الخبز، وكنا نستدينه من هذه المرأة، تصور.. كنا هنا أربعة أشخاص عاطلين عن العمل، وبالصدفة وجد أحدنا فرصة عمل في صب قوالب (بلوك) الإسمنت في محافظة السلط.. كانت الفرصة لثلاثة أشخاص فقط، وعملنا قرعة وكنت الوحيد الذي خسر القرعة، كانت فرصة جيدة عمل وسكن.. فهم يسكنون الآن في مقر العمل.

قال أسمر وكأنه يكلم نفسه: إيه.. الحياة لعبة الحظ الكبرى، فأما أن ترث المصائب، وأما أن ترث شيئاً عظيماً.. مثل أن ترث مملكة بكاملها.

قال أبو حسين: أين كنت تعمل في هذه الفترة؟

قبل أن يجيب حذره المانوي أن يأتي على ذكر البحر الميت على لسانه.

قال أسمر: عملت في محافظة إربد في بناء الحجر.. أعمال شاقة... ولا بأس إن وجدت لنا عملاً في الأيام القادمة خارج عمان، حتى لو كان مُهلكاً، فنسكن هناك مثل ما فعل زملاؤك..(وابعد عن الشر وغنيله)... واستطرد أسمر: ما هي أخبار السماوة مدينتك.. مدينة جميلة مثلها وقديمة قدم التاريخ، فتصحو السلطات ذات صباح وتُغيّر اسمها بجرة قلم من السماوة إلى مدينة المثنى بن الحارث، وتغيّرها هكذا تغييراً طائفياً..

قال أبو حسين: لكن أفضل من مدينة الثورة في بغداد التي غيّرتها السلطات إلى «مدينة صدام»، ثم غُيّرت الى مدينة الصدر أما الآن فأهلها يسمونها «المدينة» لأن اسمها مسخ لعدة مرات، وصارت الآن بلا اسم أو عنوان.

قال أبو حسين: أحياناً السلطات تضع أسماء للمدن مثلما تضع شعاراتها في الشوارع، وهذا ما حدث لمحافظة الناصرية، الديوانية، كركوك والعمارة وغيرها.. أما تكريت فصارت مثل سان بطرس بورك التي حولتها الآيدلوجيا إلى لينينكَراد، لأن لينين ولد فيها، مثلما ولد صلاح الدين الأيوبي في تكريت فسميت بـ«محافظة صلاح الدين».

قال أسمر: هل رأيت «خلف المهربجي»؟

قال أبو حسين: قبل شهرين لمحته في «سوق الحرامية»، هل تفكر بجدية في العودة إلى العراق؟

نعم، لكن ليس الآن بعد شهرين أو ثلاثة أشهر إن شاء الله، وسنعود معاً وعلى يد (أريقط.. أعلم الناس بالصحراء) أعني خلف المهربجي.

قال أبو حسين: (تعجبني ثقافتك يا ماني، مدري أسمر، مدري موسى مدري عيسى).

قال أسمر: أنا صرت بلا اسم مثل مدينة (الثورة) وغيرها من مدن العراق... يمكن أسمّي نفسي «بلاسم».. (يَله كلها أسماء دلالة لا دليل، نادني بالاسم الذي يعجبك...).

قال أبو حسين: (أنا يعجبني ماني، هذا النبي البابلي الذي ظلمه التاريخ.. بالمناسبة أنا درست في كلية الآداب قسم التاريخ، لكنني لم أنهِ دراستي،(نُصّ الطريق وانتهى شحن البطارية).

وبعد صمت راح أسمر يردد أبياتاً من قصيدة لا تهاجر (لا تهاجر كل ما حولك غادر.. لا تدع نفسك تدري بنواياك الدفينة.. ومن نفسك على نفسك حاذر.. هذه الصحراء ما عادت أمينة.. هذه الصحراء في صحرائها الكبرى سجينة...) التي قرأها أحمد مطر في مناسبة هجرة الرسول محمد (ص).

عندما ذهبا ليلاً ليدفعا الإيجار اتفقا أن يذهب أبو حسين في الصباح إلى مدينة السلط، لعله يجد لهما فرصة عمل مع أصدقائه هناك.

ظل أسمر وحيدا ليوم واحد في الشقة، لكن بدا له هذا اليوم وكأنه شهراً، إذ ان ذكرى عائلته ظهرت فجأة لمخيلته ولذهنه ولكيانه، وحاول ان يتخلص منها بطرق شتى، لكنه لم يستطع، فكان في الماضي حين تأتيه

هذه الذكرى يخرج الى الشوارع ويمشي ويترك لقدميه حرية السير حتى يتعب، لكن في هذا الوقت لا يستطيع ان يغامر بالخروج فلربما سيثير الشكوك ويقبض عليه... فحاول الهروب من هذه الذكرى بطرق اخرى، كأن يغني وأحياناً يجادل المانوي، وأحياناً أخرى يمارس الرياضة... غير أنه كان عاجزا هذه المرة، وأراد أن يبكي، لكنه لم يستطع، تذكر آخر مرة عندما اصطحب ابنه معه إلى السوق ليشتري له الثياب، بالكاد كان يمشي هذا الصغير، وكان يمسك بيده، تذكر كيف ارتدى الثياب التي اشتراها له، والفرحة التي بين عينيه وشهقة أمه، حين رأته بالثياب الجديدة، بالكاد تذكر ملامح وجهه، لا يريد أن ينسى هذه الملامح، ولا يريد أن يرسمها أيضاً، حاول أن يبكي، لكنه فشل وأصابته نوبة من الألم.. ظلت تجري مع دمائه وتخفق مع قلبه، كانت هذه الآلام تصيبه مثل الصرع، كم تمنى أن يموت أثناء النوم، وكم تمنى لو لم يأتِ إلى الدنيا، وتمنى أن يكون مجنوناً.. فصاح عالياً في الشقة الخاوية حتى امتلأت بصراخه (ليش شش...).

وما إن هدأ قليلاً حتى طُرق الباب، فانتفض خائفاً، وامتدت يده إلى ساعة الويست إند القابعة في جيبه، وأدار مفتاح شاحنها.. فقال له المانوي: حافظ على هدوئك، وافتح الباب، فهذه الطرقات خفيفة وخجولة.

فتح الباب، وإذا بالمرأة صاحبة البقالية تقف أمامه.

سلّمت وردّ عليها السلام.

قالت: (شو.. سلامات، سمعت وأنا طالعة من شقتي صوت صرخة، فخفت أن... شي مكروه صار).

ـ (لا ما صار شيء.. هذا التلفزيون).

ـ قالت: (شو.. أبو حسين اشترى تلفزيون، ما هو مطلوب لي بسبع ليرات.. ويكلي دائماً هو مفلس).

قال بارتباك: ما أدري..

ـ قالت: (لو سمحت أريد أن أشوف أبو حسين).

واندفعت داخل الشقة ودارت بها.

ـ قالت: (لا تلفزيون ولا أبو حسين!!)

وظلت واقفة تنتظر جواباً من أسمر.

قالت: (شو مالك!).

قال: (ما أعرف، تذكرت شي صار لي بالعراق وصرخت وهذا كل شي).

قالت: (الله يكون بعونك.. واضح الوجع بوجهك.. ابكِ حتى يطلع هذا الألم).

قال: (ما أكدر أبكي... هذي هي المشكلة).

قالت: (هذا بسبب الفراق.. وبتحن لامك لأبوك لزوجتك لأولادك).

قفزت الدموع من عينيه واختلطت كلماته مع بكائه (كلهم.. ماتوا كلهم ولا واحد).

تسمّرت المرأة بوقفتها، ووضعت يدها على فمها، وخرجت مسرعة من الشقة، وظل ينتحب وحيداً.

* * *

لما خَرجت المرأة وأغلقت الباب خلفها، ظل نحيبي يتعالى.. انتحبتُ حتى بُح صوتي، غَسلتْ دموعي كل وجهي، وأزاحت منه أشياء غير مرئية كنت أشعر بوجودها مثل شبكة من الألم تصيد سعاداتي وتبددها، وشيئاً فشيئاً غرقتُ بنوبة نوم ثقيل، لكنه لم يكن أثقل من خطى قدميَّ، وأنا أسحلهما بالرمال في صحراء قاحلة تشبه الصحراء التي قطعناها بين العراق والأردن... ولكنني كنت وحيداً، وكان البرد قارساً في صحراء ممتدة بامتداد الظلام الشفيف، أتابع آثار أقدام كنت أراها مطبوعة بالرمال، تكاد قطرات المطر تمحو وجودها، أحياناً تكون هذه الآثار واضحة، ولكنها تختفي في أحيان أخرى، فيهزني ألم الضياع لتظهر من جديد، كانت رحلة مضنية لا نهاية لها، ولم ينقذني منها إلا طرقات الباب، وما إن صحيت متجها بفزع إلى الباب، فقلت بصوت ملتاع: مَن؟

قالت: أنا، افتح الباب.

قلت: آسف لا أستطيع.

قالت: أريد أن أطمئن عليك ليس إلا.

قلت لها: أنا بخير... ثم سمعت صوت خطاها وهي تبتعد، وقد بدا لي كل شيء وكأنه مجرد حلم، أو جزء مما كنت أعانيه في ذلك الكابوس الرهيب.

قال المانوي: اغتسل، واطرد هذه الكوالبيس عنا.. وإلا فإنها ستظل تطاردنا.

قلت: أين كنت بحق الجحيم.. تركتني نهباً للأوهام.

قال: لقد حلمتُ بأنني تهت في صحراء، وبالكاد وجدت آثاراً لوحوش، وبرغم ذلك كنت أعتبرها أملاً بالوصول.

قلت: له أي وحوش!؟ أنت تخدع نفسك أم تخدعني؟ أنا من كان يحلم بهذا الكابوس، فالآثار التي تتكلم عنها كانت لأُناس مثلنا، وليس للوحوش.

قال: بل لمجرمين أشبه بالوحوش.

قلت: أنت تخيفني.

قال: لنستحم ونطرد هذه الأشباح عنا.

وما إن استحميت بالماء البارد، فلم أنتظر الماء حتى يَسخن، حتى تلاشى الألم والصداع من رأسي وعادت قواي إلى طبيعتها... وكنتُ انتظر هذه المرة المرأة أن تطرق الباب، ولمّا لم تأتِ، ذهبت إلى شقتها وطرقت عليها الباب، ولما فتحته.

قلت لها: آسف.

قالت: لا داعي للأسف، لقد أعددتُ لك طعاماً، هل تحب أن تأكله هنا أم في شقتك قلت لها: في شقتي، وتركتُ الباب مواراباً ورحت انتظر.

بدت أصغر عمراً وأكثر أنوثة، وهي تجلس أمامي وتراقبني بحنان، كيف ألتهم الطعام.

قلت: إن طعام الأردنيين دسماً وثقيلاً.

قالت: هذا نسميه (المنسف)، لا نعده إلا للضيوف الأعزاء.

قلت لها: شكراً، كان لذيذاً، ولكنه ثقيل مثلي... ضَحكتْ، وبدا الدلال واضحاً في صوتها.

قالت: ماذا تشتغل؟

قلت: حالياً عاطل، لم أجد عملاً بعد.

طرقتُ باب شقتها في اليوم الثاني، واشتريتُ منها بعض الحاجيات مثل أي زبون، وقبل أن أذهب.

قالت: إذا فتحت لك دكاناً هل تستطيع العمل فيه؟

قلت: أنتِ تعطفين عليَّ... عندك هذا الدكان، وهو مناسب لك لأنه في شقتك.

قالت: تعبت منه، أريد أن أرتاح، هناك دكان صغير في الدور الأول تستطيع أن تبيع به، وأنا أجهزك بالمواد.

قلت: أريد أن أفكر بالأمر قبل أن أُقرر.

وَفكرتُ.. وقررتُ بالوقت نفسه، قلت للمانوي: إنها استراحة مقاتل، فترة.. أحبس نفسي فيها بالدكان حتى ينسى رجال الأمن اسم أسمر أو يخفت بريقه في أوراقهم، قال: وماذا لو جاء أحد العمال الذين شهدوا جريمة قتل الإرهابي الأخير على ضفاف البحر الميت، واشترى منك علبة سكائر مثلا، كيف يكون موقفك؟ وحتى لو أنكرتَ ذلك وقلت إن اسمك ماني وليس أسمر، فلن تستطيع إنكار بصماتك على أداة الجريمة «الخنجر».

قلت: لكنه احتمال ضعيف، وأنا لن أستقر هنا لفترة طويلة، وسأحاول أن أغيّر من شكلي الذي عُرِفت به أيام البحر الميت.

وفي المساء جاء أبو حسين، وكان متأسفاً لأنه وجد فرصة عمل واحدة له فقط، وقال: إنه يمكنني أن أذهب معه، فربما أجد عملاً ما هناك، فأوضاع الوافدين هناك أفضل، قلت: لا، سأبقى هنا لفترة حتى أجد فرصة عمل في سوبر ماركت أو أي شيء من هذا القبيل.

جمع أغراضه، وترك لي بعض الحاجيات، الفراش وبطانية والبريمز، وقال: سنذهب الليلة إلى صاحب الشقة لنعلمه بالأمر، وتكون أنت المؤجر الرسمي لشقته.

سجلت بدفتر صغير عندي أرقام هاتفه وهواتف أصدقائه هناك، فلربما أحتاجهم عندما أعثر على خلف المهربجي، وأعطاني رسالة إلى الرجل الذي يمكن أن يمنحني بطاقة مساعدة اللاجئين، قال: هذا يمكن أن يمنحك هذه البطاقة مقابل مبلغ بسيط.

وفي الصباح غادرني أبو حسين، وكنت حينها صاحياً، وكنت أشعر به وهو يدور في الشقة ليجمع أغراضه ويلفّ فراشه وبطانيته ليغلق الباب بهدوء خلفه، ولم أستطع النوم بعد ذلك، وعندما أفطرت في الصباح، ذهبت إلى سوق الحرامية، واشتريت لنفسي ثياباً مستخدمة، واشتريت قنينة سائل الكلور لغرض تطهير هذه الملابس، وذهبت إلى الحلاق ورتب لي شعري فبدوت في مرآة الحلاق أصغر عمراً، كأنني شاب من الأردن، ولا أشبه نفسي أبداً.

شهقت المرأة عندما رأتني وقالت بلهجتها: (يكطعك).

كلمتها باللهجة الأردنية، وبدأت العمل في الدكان بعد أن اتفقت معها على الراتب وساعات العمل وأشياء أخرى، وكنت سعيداً في هذا العمل، وشعرت بأنني أستطيع الاستمرار به لفترة طويلة.

وفي مساء يوم 9/ تشرين الثاني/ 2005، اهتزت جبال عمان بثلاثة انفجارات متوالية، واختلفت الإشاعات حول هذه الانفجارات، قال بعض الزبائن الذين اشتروا بعض الحاجيات من دكاني: فجر الإيرانيون مديرية الأمن العام... وقيل إنه انفجار في مطار الملكة عالية، وسمعتُ كلاماً كثيراً من هذا القبيل، حتى أُعلن بالتلفاز: أن الانفجارات طالت ثلاثة فنادق في عمان، وهي (فندق الراديسون ساس) الواقع في شارع الحسين بن علي، والانفجار الثاني ضرب (فندق حياة عمان) الكائن في جبل الحسين، أما الانفجار الثالث فحدث في (فندق الديز إن)، ولم تعلن أي جهة مسؤوليتها على هذه الانفجارات.

وفي الليل لفّيتُ المسدس جيداً بقطعة قماش، ولفّيتُ الباروكة أيضاً، ووقفت في منتصف الغرفة، وتقمصت ضابط أمن أردني يفتش شقتي، فلما عرفت ما يفكر به الضابط خبأت المسدس والباروكة في موضعين مختلفين في الشقة لا يمران على بال أحد.

وفي اليوم الثاني تشنجت جبال وشوارع عمان كلها، وبدأ التفتيش عن الجُناة، وكانت هناك شكوك تحوم حول العراقيين المقيمين في الأردن، حتى تم القبض على الإرهابية التي لم تستطع أن تضغط على زر الحزام الناسف كما فعل زوجها (علي حسين علي الشمري)، فهربت إلى إحدى قريباتها في ضواحي عمان، ولم تستطع نزع هذا الحزام

الناسف، حتى كُشف أمرها، وعُرضت على شاشات التلفاز اعترافاتها، وهي عراقية تدعى (ساجدة عتروس الريشاوي)، وكانت عضواً مهما في تنظيم القاعدة، ثم أُذيع عدد الضحايا والمصابين، وكان المخرج العالمي مصطفى العقاد صاحب فلم الرسالة الإسلامي بينهم، وقد أنهت الرسالة الإسلامية التي أرسلها بن لادن وأسلافه حياة العقاد في مدخل فندق حياة عمان.. وما بين فندق حياة عمان وما بين حياة مصطفى العقاد وموته، كانت هناك فرصة للتأمل، كان المانوي فيها أكثر حماساً من ذي قبل... قلت للمانوي: فلم الرسالة الذي أخرجه العقاد عرّفَ الغرب والشرق بالإسلام، ولم يستطع غيره من رجال الدين أن يعرّفوا الآخرين بالإسلام الحقيقي.. الإسلام المتسامح، وما كانت رسائلهم إلى الغرب وغيره إلا رسائل حرب.. فيبدو أنهم يقتلون كل من يتحاور مع الآخر مهما كان نوع هذا الحوار.

قال المانوي: لو كانت المانوية قد انتشرت بدلاً من الإسلام، كان الحال أفضل لكل الناس.. للمانويين ولغيرهم، أما الآن فالحرب تلد الحرب.

قلت له: هذه فرصتك لتنال من الإسلام، ألا ينبغي أن تهادن قليلاً من أجلي على الأقل.

قال: الإسلام ينال من نفسه يا صاحبي، أريدك أن تكمل فصول كتاب النبي ماني، وأنا سأزودك بالأفكار.

قلت له: أنا مطارد يا رجل، ألا تعرف ذلك!؟

قال: السلطات الأردنية منصرفة الآن عنك، وتبحث عن خيوط

واعترافات ساجدة الريشاوي، وتحركات الزرقاوي وعلاقاته بالمد السلفي الأردني، الذي يتغافى منتظراً فرصة الانقضاض على السلطة.

* * *

إلى الجهات ذات العلاقة تقرير أمني سري وعلى الفور

م/ جريمة قتل

إلحاقاً بتقريرنا الأمني المرقم (بلا...) بتاريخ 4 / تشرين الثاني/ 2005، حول جريمة قتل على ضفاف البحر الميت، بعد تدوين كل اعترافات الشهود من العمال الذين يعملون مع الجاني (أسمر العراقي)، والمجني عليه (أبو الفتوح عبدالله فرغلي ـ مصري الجنسية) نود أن نبين الآتي:

اولاً: إن المجني عليه هو عضو في منظمة القاعدة، حيث إنه كان يثقف لهذه المنظمة بين صفوف العمال، ويدعوهم إلى الانضمام إليها بحسب شهادة الشهود المرفقة مع هذا التقرير، وإن من المرجح أنه يقوم بهذه المهمة بتكليف من الزرقاوي المتواجد حالياً في العراق.

ثانياً: وحسب شهادة الشهود المرفقة ـ كما أسلفنا ـ إن الجاني وهو المعروف بـ(أسمر العراقي..) كان يلاحق المجني عليه ليقتص منه ثأراً لعائلته، التي قضت في تفجير سيارة مفخخة في قلب العاصمة العراقية بغداد، وإن الجاني هو الآخر كان قد انضمّ لمنظمة القاعدة، وسجن بتهمة الإرهاب، وحسب أقوال الشهود: إنه مطلوب للقانون العراقي، لانضمامه للقاعدة وتورطه بأعمال عنف في العراق، وإن شخصيته

Telegram: @Arab_Books2

مجهولة، ولا يعرف زملاؤه إن كان اسمه هذا حقيقياً أم مستعاراً، أو إن كانت سيرته المرفقة مع هذا التقرير حقيقية أم لغرض التمويه عن أغراضه الحقيقية.

نحيطكم علماً بأننا نملك بصمات أصابعه، وخلايا من حامضه النووي، يرجى مطابقتها على الإرهابيين الذين فجّروا أنفسهم في فنادق عمان إذا اقتضى الأمر لذلك.

12/تشرين الثاني/ 2005

* * *

كان عملي يبدأ في الدكان من الصباح وحتى العاشرة ليلاً، وحدث أن عدتُ من الدكان ذات ليلة فوجدتها في شقتي.. قدّمت لي صينية وجلست بقربي قلت لها: هيا لنتعشى معاً، قالت: لا أرد طلبك (كرمال عيونك)، وبدأت تأكل وتتحدث عن حياتها، قالت: إن ابنتها مصابة بشلل الأطفال منذ الصغر، وإن زوجها تركها وتزوج امرأة تقيم في القدس، وخَلّف هناك عدداً من الأولاد، ولم يعد يسأل عنها ولا عن ابنته المعاقة، أرسل ورقة الطلاق بالبريد، وحينها عرفت أنه يقيم هناك، وغيّر حتى اسمه.. أخذ اسم ابن عمه الذي استشهد في معارك منظمة فتح، وتزوج من زوجته، واستولى على أملاكه.

كانت يداها صغيرتين، وفمها كذلك برغم أنها ضخمة الجسم، سألتني عن عمري ولمّا أجبتها...

قالت: أنت أصغر مني بخمس سنين.

قلت لها: ولكنك تبدين أصغر مني بكثير.

قالت: أنت تجامل (وكمان أنت أحلى مني).

نظرت إليها ملياً، وقلت لها: بل أنتِ الأجمل.

قالت: (يا ريت...).

وصمتت وأحمرّ وجهها، تركتني وذهبت إلى المطبخ وعادت بكوب الشاي.

قلت لها: لماذا لا تشربين الشاي معي؟

قالت: وهل تحب ذلك؟

قلتُ: نعم، أخذت رشفة صغيرة من الكوب.

وقالت: شايكم ثقيل أنتم العراقيين، تحبون الشاي الأسود.

قلتُ لها: كوني عراقية معي للحظات، ونظرت بعينيها، فتألقت وهي تنظر بعيوني هي الأخرى.

قالت: لماذا لا تتزوج؟ وتعيد الكرة من جديد.

قلتُ: أتزوج من؟ وأخذتُ رشفة من الشاي الذي كان يلسع بحرارته، هزت كتفها دون أن تتكلم، وأخذت الكوب من يدي وتناولت رشفة منه، قالت: بدأت أحب شايكُم الثقيل...

قلتُ: الثقيل كظلنا، ضحكنا، وكانت رنة المرح واضحة في صوتها، وتلوى جسدها الطويل غنجاً.

قالت: ولكنك خجول، والخجول خفيفا دائماً.. ولو كنتَ ثقيلاً لما جلست معك كما تجلس المرأة مع زوجها.

هزتني عبارتها الأخيرة وتحركت الدماء في أطرافي، وارتجفت يدي وهي توصل كوب الشاي إلى فمي، أدَنت الكوب من فمها، وأخذت منه رشفة صغيرة، وحركت لسانها على شفتيها المحمرتين، لكن دون أن ترفع عينيها باتجاهي، أخذت هي الكوب من يدي وقربته من فمي، وقالت (وحدة بوحدة) أمسكتُ الكوب ويدها معاً، وأخذتُ رشفة من الشاي ورشفة من فمها، ثم بعد ذلك شعرتُ بجسدها يتلوى تحت جسدي... كانت ساعات وربما لحظات، وعندما صحوت في الصباح وجدت فوضى الفراش وشال المرأة ملتفّ على وسادتي.

أعطيت لنفسي إجازة لهذا اليوم، ولم أفتح الدكان بعد عمل متواصل دام أكثر من شهرين، استرخيتُ قليلاً واستحميتُ، وطبختُ لنفسي غداء.. وسمعتُ باب شقتها ينفتح، وانتظرتُ أن تطرق باب شقتي، لكنها لم تفعل، وفي المساء خرجتُ إلى الساحة الهاشمية، فذكّرني المانوي برسالة أبي حسين المرسلة إلى الشخص الذي يعمل في مكتب الأمم المتحدة لإغاثة اللاجئين، وذهبتُ إلى عنوان الرجل، طرقتُ بابه بعد ما سألت عنه كثيراً، فتحت زوجته الباب، سلمتُ عليها، ثم سمعت صوت زوجها من داخل البيت قالت له: لديك ضيف، سلّمته الرسالة التي كتبها أبو حسين، قرأها بسرعة، ثم قال: هيا تفضل، جلسنا وقدموا لي شاياً أصفر اللون، وكانت ورقة (الميراميه) تطفو على سطح الكوب، وتنبعث رائحتها مع بخار الشاي، قدم الرجل لي استمارة، قال: املأها، كتبت اسمي (ماني عيسى موسى) الجنسية عراقية، الديانة مسلم، فضحك

المانوي في رأسي، قال الرجل: لا تنسَ رقم جوازك، قلت له: ليس عندي جواز، لهذا أنا هنا، سلمته نصف المبلغ الذي اتفقنا عليه، وقلت: إن صدرت لي البطاقة سأكمل المبلغ.

قال: (بدك تنتظر شهر...).

اشتريت من وسط البلد، هدية فستان نوم سمائي لجارتي صاحبة الدكان، أردت أن أطرق باب شقتها، لكنني ترددت، ناقشتُ أمرها مع المانوي قال لي: مادمتَ لا تفكر في الزواج منها.. فلماذا لا تتركها وشأنها، زوجها حطم قلبها، وأنت ما الذي ستحطمه فيها إن عدت إلى العراق؟

قلت له: لكنني لم أعدْها بالزواج.

قال: لكنها دعتك إلى الزواج منها بطريقتها الخاصة.. وهي الآن تنتظر قرارك.

مر أسبوع كامل على غيابها عني.. لم تمرّ إلى الدكان، ولم تدخل شقتي، فقررت هذه الليلة أن أذهب وأطرق بابها، وصارعني المانوي كثيراً محاولاً أن يحبط من عزيمتي، لكنني لم أرضخ، طرقتُ الباب طرقات خفيفة مثلما كانت تطرق بابي، وانتظرتُ، وكنتُ أرتجف، لا أدري أَمن الرهبة أم من البرد الذي عصف فجأة في عمان؟ وبحثت يدي على ساعة الوست إند، فلم تجدها في جيبي، فقد نسيت أمرها، منذ عملت في دكان جارتي، عدت لأطرق من جديد، وبدا لي وكأن الدقائق قد تحولت إلى سنين، ثم سمعت صوتها من خلف الباب، قلت لها: افتحي أريد أن أتفاهم معك.

قالت: ارجع.. غداً سأمر على الدكان.

أردت أن أتوسلها أن تفتح لي الباب، ولكنني صمتّ لفترة، وكأنني كنت أفكر بأمر قد نسيته منذ زمن.

قلت: افتحي أنا مشتاق لك.

قالت: (في الصباح يصير خير).

عدت إلى شقتي حزيناً، نمتُ، ما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى وجدت نفسي في صحراء قاحلة وباردة، حيث لا آثار فأتبعها، ولا شيء سوى آثار الوحوش، وفي السماء حيث نسور غير مرئية تنعق بصوتها الحاد، تخيلتها تنتظر أن أموت أو أضعف لتنقضّ عليّ، لكنني مع ذلك، واصلت السير بقدمين داميتين، وعندما التفتُّ إلى الوراء شهقتُ عالياً، فالإرهابيون الستة الذين نلنا منهم أنا والبدوي، كانوا خلفي تماماً، يجرّون أقدامهم وأثوابهم المتسربلة بالظلام، والدماء تخطّ خلفهم مثل الظلال، صحوتُ على طرقات باب شقتي، كانت الطرقات خفيفة، فانتفضتُ واقفاً كأنما انتشلت نفسي من الكابوس، وأسرعت لفتح الباب، لكنني لم أجد أي شيء، عدتُ إلى فراشي، وكانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، ورحتُ أنتظر أن تتكرر الطرقات الخفيفة على الباب، ولمّا سمعتها مرة أخرى انتفضت، فقال المانوي: لا تنهض من فراشك، ليس هناك طرقات على الباب، الطرقات التي تسمعها كانت تضرب في مخيلتك فقط، وبرغم ذلك.. انتظرتُ أن يطرق الباب حتى حلّ الصباح.

جاءت إلى الدكان بحدود الحادية عشر ظهراً، جالبة معها البضائع وقائمة أسعارها، ساعدتني في ترتيب الدكان، ولكنها لم تنظر ناحيتي،

ولم تنظر بعينيّ كما تفعل سابقاً، وعندما أردت أن أكلمها ودّعتني ومضت، بدت لي امرأة غريبة، وكأنها لا تعرفني، وكأنني التقيها أول مرة، وبدأت أخجل من وضعي، ومن سلوكي في الليلة الفائتة، قلت للمانوي: أهي المرأة نفسها التي مارست معها الحب في إحدى الليالي، أَم إنني مارست الحب مع امرأة أخرى تنتمي للخيال!؟ لكن المانوي يصمت عندما تُطرح المواضيع التي لا يحبها، وقلت ربما ما جرى كان مجرد حلم أو وهم.. لكنني تذكرتُ شال المرأة ورحت أبحث عنه، وعندما وجدته وشممت عطر شعرها انبعثت ذكراها في كل خلايا جسدي.

شعرت بالملل واللاجدوى يدوران في نفسي، وفكرت أن أترك العمل في الدكان، وأذهب إلى صديقي أبي حسين في محافظة السلط، لكن هناك شيء ما، كان يمنعني غير المانوي الذي يعتبر هذا العمل الذي أُؤديه في الدكان ليس استراحة مقاتل فقط، وإنما فرصة للتأمل للشروع في الكتابة عن تعاليم النبي ماني.

الفصل الخامس

تبدو سنة 1976 سنة طبيعية لمعظم الناس، غير أن للمنجمين رأياً آخر... ومن يدري كيف تبدو الأمور والأشياء لمخيلة بعضهم، فعندما تتداخل الأبراج ببعضها، وعندما تدخل العقرب إلى برج الجوزاء يحدث ما يحدث.. ربما تسرق شيئاً ما، فيفقد الميزان توازنه، ويسقط أو يصاب في برج السرطان أو عندما يفترس الأسد الحمل وبرجه معاً، قد يحدث أمر آخر، أما حين يثور الثور وينطح برج الدلو فيندلق منه شيء ما.. ربما مشاعر أُناس أو حياة فئة من البشر، ومن لم يصدق هذه الأمور فعليه أن لا يصدق كذلك، إن القمر هو من يُسبب ويَتَسبب بظاهرة المد والجزر التي تحدث في البحار، وإذا كان القمر يؤثر على البحار العظيمة فكيف لا يؤثر على كهربائية دماغ الإنسان وإيعازاته، وهناك أحداث وأمزجة ستتغير ويتغير معها مصير ما، وقد يحدث هذا بسبب جاذبية أحد الكواكب التي تدور حول الأرض، ثم إن «رفة جناح فراشة في بيجين عاصمة الصين تؤثر على العواصف في نيويورك»، وهذه الأمور من اختصاص علماء نظرية الكاوس «الفوضى».

لكن سنة 1976 الغامضة بأحداثها الكثيرة والغريبة التي ذهب بسببها آلاف الضحايا من الناس تؤشر على شيء لا نعرفه، إذ اهتزت الأرض

وانشقت وانفصلت طبقة تكتونية في بلاد بوذا، بعدما تحركت أقدام زلزال تانغشان العظيم الذي ركل أرض الصين بقوة 8.2 على مقياس رختر وأدّى إلى وفاة 255000، وأكثر من 500000 مفقود وجريح، وتحرك زميل له في شمال شرق إيطاليا ناطحاً الأرض، ومخلفاً 989 ضحية، وعطس زلزال آخر قريباً من إحدى بلدات تركيا بقوة 7 على مقياس رختر مخلفاً أكثر من 4000 من الضحايا والمفقودين، وحدث أن تهاوت طائرة نقل بريطانية، وذهب ضحيتها 176 شخصاً، وارتطمت طائرة تركية بجبال طوروس وقتلت جميع ركابها، وفي هذا العام نفسه حصد الأمريكيون جميع جوائز نوبل، ماعدا جائزة السلام التي ذهبت للأيرلنديين بيتي ويليامز وكالنون كايدوسك الذين حاولا ردم الهوة بين أقوامهم، وفي العام ذاته كشفت وكالة ناسا الفضائية عن مكوكها الأول، وفي هذا العام توفى القائد الشيوعي الصيني الشهير الماو تسي تونغ، وفي العام نفسه سافر الزعيم الكردي مصطفى البرزاني إلى أمريكا لغرض العلاج من سرطان الرئة ليلقي حتفه بعد ثلاث سنوات هناك، وهي ميتة لم يكن يتخيلها أبداً، فلا تليق ببطل أسطوري شاغل جيوش أربع دول (إيران، تركيا، العراق، وسوريا)، سافر مخلفاً وراءه قرى كردستان تحت سُرف دبابات الجيش العراقي، ترك هذا القائد الحرب الأهلية تلهو بالعوائل حسب أمزجة قادة الحرب وسياسييها... ونتيجة لغياب القائد الكردي.. تأسس حزب الاتحاد الوطني الكردستاني معلناً ثورة كولان، كآخر ورقة يلعبها شعب تبدد بين اتفاقية سايكس بيكو وبين أربع دول، اثنان منها من الأعراب، واثنان منها من الأعجام، كانت سايكس بيكو قد نَسيت هذا الشعب أو تناسته تحت سنابك الاتفاقات السرية منها والعلنية...

وفي عام 1976 أيضاً.. ولد أسمر بن شولي بطل هذه الرواية.. سليل السبي والضيم والقهر والسجن، فكان نموذجاً لمعظم المقهورين في العراق، وربما في أمكنة أخرى، وفي الحقيقة إن ولادة أسمر لم تكن ولادة بالمعنى التام، إنما كانت وجوداً تشبه سيرة وقصص الكثير من الناس ومصائرهم الغامضة... إذ عُثر عليه، ولهذا العثور قصة ترتبط مع حياة ومصائر لأُناس حقيقيين عاشوا بين الأزقة القريبة من «سوق زبيد»، ومازال بعضهم على قيد الحياة، ومازالوا يعيشون قريباً منه.. بل ربما يقتعد بعضهم في هذه اللحظات دكانه الذي اعتقلت به عائلة كردية في يوم ما، وقد محى الزمن الكتابات والرسوم التي خلفها الكُرد على جدران الدكاكين قبل أن يبتلع قصتهم ظلام الغموض... إذ سرعان ما تحوّل سوق زبيد بعد إتمام بنائه مباشرة إلى معتقل لعوائل الكُرد، وهذه حقيقة تاريخية لا يمكن محوها من ذاكرة الناس، يتذكرها من عاش في هذه الفترة، فلقد تم سبي العوائل الكردية على طريقة «نبو خذ نصر» ووضعت كل عائلة في دكان...

وفي هذا العام الغريب والمشؤوم.. جاء المخاض لـ«تسواهن» صاحبة التمثال الذي صُممَ ونصب فيما بعد، والذي يقف الآن في منطقة (الماجدية) إحدى أحياء العماره، جاءها على هيئة كابوس: أشكال هلامية لرجال ملثمين يطاردونها، وهي تركض بأنفاس لاهثة وتأزّ أصوات صدرها ويصرّ مثل احتكاك المعادن ببعضه.. ومن زقاق إلى آخر، كانت الأشكال تتزايد، بينما كانت خطاها ثقيلة كثقل المعدن الذي صنعت منه.. فتلتصق بأشياء دبقة مجهولة الهيئة، بالكاد كانت تحثّ قدميها لتتجنب سواقي المجاري المفتوحة وبركها السوداء، وما

إن تلتجئ إلى أحد الأركان، حتى يظهروا لها من عمق الزقاق، لتواصل هروبها، كان صوتها لا ينطلق بسهولة، بل يظل محبوساً في حنجرتها التي أهمل النحات وضع حبالٍ صوتية لها، والألم كان يبدأ من ساقيها حتى بطنها، واصلت الركض حتى دخلت إلى «سوق زبيّد»، فتذكرت أنه سجن للأكراد، فزادت مخاوفها أكثر.. بدت دكاكين السوق معتمة وغامضة لعينيها المعدنيتين، وظلت تدور بينها... ترددت في الدخول إلى أحد الدكاكين، وقبل وصول الأشكال الغريبة لها، دخلت لأقرب دكان كأنها تقوم بمجازفتها الأخيرة، وما إن دخلت حتى وجدت نفسها بين عائلة نائمة، فتوارت خلف امرأة كُردية كانت ترطن وتغمغم بكلمات ما في كوابيسها، وفجأة دخلت الأشكال الغامضة وانتشلتها من بين العائلة، فأطلقت تسواهن صرخة كتلك التي تصدر عن سقوط المعادن وارتطامها ببعضها، ثم تحولت إلى كلمات مستنجدة بـ«شولي»، فأفاقت وأفاق شولي من هدأته، ليجدها تتمرغ بتراب السطح، وكانت تصرخ:

ـ شولي الحكَلي بطني.. يمكن.. راح أأأوووولد...

استيقظت جارتهم «روسيه»، وكانت نائمة على السطح قريباً من السياج الذي يفصل السطحين، وعادةً في ليالي الصيف كانتا تسليان أنفسهما بالأحاديث من وراء سياج السطح، وعندها يمد «اغليم» يده إلى ساق زوجته روسيه بعد أن تطول الأحاديث، فيتغيّر صوتها وتطلق تأوهات لا تتناسب مع حدث الحكاية، فتنتبه «تسواهن» إلى جارتها وتنهي الحكاية بطريقة ما.

أطلّت «روسيه» من السياج الواطئ، بعد أن سمعت الجلبة وبعد أن

رأت شولي يكابد لسحب تسواهن إلى فراشها، قفزت السياج، ولحسن الحظ إن السياج لم يكن عالياً بحيث يمنع روسيه من اجتيازه، فبعض الأحيان كانت تزور جارتها من السطح، بعد أن تساعدها بخبز الخبز أو شيء من هذا القبيل، تعاونا معاً لإعادة تسواهن إلى فراشها، بينما كانت تحم، كابتة الألم بصوت أشبه بالفحيح:

ـ (ولج روسيه راح أُولد بالشهر السابع).

فأجابتها: (اسم الله.. اسم الله.. خير إن شاء الله، العبّاس ابو فاضل إنولد بالسابع.. خيه).

واستأنفت: (زاير شولي.. تكدر اتجيب حجية «ركينة» لو اكعّد اغليم).

وسرعان ما أطلّ اغليم برأسه: (نزلوها جوه وأنا راح اجيب ركينه).

ومن السطح الآخر، أطل حجي «عبد ربه» بعد ما سمع رتاج باب بيت اغليم يُصفق، ونادى على الهيئة التي تلمع عندها سيكارة كانت تتحرك يميناً وشمالاً: (خير إن شاء الله.. خير).

فأجابه شولي قبل أن يهبط إلى داخل البيت من بين سعاله: (خير، تسواهن تطلك.. حجي).

(يالله.. راح اكَعّد أم علي).

ولم تمرّ سوى دقائق، كانت سنين طويلة لـ«شولي»، بين صراخ زوجته تسواهن والانتظار المُر الذي لفّ كل جوارحه، فَتحرك لا إرادياً لفتح الباب الموارب على الظلام الشفيف.. ومن هذا الظلام، ظهر اغليم يجرّ كتلة مظلمة، قال شولي: (تأخرتوا...).

وهو يميل متّكِئً على عصاه، لتمرّ الهيئة الكروية لـ«ركينه»، سَلما، وقد تلاشى صوتاهما أمام الصرخات العالية التي كانت تطلقها تسواهن: (علي.. علي.. عـ..لـ..لـ.. يـ).

وما إن دخلت ركينه، حتى صارت الصرخات أعلى فأعلى، وكان قلق شولي يتزايد أكثر فأكثر.

دارَ همس بين النسوة، ربما لا يفهمه إلا من أنجب العديد من الأطفال، وبينما ظلّت روسيه تذهب وتجيء لإحضار شيء ما، ولا تنفك الأصوات تهمس، وتظلّ تدور همهماتها، إلا أنها كانت تتلاشى مع صوت تسواهن وهي تكابد صرخاتها المصحوبة بالبكاء، وأطراف كلمات بترها الألم... ومرّت لحظة صمت ثقيلة على شولي، وعمّ هذا الصمت أرجاء البيت كله، ما خلا حفيف المروحة وهي تدور بالهواء الساخن.. ليزحف صمت ثقيل، كأنه يغلّف الحي كله، متخللاً البيوت المتراصة عبر ظلام بدأ ينحسر قليلاً قليلاً، ثم سُمع من مكان ما صوت الآذان، وكان يتلاشى هنا وهناك، حتى بدت الأشياء تُسفر عن أشكالها شيئاً فشيئاً، فبدت أخيراً كتلة سوق زبيّد المظلمة، التي تتوسط الحي، وكأنها قلعة بناها أقوام غرباء، بنوها لإخافة شيء ما.

* * *

(الله بالخير).

(الله بالخير).

قال عبد ربه:

(شولي.. ترى كل شي بقدرة قادر، هو يعطي وهو ياخذ، فلا اعتراض على الله).

(لا اعتراض حجي، بس هو شوّفنا ومنعنا.. سبحان الله).

لم تمرّ إلا ربع ساعة حتى امتلأت الغرفة بالمواسين، وانتظر عبد ربه حتى توزع أقداح الشاي، وقبل أن يبدأ حجي عنبر حديثه عن السياسة، علا صوت عبد ربه:

(* بسم الله الرحمن الرحيم.. يازكريا إنّا نبشرك بغلام اسمه يحيى* لم نجعل له من قبل سميا * قَال رب أنّى يكون لي غلام، وكانت امرأتي عاقرا، وقد بلغتُ من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئا * صدق الله العلي العظيم).

فقاطعه حجي برغال:

(بس شولي سمى الولد عباس ومافاد، لو مسميه يحيى جان أحسن).

فأجابه حجي عنبر:

(أنا ادري ياخويه.. هي كل شي بالقسمة.. ذولاك أنبياء قابل مثلنا).

واستأنف عبد ربه ليقرأ آيات أخرى:

(... وامرأتهُ قائمة فضحكت فبشرناها باسحق، ومن وراء إسحق يعقوب* قالت ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إنّ هذا لشيء عجيب...).

فسر عبد ربه الآية لهم فقاطعه حجي برغال:

(... بس صاحبنا جبير بالعمر ومرته زينة.. بَعَدْهَا بت).

فغمزه حجي عنبر، تدخل حجي اغليم وهو يخرج مغزله من جيب ثوبه:

(عود.. ليش السالفة الزينة ما النا قسمة بيها، إلا اتخربونها يالّه ترتاحون)، أخرج الجميع مغازلهم، وقال برغال:

(خو ما بيها احراج شولي، ترى أنا متوازي على هاي الخاجية كولت البعض عباية، أريد أخلص من صاحبها، كل يوم وجاينا وإلا بالغداء فلوسها راح تروح الغدياته)، ثم ظل أحدهم يسرد لهم الأخبار بصوت مشروخ: (يكول ابو « لندا» البريطاني: اكو اتفاقية راح اتصير بين العراق وإيران لضرب الأكراد وخصوصاً جماعة مصطفى البرزاني ترى أبو إيران هم عده أكراد مثلنا...).

قال عنبر: (سمعتوا الكواله شتكول بفاتحة نجم بن هليل لما جابوه مكَتول من الشمال: دهر صاب الكريّدي.. بيس باهل العماره... شلون تموت وانته من اهل العماره).

فاعترض عبد ربه: (ترى بالعكس أهل الشمال مثل أهل الجنوب هم حزب البعث امبيس بيهم...).

تنحنح اغليم: (لا تحبسنا حجي عبد ربه سولفو على الخواجي والعبي.. شو الصوف هالأيام غالي).

قال برغال: (أنا ادري.. يمكن يتهرب لـ«سرائيل»).

قال عنبر: (تدرون عبد الباقي أخذ بيت أبو عمار السفروه ليران).

قال عبد ربه: (هو لو ما ابنه بعثي جبير، ياخذ البيت من عباد الله.. يهجرونهم وياخذون بيوتهم).

رد اغليم: (يكولون راح يسوونه دكاكين، يمكن نغسل ادينا من سوكَنا راح يظل سجن للمكاريد الاكراد).

عندها دخل عليهم أبو رعد وسلم على الجميع وحيوه.

قال برغال: (هذا أبو رعد ويمه كل الأخبار).

قال أبو رعد: (بلهجة مختلطة بين الكردية والعربية: (احنا بخدمة حضراتكم.. خير إن شاء الله).

قال أحدهم: (... شنهو أخبار السوكَ راح يظل سجن وانظل نتسوك من السوك الجبير.. تعرف سيارات المصلحة وازدحاماتها).

قال أبو رعد: (والله الضباط ما يبلغون شي بهذا الموضوع).

قال عنبر: (ياجماعة ضاكت السجون.. وين يودون المساجين يجوز حتى المدارس راح اتصير سجون).

ولكي ينهي عبد ربه الموضوع الذي قد يتطور أكثر.. قال:

(ياله ياجماعة ترى راح يأذن).

قال حجي برغال: (ليش كل يوم نصلي ولشوكت نظل انصلي، هسه لو النبي محمد اروح إله فدوه، امطيح الصلاه للشياب لأن احظوظنا وركبنا طاحت من هاي الصلاه.. كل يوم انجيبها ونوديها).

فقاطعه زاير شولي: (استغفر الله.. شنهي هاي خاتمة السوء حجي الله يهديك).

قال برغال: (ليش ما ترضون، نبينا ويتوسطنا يم ربه، يالله خويه، يالله، نحجي على السياسة ما ترضون، نحجي على الدين هم تزعلون).

قال اغليم: (بعد كل سوالفنا تصير على «عبد الشط»، بس هم يكولون عبد الشط يعبد الشط وأنتم مثله لو يكولون شيوعي).

فأجابه برغال: (لا، راح يكولون... ولكم نحجيها هسة ونلوصها).

قال عبد ربه: (ترى إيران راح اتسقط الشاه، لأن الراحو لزيارة الإمام الرضا ـ ع ـ شافو المظاهرات بعيونهم).

قاطعه حجي عنبر: (أمريكا ما تقبل.. شلون يروح صاحبهم).

قال حجي عبد ربه: (يابه يامريكا، هيه الناس لو تركض ركضة وحدة على القصر تلحك أمريكا).

السلام عليكم، وردت الأصوات دفعة واحدة: (وعليكم السلام).

صافح عبد الباقي كل الموجودين في الغرفة وتوقف عند شولي:

(لا شولي ما نريدك هيج، لا تدنك للوكت.. صير زلمة زين).

فرد عليه شولي: (رحمة الوالديك هي منين تجي الزينيه).

وعندما جلس وجلس من في الغرفة لكز برغال اغليم فصاح اغليم: (الله ابو الخير ابو احمد).

ولم يكد يرد على اغليم حتى تعالت الأصوات واختلطت:

(الله.. الله.. بالخير بالخير الله).

وظلت جلبة الأصوات تتناوب فيما بينها، وكأنما هي أصداء تردّ على بعضها...

استغل برغال هذه الضوضاء، فهمس بإذن اغليم: (هو يعترف بشولي بفلس... بس هو جاي يشَمشَم أخبار).

قدم شولي الشاي إليه، وبينما كان يدير الملعقة بقدح الشاي، قال دون أن يرفع عينيه عن حُمرة الشاي:

(...شنهي برغال، شو لا العباية وصلتني، ولا انشوف واحد من أولادك بالعمل الشعبي..).

فأجابه برغال: (ليش، رفيق أحمد مو ابنك، وأنا اطيته عباية العام بالصيف جان رايد يطيها هدية للمسؤول مالته حتى يصعده شويه بالحزب، وأنت يا أبو أحمد مو صرت مقاول.. وما شاء الله تبني مدارس وبالعمل الشعبي.. ليش بعدك تلبس عبي.. إلبس بدلات مثل الأفندية).

فردّ عليه قبل أن يرتشف شايه: (من أعرس عود ألبس مثل ما تريد).

فتدخل حجي عنبر: (يابه دَعرس ويصير خير.. نبنيلك المدرسة كلها بالعمل الشعبي).

رفع صوته أعلى ليلفت أنظار الجالسين لحديثه، وليُسكت الأصوات التي كانت تُبسبس فيما بينها: (ها.. عبد ربه شنهي أخبار علي؟ ما كو خبر.. مناه..مناه؟).

فأجابه بصوت أعلى: (ليش هُمه كَالونا وين أخذوه، شو صار كتله عمل شعبي كَبل ما يحققون وياه... الظاهر كله عمل شعبي حتى الجلد الحبس والاعتقال).

(على كيفك ويانا لا تفوت زايد حجي.. جم مرة كتلك ياحجي ترى ابنك خطر، يمشي وي ناس عليهم مؤشرات.. وصحيح ابني بالحزب، بس مع ذلك ترى نصحه كاله ولك تعال وياي للحزب وصير بعثي، بس

ضحك على ابني.. يكَله طريقك أنت غلط.. صحيح هم جانو على فرد رحلة بالمدرسة، بس ابنك جان يصلي ومتدين حيل، وأحمد ابني كاله ولك صلي بس لا اطوّخها بس ما فاد وياه).

قال عبد ربه: (شيفيد بعد العتاب الراح راح والصار صار).

فقاطعهم اغليم: (بس أنا شفت الريس بعيني يصلي.. جا هي الصلاة ما ممنوعة).

قال عبد الباقي: (أنت تعرف شي.. والحكومة تعرف شي).

فقال برغال: (والله لو الحكومة تمنع الصلاه اتسوي علينا فضل.. مايصير هيج.. خوت روسنا من الصلاه.. الله أكبر.. الله أكبر.. وكل يوم ورحم الله من عادها).

فقال عبد ربه: (خو.. انته ما صدكَت يمكن عدك ثار وي الصلاه...).

وعندما يخرج الرجال ويودعهم زاير شولي، وتهدأ الأصوات الهامسة، وقبل أن تخرج النساء من البيت تلقي بعضهنَّ نظرة على أثاثه:

(خيه.. الله يستر، البيت جنه مهجور، بس هذا الكاونتر منين جايبته تسواهن).

فتجيبها الأخرى: (ترى.. هذا مال أم عمار السفروها لـيران.. أم عمار خلته عدها كالتلها إذا رجعنا من إيران آخذه، وإذا ما رجعنا الله والعاذرين).

فأجابتها: (خطية جانت حبابة.. الله يساعدهم، سفروهم حتى ياخذون بيوتهم...).

فقالت الأخرى: (بس لا يسفرونا، يكولون انتم أصلكم من الشمال من الموصل مدري منين، كاموا الما يعجبهم يطردونه، الله يستر منهم، ادوره زلمنا لا يجتمعون بلحزب ولا يشتغلون عمل شعبي وي البعثيين).

فقالت: (ولج اسكتي ترى احنا طلعنا بالشارع..).

* * *

«إنها لا تولد، إنها تموت» قالها بلغته الكردية في الوقت الذي كان فيه أبو رعد حائراً.. كيف ينقل المرأة الكردية السجينة إلى المستشفى في هذا الليل، فهذا الأمر يحتاج إلى موافقات أمنية، قد تستغرق أسبوعاً، لكن عليه أن يخبر الضابط، فيخشى أن تموت المرأة أثناء المخاض، فيتعرض إلى المسائلة القانونية، لكن كيف يتصل بالضابط في الليل، فربما سينـزعج ويغضب فينقله إلى مكان آخر بعيداً عن عائلته...

ناقش بقية الحراس الموزعين على أبواب السوق، فأخبروه: إنهم مجرد حراس، وغير معنيين ببقية الأمور التي تحدث للمساجين.

اختلطت ثلاثة أصوات في أُذني أبي رعد، أقواها الريح التي كانت تعصف في جوانب السوق (السجن)، وصوت المرأة التي كانت تطلق أصوات الاستغاثة من المخاض العسير، وهدير سيارات كانت تقترب... امتدت يَد أبي رعد اليمنى إلى مسدسه ليتأكد من وجوده، بينما امتدت الأخرى إلى المصباح اليدوي، إذ أن الكهرباء كانت قد انطفأت منذ ربع ساعة أو يزيد، ظهرت أضواء السيارات وهي تلتف ناحية السوق (السجن)، نبّه بقية الحراس بصافرته التي انطلقت بثلاث مرات متتالية

علامة للخطر، انمحى كل مافكر به بظهور السيارات، ونسى أمر المرأة التي تولد وبقية المخاوف الأخرى، اتجه نحو السيارة البيضاء التي كانت تقود القافلة، أدى التحية فلم يجبه الضابط إلا بصوت صارم: (.. بسرعة أبو رعد افتح السجن وصعدوهم بسيارات الإيفا)..

ركض أبو رعد، فاهتز كرشه وصلصلت المفاتيح الكثيرة التي كان يعلقها في حزام بنطاله الهائل الحجم.

انفتح باب السوق على مصراعيه، فظنت النساء الكرديات أن هذه السيارات أتت لنقل المرأة التي تولد، اندفع وراء أبي رعد رجال الأمن، فأيقظوا العوائل النائمة في دكاكين السوق ركلاً بالأقدام، واقتادوا العجائز والشيوخ وبعض الفتية، أصعدوهم بالقوة، فقد وقف اثنان من رجال الأمن لرفع السجين أو المسجونة لرميه داخل السيارة، حتى امتلأت السيارات الخمس بالمعتقلين، وقد صار الواحد فوق الآخر، ألقى الضابط نظرة على السيارات التي امتلأت بالمعتقلين، يرافقه مجموعة من رجال آخرين من حزب البعث بزيهم المعروف باللون الزيتوني، قال الضابط: من خلال صرير محركات سيارات الإيفا: ـ لم تنسوا أحداً في السوق.

فأجابه أبو رعد: كلهم في السيارات الآن سيدي.

غادرت السيارات، ومعها غادر الفصيل الذي كان يحرس السوق، وظل أبو رعد وحيداً يقف أمام السوق، وكان أكثر حيرة وقلقاً من ذي قبل، قال بصوت مسموع لنفسه وبلغته الكردية: أين سيأخذون هؤلاء المساكين الآن؟! وأنا ماذا سأفعل؟... هل سيتم نقلي إلى مكان آخر؟

أطفأ مفتاح الكهرباء الرئيس ـ كما يسميه ـ برغم أن الكهرباء كانت منطفئة، وربما عرف الآن لماذا كانت الكهرباء مُنطفئة، وظل لدقائق أُخرى يجلس على كرسيه في الخارج، فتذكر أنه لم يغلق الباب بعد، فمخاوف من هذا النوع لا تزال في نفسه، برغم أن السجن أو السوق كان خالياً من عوائل الكُرد... خُيّل إليه في البدء أنه سمع صوتاً ما، فامتدت يده لا إرادياً إلى مفتاح الكهرباء، وفي اللحظة التالية لم يسمع شيئاً، فأغلق باب السجن، ومن بين صليل المفاتيح.. بدا صوت بكاء لطفل رضيع لأذنيه واضحاً، فأصغى إليه لفترة، وكأنه يريد لخلاياه أن تتأكد من آدمية هذا الصوت، ومثل المرة السابقة، امتدت يداه: اليمنى إلى المسدس، بينما اليسرى إلى المصباح اليدوي، الذي يغيب في جيب بنطاله العريض، وظل مصغياً لفترة يراقب الوضع، ثم وجه مصباحه من خلال قضبان الحديد، فلم تطالعه سوى أبواب الدكاكين الموارية، التي كانت قبل قليل مكتظة بالأجساد الشاحبة، لعوائل تخشى من صلصلة المفاتيح وصرير الأبواب وخطى أحذية الحراس.

تردد قليلاً.. ثم فتح الباب، لأنه يعرف أن هواجسه لن تسمح له بالنوم إلا إذا تأكد من الأمر، ففتح أقفال الباب، وكان صراخ الطفل يتعالى كلما تقدم أكثر، فتوقف وأراد أن يعود لغلق الباب من جديد، فكأن ما يجري له يحدث في الحلم، وتمنى أن يعود التيار الكهربائي الآن ليبدد بنوره المخاوف، تصاعد صراخ الطفل عالياً بحيث كأنه يلحّ عليه ويلحّ، حدد الدكان الذي يأتي منه الصراخ، وكانت هناك أغطية تُركت في أرضية الدكان، ومن خلال ضوء المصباح اليدوي كشف عن وجه الطفل المغضن بالدماء، وبتقزز وبقشعريرة عمت

معظم جسده لفّ الطفل وحمله، وكان صوت صراخه يتعالى، وقد ملأ أرجاء السوق.

استهلكت (أُم رعد) كل حيلها لإسكات الطفل بفشل، وظلت ساهرة الليل بطوله، وفي الصباح ذهب أبو رعد إلى مديرية الشرطة ليخبرهم بأحداث ليلة أمس.. ويسألهم: هل يبقى حارساً لسوق زبيّد بعد الذي حدث؟ ومن هناك سيذهب إلى السوق الكبير، لإحضار حليب للطفل، ولمّا رأى الناس متجمعة قرب سوق زبيّد، تجنبهم خوفاً من أن يسألوه عن مصير عوائل الكُرد.

عاد عصراً مُتعباً.. وتمدد على الكنبة قائلاً: (أم رعد الحكيلي ترى راح أهلك من الجوع).

قالت أم رعد: (شنو أبو رعد ما فكرت بالطفل مو راح يموت من الجوع غير اتجيب حليب وتجي بسرعة).

(هذا الحليب، بس أنا راح أموت من الجوع مو الطفل).

وأثناء ما كان يأكل جلست قربه أُم رعد قائلة: (يعني هو الطفل من يطلع من بطن أمه لازم يصرخ.. يبجي اشلون ما سمعتوه؟!).

فقال أبو رعد: (والله ما أعرف، وإذا أنا ماسمعت ليش الحراس ماسمعوه... بس يمكن هذا بلاء من الله، لو الله كاتب لهذا الطفل حياة...).

قالت أم رعد: (يُمه.. ليش راح يعدمون العوايل).

ـ (شكلج.. كلشي ايصير).

صمتت أم رعد وهي تحاول إيجاد الصيغة المناسبة لإقناع زوجها، فأحيانا يصرّ على الرفض بلا أي سبب مقنع، ثم قالت:

(أنت سمعت بتسواهن مرة شولي.. مو ابنها طلع ميت من بطنها).

ـ (ايه وأنا رحت قبل ايام لمواساتهم...).

قالت بتردد: (شد كَول إذا أنا رحت البيت شولي وفتحت موضوع الطفل.. على الأقل تكدر ترضعه تسواهن...).

قال أبو رعد: (يعني ننطيه إلهم ونخلص.. بس هذا يصير).

قالت أم رعد: (احنا العرب ايصير عدنا كل شيء.. بلعكس راح يفرحون أما انتو الأكراد فما أعرف...).

قال: (المشكلة إذا سمعت الحكومة شراح تسوي بينا، لو هم يغلس الضابط وجنا ما يدري، إيه بس قابل الطفل فدائي من البيش مركه.. هو طفل).

* * *

تمرّ الأيام، ولكن لا معنى لها في مخيلة الناس، المعنى في الحوادث التي تقع، فلم تمرَّ سوى أيام قليلة من ولادة تسواهن لابنها الميت، حتى اختفى الأكراد فجأة من سجن «سوق زبيّد»، فاختلطت الآراء في اختفائهم، وفي هذه الأيام ايضاً استدعت السلطات حجي عبد ربه، وظل لنصف نهار هناك، كان للقلق عصفه وهياجه في رؤوس أهله، ثم جيء به مع تابوت ابنه علي، انتشرت في منطقة سوق زبيّد رجال الأمن لأسبوع،

وما إن رحلت هذه القوى، حتى بدأ الجيران بالتوافد على بيت حجي عبد ربه، وبدأت الناس تَسمع النواح...

قال عنبر: (رحم الله من قرأ الفاتحة).

وظلت الأصوات تُبسمل وتختلط بألفاظها، وتخرج كلمات مثل (الرحمن)، ولتظهر عبر صوت آخر وتظهر كلمة أخرى...(ولا الضالين).. لكنها تبتر أو تختلط معها كلمات أخرى مثل (... نستعين)، وكأنما تحاول أن تمحوها ثم يسعل أحدهم، ويمسح وجهه بيده الناتئة العروق، ويقطع ذلك صوت عبد ربه بكامل حزنه ووقاره «الله بالخير» فَتختلط الأصوات وهي ترد بنبرات مختلفة «الله بالخير» ويتنحنح أحدهم ثم يفتتح الحديث:

ـ (حجي البقية بحياتك هذا أكثر ما نكَوله).

ـ (حياتك الباقية)، رد عبد ربه بانكسار.

قال اغليم: (كواك الله حجي، يكولون منعوك من الفاتحة، وحتى دفعت افلوس الرصاص العدموا بيه ابنك).

رد عبد ربه بغضب: (شنسوي وليه مال مخانيث، بس اسكت يا خويه لا تلجم الجروح البعدها خضرا).

قال أبو رعد بلهجته الغريبة: (إنا لله وإنا إليه راجعون).

قال برغال ماداً صوته بحزن: (وهذا عبد الباقي هم راواك وجهه).

قال اغليم مقلصاً صوته بحرقة: (هو محد يعرفه غير زاير شولي، مو جان وياه حارس بمعمل الورق، جان يترك شولي الوحده بالليل، لأن

جان يخاف من الطناطل، وهسه سوى روحه مناضل، واستغنى بسم الحزب وينافق على هذا وعلى ذاك).

همس حجي عنبر: (حجي ذكروني بشولي.. تدري صاحبنا زاير شولي صار عند ولد).

فزَّ حجي عبد ربه عند سماعه هذا الخبر قائلاً: (شلون!؟).

(والله شكلك حجي هو هسه عده ولد، أما اشلون بس الله يدري).

فقال اغليم الذي كان يلوي رقبته ليسمع الهمس الدائر: (لا خويه يمكن الطفل كردي عدموا أهله، وحتاروا وين ايودونه فطوه لهذا المسكين).

فاخرج أبو رعد سبحته الصفراء وراح يفركها بكلتا يديه بقلق.

فقال برغال: (وسمعنا غير هذا الحجي يكولون ذبته مره محد يعرفه، دكت الباب بالليل والكهرباء طافيه، وطته لـ«تسواهن» وركضت بالظلمى... المهم هو عده ولد وهسه خايف أكثر مما فرحان).

قال حجي عبد ربه: (سبحان الله، مثل قصة نبي موسى، من خلوه بكفه مال خوص، وخلو مجرى الماي ياخذه ويذبه على عائلة فقيره...).

قال حجي عنبر: (شلون حجي رحمه لبوك).

قال حجي عبد ربه: (والله ياخويه مالي خلك اسولف.. تعذرني).

قال بعضهم: (معذور حجي) واختلطت الأصوات فيما بينها.

فقال برغال: (عاد.. شولي هم واساك لا؟).

فأجابه اغليم: (مو أنت تدري كلش زين خوف زاير شولي من

الحكومة، من أهد ما سجنوه سبوع قبل سنتين، وهو ما عده غير الحكومة تدري بكل شيء، والحيطان إلها أذان).

فقال عنبر: (عمي صدك الحيطان عدها أذان).

وراح يسرد بعض الحوادث التي حدثت لأقاربه... وتوسعت الأحاديث واختلطت الأصوات، تحكي عن السجون والتعذيب والإعدام والتسفير، وعن سجن بعيد في وسط الصحراء، لا يمتلئ أبداً، إنه سجن (نكرة السلمان)، حيث الذئاب تنتظر الفارين من السجن، أما الناجين من أنياب الذئاب فتقتلهم أنياب العطش، فتخيل بعضهم أمواج الرمال تتلاطم حول قلعة كان يخفيها السراب، وتُصفِر حول جوانبها الريح.. تحرسها العقارب والأفاعي والذئاب، وحيث المساجين في حفرة تدور وتدور عكس عقارب الزمن.

قال أحدهم: (بس أكلكم هم سمعتم خبر عن الأكراد.. وين أخذوهم.. ما وين؟).

فاستدارت الرؤوس نحو أبي رعد.

قال عنبر: (خويه.. أبو رعد هم كلنا شنهي.. ما شنهي؟).

هز أبو رعد رأسه وقال: (ما أدري احنا شرطة، والضابط ما ينطي خبر، ينطي أمر، وأنا عبد مامور).

قال اغليم: (لا عيني، نكَرة السلمان ما تشبع، أكلت الشيوعيين وراح تاكل الأكراد).

قال عبد ربه: (إذا خلوهم بالنكره كلش زين، خاف يدفنوهم بمقبرة جماعية وأنتم تعرفون بعد...).

قال برغال: (اكَلكَم هي صدك نكَره لو هم اله سالفه).

قال عنبر: (احجي ضد الحكومة وراح تعرفها زين).

ومن داخل البيت، بدأ بكاء النساء يعلو على أحاديث الرجال... تنوح إحداهنَّ بصوت حزين، ليعلو على نواح تتشارك فيه جميعهنَّ، لكن صوت أُم علي كان الأكثر حزناً، وهي ترثي ولدها(من بعيد أومينا استدرنا يمه يمه)، فتجاوبها أُم نجم الذي قتل في شمال العراق قبل أشهر أيضاً.

(ليش إعلى المصايب نون بسكوت.. تطيح دموعنا مثل اليطيحون).

فتختلط الأصوات مع بعضها بأنين واحد (أوون..أوون.. يُمه يُمه...)

* * *

تعلم أسمر الرسم من مصدرين، الأول: من أمه تسواهن، والثاني: من كتاب بلا غلاف، انتشله شولي قبل أن يحولوه إلى عَجينة ورق في معمل ورق العماره، الذي كان شولي يعمل حارساً فيه، وكانت السلطات تتخلص من الكتب الخَطرة ـ كما يسمونها ـ أو الممنوعة.. حيث ترسل من مصادر مختلفة إلى معملَي البصرة والعماره، وكان العمال والحراس يتحينون الفرص لإنقاذ الكتب من المَعصرة، أما المصدر الأول الذي علم أسمر الخط والرسم، ذلك عندما كان يتابع بإصبعه، خطوط النسيج الملون التي ترسم أشكالاً غريبة على السجاد، الذي تنسجه أمه تسواهن مع إحدى جاراتها، حتى يتعب وينام على النسيج، وتُكوّن مَضارب الحياكة وهي تُرص خيوط النسيج الملّون، بضربات طَربة مثل دفوف تسمع من بعيد.

قالت تسواهن: (أنا ما أحب هاي النُكَوش، أحسها تخَرب السجاده.. قبل الحرب جانت أحلى.. هسه صارت صواريخ وطيارات حربيه...).

قالت روسيه مرة اغليم: (تتذكرين.. سجادة الرفيق عبد الباقي اللي يريد يكتب شعار الحزب بيها، كَلناله: مانكَدر صعبة الكتابة، كَالنا:غصباً عليجنّ وأريده واضح بنص السجادة، واطانا ورقة مكتوب بيها مايريده).

قالت تسواهن: (شنسوي هاي عيشتنا وهذا رزقنا).

قالت روسيه: (يا.. شوفي الولد شلون نام على النسيج!).

وأضافت: (ليش سميتوه أسمر وهو مثل الكَمر).

قالت تسواهن: (خيه من الحسد.. شنسوي).

قالت روسيه: (خيه.. الله يستر.. شفتي «وبرية « مرت برغال اشصار بيها من جابو خبر ابنها كاظم متأسر بـإيران).

قالت تسواهن: (يكولون سلم على أهله بالراديون وعلى كل الناس بسوك زبيّد).

قالت روسيه: (هاي الحرب اتخوف، واغليم أخذوه للجيش الشعبي.. وهو نهار كله يحجي على الحكومة ما يكدر يلزم إلسانه).

قالت تسواهن: (بلكي تنتهي الحرب هاي السنة، مو انترست المكَابر بالشباب، ايجيبونهم ملفوفين بهالعلم الأبكع.. هيجي ابلاش).

قالت روسيه: (أتذكر حيدر بن عنبر من جابوه ملفوف بهذا العلم).

قالت تسواهن: (خيه.. هو بس حيدر.. راحوا آلاف من الشباب.. هيجي هدر بدر).

Telegram: @Arab_Books2

عندما نجح أسمر الأول على صفه، منتقلاً إلى الصف الأول المتوسط، انتهت الحرب العراقية الإيرانية، وكان ذلك عام 1988، ثم بدأت حرب الأنفال ضد الكُرد، إذ استخدم الحرس الجمهوري أسلحة كيمياوية فتاكة وشاملة ضد الكُرد، دُمرت فيها مدينة حلبجة وراحت كأضحية للأكراد.

ومضت بعض الشهور، وعاد بعض الأسرى من إيران، وسُرحِّ الجنود عبر دفعات، وتنفسَّ الصعداء كل من نجا من حرب الثمانية أعوام.

* * *

(*قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الُجب يلتقطه بعض السيّارة إن كنتم فاعلين*).

كان صوت القارئ وليد الفلوجي يملأ السرداق ويمتد إلى أطراف الحي بسورة يوسف، ولكنه لم يمنع صوت اغليم من فتح الموضوع مع الرفيق عبد الباقي:

(يابه.. أبو أحمد ترى أسمر الملطّم موهو إللي كسر صورة الريس، واسأل علاء ابن ابنك.. كله جدي يا هو كسر جامة الصورة؟ وهو راح يكلك).

أرتجف شارب عبد الباقي المصبوغ للتو قائلاً:

(اشتقصد اغليم بهذا الكلام يعني الحزب ظلم أسمر!؟).

قال اغليم: (بس القضية تركبت براس أسمر بن شولي، لأن لا أحد ولا ماحود الهذا الولد، وهسه انفصل من المدرسة وفوكاها مطارد).

حاول عبد الباقي أن يغيّر الموضوع: (بالله فُكنا من هاي السالفة إلما إلها معنى وكَلي.. أهل المرحوم عنبر.. حسبوا هذا اليوم من الفاتحة لولا؟).

قال اغليم: (والله شكلك يابو أحمد أشو أخوان المرحوم كل واحد إله راي، واحد يكول هذا اليوم الاول والآخر يكول الفاتحة هذا اليوم الثاني، هي راح تصفى الوحدها.. هسه خطية لو ابنه حيدر ما مكتول بحرب ايران).

قال عبد الباقي:(لا تكول خطية، ابنه شهيد ضحى بروحه من أجل الوطن والقيادة).

ولما ترك عبد الباقي سرداق الفاتحة الذي أغلق الشارع المؤدي إلى سوق زبيّد، جاء اغليم وجلس بين شولي وبين برغال وصفق يداً بيد قائلاً:

(يابه.. فتحت موضوع أسمر ابنك، وترى الزلمه ما وراه جّاره، قافل لا ياخذ ولا يطي، كلساع ويغيّر الموضوع).

قال شولي: (طبعاً.. مو هو علاء ابن ابنه أحمد اللي كسر جامة الصورة، اشلون تريده يفتح الموضوع).

قال اغليم: (يابه.. هسه لو تاخذ ابنك، وتروح لمدير الأمن مال العماره، وتكَله هذا ابني أسمر المصخم مو هو إلي كسر جامة الصورة مالت الريس، وتخلي أسمر يحجيله السالفه كلها.. اششرايك؟).

صمت شولي وهو يتخيل شوارب مدير الأمن الصفراء ترجف عندما يدخل عليه ويسلم ابنه بيده.

قال برغال: (لا خويه لا أنت منو كلك ماهذا عبد الباقي ما موسط، وما موكل مدير الأمن لُكَمة جبيرة، حتى يسد حلكة وحلك السالفة كلها.. ليش هو مدير المدرسة مو نقلوه على خالي بلاش، وحققوا وياه يومين مدري ثلاث، ليش هو كال الهُم أسمر الكسر الصورة لو غيره، وليش الطلاب مو كَالوا، محد يدري بهاي الصورة، وظلوا ساعات بالأمن والكيبلات تصعد وتنـزل على إظهورهم، بس هُمه لازم يسدون القضية، ويدورون على كبش الفداء مثل ما يكول حجي عبد ربه ويرتاحون).

قال شولي: (وَصلته للصف الثالث متوسط، وهو أشطر واحد بين صحبانه، وهسه مفصول وفوكاها يردون يحبسونه.. مدري يعدمونه على خالي بلاش).

ظل برغال مشغول البال وهو يبحث عن عبد ربه ليسأله عن (السيّارة) التي أخذت النبي يوسف من البئر، وقال دون أن يسمعه أحد بسبب ضوضاء حدثت في السمّاعة التي تنقل صوت الفلوجي وهو يرتل عن زليخا وقميص يوسف وعن السيّارةَ: (شنهي هاي.. جا كبل اكو سيارات!!).

وفجأة طوّقت قوات الأمن سرداق فاتحة المرحوم عنبر، وبدأت عملية تفتيش على كل الموجودين بالفاتحة، ومركّزين على الشبان الذين يقدمون الشاي للمعزِّين.

كان هذا، في الوقت الذي وصلت فيه تسواهن إلى سامراء، مع ابنها أسمر وزارت الإمامين والمأذنة الملوية، قبل أن تذهب إلى بنت خالتها المتزوجة من فلّاح هناك...

كان هذا الفلّاح متزوجاً حسب الشرع الإسلامي من أربع نساء،

يعملنَ في حقله، هنّ وأبناؤهنّ وبناتهنّ، بينما هو يجلس في سيارته (البيك آب)، مرتدياً ثوبه الأبيض النظيف، وكوفيته البيضاء وعقاله الأسود المشعّر، ويراقبهنّ عن بُعد، وهو يلف مسبحة الكهرب العسلية على أصابع يده، ثم يفلتها فيحدث هسيساً يبعث اللذة في نفسه، وقبل أن تغيب الشمس وحسب مزاجه، يضغط على زمّار السيارة مُعلنا انتهاء عمل اليوم، فيصعدنَ جميعهنَّ في حوض السيارة الخلفي، ويعود بهنّ منهكات إلى بيته، وتعرف إحداهنّ جيداً أن دورها هذه الليلة.. فتهيئ له عشاءً جيداً وتعد فراشاً نظيفاً ومعطراً وتستحم وتهيئ نفسها، ليأتي لها مثل الضيف، ينهي ليلته معها، ويتحول في الليلة القادمة على من يأتي دورها وهكذا...

تردد هذا الفلاح من قبول الصبي بين نسائه، لكنه فكر بتعليمه سياقة التراكتور، وأعمالاً أخرى، فكان أحياناً يضطر لتأجير عامل ليقوم بهذا العمل، وخلال أسبوع واحد، أتقن أسمر قيادة التراكتور وقيادة سيارة البيكب، وهذا الشيء أعطى للفلاح حرية أكثر، وأعطى لأسمر شرعية تواجده بين أفراد عائلة الفلاح.. كان على أسمر أن ينام في غرفة الضيوف، وكل شهر أو أكثر كانت تسواهن تأتي لزيارة ابنها، وتعود بعد أن تنقل لابنها ما يحدث في سوق زبيّد، وكان الخبر الأول الذي نقلته هو «موت برغال»، قالت وجدوه ميتاً على سجادة الصلاة في الفجر.. فتذكر أسمر: كيف كان برغال يستهزئ بالصلاة وهاهو يموت على سجّادتها.

كان العمل قاسياً على أسمر في الشهر الأول، حتى إنه شحب لونه ونحل أكثر، ولكنه بدأ يعتاد على جَنْي وحوي المحاصيل الزراعية، والأعمال الأخرى المكلف بها.

عندما جاءت أم أسمر أخبرتها بنت خالتها عن سلوك المرأة العاقر وهي أكبر زوجات الفلاح: (ولج ترى هاي المره تكول أسمر ابنها تخبلت ما دري شبيها...)

قالت أم أسمر: (خطية.. ما عدها ولد خليها تعطف على نفسها...).

قالت بنت خالتها: (خيه.. ما تخافين على أبنج خاف تاخذه منج).

قالت أم اسمر: (شلون تاخذه مني هو قابل مايفتهم وما يعرف أمه).

كان المانوي في هذا الوقت قابعاً في نفس أسمر، يحادثه في بعض الأحيان ويهمس في نفسه: لا تنسَ الرسم.. لا تنسَ مخطوطة النبي ماني، اقرأ، تعلم أي شيء... وهذه المحادثات هي من جعلت أسمر أن يتجرأ ليكلم الفلاح، ثم يذهب بعد ذلك معه إلى مكتبات سامراء، ويشتري منها بعض الكتب، وراديو نوع «سوني» صغير يعمل بالبطاريات يستمع منه لأخبار «راديو مونتكارلو»، ويستمع لبعض البرامج الثقافية الأخرى.

وبعد ان تأخرت اكثر منشهرين جاءت أمه مهمومة أكثر، والدمعة ترقرق في عينيها، ولم تستطع أن تسيطر على نفسها، قالت: (أبوك مات، صار اله أكثر من أربعين يوم، بس ما ردناك تجي حتى لا يلزموك الأمن).

ولطمت خدها بعنف، احتار أسمر ماذا يفعل، صمت، وكانت دموعه فقط هي من انسابت بلا بكاء.

أخبر الفلاح بالأمر، وذهب في الصباح مع أمه إلى مقبرة النجف.

عاد أسمر من مقبرة النجف حزيناً، وبدا مهموماً، وكأنما بوفاة أبيه ماتت طفولته ودفنت مع أبيه في مقبرة وادي السلام، بدأت الأمور

لمخيلته تأخذ طابعاً آخر، وكان ينعزل في الحقل وحده بعيداً عن بقية العائلة، ويعمل بصمت، لكنه كان يكلم النبي ماني ويصغي لبعض أحاديثه، صار أكثر إيماناً بوجوده في نفسه، فكان في البدء لا يبدأ بالحديث معه إلا أذا بدأ المانوي بالكلام، وعرف أيضاً، إن الصوت الذي يدوي أحياناً في رأسه لا يسمعه أحد غيره، تعلم فنون الرسم القديم وخلطات الألوان أيضاً، لكن أكثر ما يجيده هو الرسم بإصبعه على التراب أو الرمل، رسم في البدء أباه شولي، وهو جالس يغزل متأملاً الخيط الرفيع الذي أهمله أسمر في لوحته، وكأنما كان يغزل بخيوط لا مرئية، ثم رسم أمه وهي تبكي على قبر أبيه شولي، لكنه أهمل أيضاً الدموع وبدت عيونها في ألوانه المصنوعة من التراب الملون، وكأنها لطخات تنصهر أو تسيل ملوثة تغضنات الوجه، ثم بدأ يرسم الحقول، ورسم الفلاح وهو يزجر زوجته العاقر، ملوحاً بسبحته «الملظومة» من الكهرب العسلي في وجهها، ثم رسم الصغار كيف يعملون تحت الشمس، وكيف تلفّ النساء وجوههنَّ وأيديهنَّ بالأقمشة، فتبدو المرأة مثل المومياء في القبور الآثارية، كان يُخبئ كراس الرسم تحت وسادته في غرفته الصغيرة المصنوعة من الطين، التي بناها قرب غرفة المرأة العاقر بعد موت أبيه، عندما قال للفلاح:

إذا لم تبنِ لي غرفة صغيرة سأترك العمل معك وأعود الى العماره، فقال له الفلاح: ابنيها أنت من الطين إذا كنت مصراً على ذلك، ساعدته المرأة العاقر بجلب التراب، وعمل منها خلطة جَبلَ معها التبن، وتركها لفترة حتى تختمر بالماء، ثم جَلب سعف النخيل، وجعله سقفاً وطلاه من الأعلى بالطين.

وفجأة.. غزا الدكتاتور دولة الكويت، وأعلنها المحافظة العراقية رقم 19، كان هذا في مطلع شهر آب1990، فأصيبت الناس بنكسة جديدة... ونتيجة لذلك بدأ الحصار الاقتصادي الذي فرضته الأمم المتحدة على العراق... وبدأت الأسعار ترتفع، فارتفعت معاناة الناس إلى أقصاها، حتى عرضت الناس أثاثها للبيع، فاضطرت تسواهن أم أسمر أن تبيع «كاونتر» المطبخ الذي تركته لها أم عمّار التي سُفرت إلى إيران.

رفضت تسواهن أن تأخذ أجرة العمل الذي يقوم به أسمر نقوداً، قالت: النقود لا تنفع، لا قيمة لها، أريد قمحاً وشعيراً، أطحنه في مطاحن العماره، سلم أسمر لأمه لوحات الرسم وقال لها: سلميها إلى النحات أحمد البياتي مدرس الرسم.

وعندما التقت بالنحات أحمد البياتي وسلمته مجموعة الرسوم، سألها البياتي عن أسمر، بكت واكتفت بالدموع قال لها: ـ ماذا تعملين الآن؟

قالت: (... أنا هسه أسوي تنانير طين وأبيعها لو أبدلها بحنطة... حياكة السجاد ما تنفع بهذا الوكت.. الناس محتاره بَعيشتها، ومحد يشتري السجاد بعد...).

وعندما ذهبت تأمل قامتها وراح يخطط لتمثال كبير لها، ويسميه باسمها «تمثال تسواهن»، والذي شمخ فيما بعد بإحدى حدائق منطقة الماجدية، واضطر البياتي أن يتحايل على سلطة البعث آنذاك، وأفهمهم أن «تسواهن» هي المرأة التي قاتلت الإيرانيين في أهوار الحويزة، فوافقوا على نصب التمثال.

* * *

Telegram: @Arab_Books2

وجاء شتاء عام 1991 القاسي، حيث كانت قوات التحالف تعدّ العدة فيه لاقتحام الكويت وطرد الجيش العراقي منها، ودول العالم كلها مشغولة البال بحدث من هذا النوع، إذ أنَّ ثلاث وثلاثين دولة اجتمعت لتحرير هذه الدولة الصغيرة من قبضة صدام.

وفي أحد الليالي، اشتعلت سماء بغداد بنيران متبادلة من الطائرات المُغيرة والمقاومات الأرضية للجيش العراقي، وما إن حلّ الصباح الذي ماتت بعده الكهرباء والاتصالات وانقطعت الجسور، وتسارعت الأحداث بشكل مضطرد، وتهدمت البنى التحتية للبلد تحت ضربات صواريخ كروز.

تشنجت النداءات بين المستغيثين من الجيش العراقي، لانقطاع الأمدادات كافة عنهم، وقبل أن يبدأ الهجوم البري انسحب الجنود، واستسلم بعضهم، ووصل بعضهم إلى البصرة مشياً على الأقدام، تحت رحمة صواريخ طائرات الجكوار والشبح وقاذفات p52.

ومثلما انسحب الجنود من الجبهات انسحب أسمر من حقل الفلاح وودعه وودع كل أفراد أسرته، ما عدا المرأة العاقر التي رفضت أن تقتنع برحيل أسمر منها، وقد خشى الفلاح أن تذهب زوجته الأولى إلى العماره فوعدها أن يعطيها أي ولد تختاره من ابنائه.

كان غضب الجنود شديداً لزجهم في حروب لا طائل منها.. حروب غير متكافئة وبلا معنى، فأثارت ضحكة الرئيس بصورته الكبيرة ذات الثلاثة أمتار، المثبتة في «ساحة سعد» في البصرة، غضب قائد دبابة(تي72) روسية الصنع، فوجه مدفع الدبابة نحو الجدارية الكبيرة

فاخترقتها هذه القذيفة فضاع من اللوحة رأس الرئيس ورتبته العسكرية الفخرية التي منحها لنفسه بمرسوم جمهوري، وكانت هذه القذيفة إيذاناً بثورة عمّت معظم مدن العراق الجنوبية، وقفزت إلى مدن الشمال الكردية، وعرفت هذه الثورة بالانتفاضة الشعبانية أو انتفاضة 1991.

وما إن وصل أسمر إلى مدينة العماره حتى بدأت الانتفاضة الشعبانية، وكان يُرى بين المنتفضين بلثامه وبندقية الكلاشنكوف التي يعلقها دائماً على كتفه...

لكن الانتفاضة قُمعت، بعدما توقف جيش التحالف عند الحدود العراقية، ولم يزحف إلى بغداد لإسقاط النظام مثلما كان مخططاً له، فأصيبت الناس بخيبة أمل أخرى كبيرة، مات بسببها حجي عبد ربه غماً وكمداً.. وظلّ اغليم وحيداً، لا أحد يردع الوحشة التي سيطرت عليه وأصمتته، وبينما كان يحلم ذات ليلة بإحدى جلساتهم القديمة ضحك على نكتة ألقاها برغال، ولكن ضحكته استمرت طويلاً حتى مات من الضحك أثناء الحلم.. فمات في الواقع.

Telegram: @Arab_Books2

الفصل السادس

بعد أن نفذ أسمر وصية صديقه البدوي، وقتل الإرهابي السادس والأخير على ساحل البحر الميت في غور الأردن، ثأراً لعائلته وثأراً لابن البدوي، مكث هناك لعامين عاملاً في أحد دكاكين جبل عمان بانتظار الفرصة للخروج من الأردن، ولمّا عثر على المهرب (خلف المهربجي)، عاد إلى العراق في يوم بارد وممطر من شهر شباط من عام 2007 ولسوء حظه.. وفي هذا الشهر نفسه بدأت الحكومة خطة فرض القانون لبسط الأمن في البلاد، فَنشرت صور المطلوبين للعدالة قريباً من سيطراتها العسكرية.

شقّ أسمر طريقه في صحراء طريبيل مع شلة من العراقيين ممن لا يمتلكون جوازات سفر، ومن ثم توغلوا في صحراء الرمادي حتى وصلوا إلى مدينة الرمادي، وتلاشوا بين أحيائها وكراجات سياراتها دون أن يصرّح أحدهم باسمه أو المنطقة المتجه إليها.

تنقّل أسمر من مكان إلى آخر دون أن يستقر حتى توغل في جزيرة سامراء، حيث كان يرتدي ثياب البدو التقليدية، ويبدو لمن يراه كأي بدوي كان يرعى الإبل أو الأغنام، ولمّا وصل الهضبة التي تسكنها قبيلة البدوي فوجئ برجال القبيلة وهم يعترضون طريقه ويحققون معه،

اتصلوا بشيخ العشيرة ثم قادوه إلى مضيف الشيخ قدموا له القهوة.. قال الشيخ: حياك الله.. وصلتنا أخبارك ونحن نعرف شجاعتك.. لكنك تأخرت عن المجيء وهذا ما أقلقنا.

قال أسمر: الظروف صعبة هناك، تعبت كثيراً وأنا أبحث عن هدفي، اشتغلتُ في كثير من الأماكن حتى عثرت على ذلك اللعين... ثم هذه الانفجارات التي ضربت فنادق في عمان، أثّرت كثيراً على خروجي من الأردن، لأن الحدود كانت مراقبة، والمهربين تمت مطاردتهم من قبل الأمن الأردني... واستطرد، وكيف الوضع هنا؟

قال الشيخ: كما ترى.. الوضع ليس آمناً، الإرهابيون يطاردون رجال العشائر الذين قاتلوا مع الحكومة ضد القاعدة، وغُدر ببعض رجالنا.. الحرب لن تنتهي معهم أبداً.

قال اسمر: ماهي أخبار العماره.. أريد أن أراها؟

قال الشيخ: لا أدري تماماً... حالها أفضل منا.. لكن صورك في مداخلها.. لا تنسَ ذلك.

قال أسمر: لن يتعرفوا عليّ، صورتي لا تشبهني

قال الشيخ: يا رجل.. بالكاد تعرفت عليك.. انت تلعب جيداً..

أمر الشيخ أحد أتباعه، فهيئوا مناماً دافئاً لأسمر، وظل ضيفاً على الشيخ حتى استأذنه ليسافر إلى العماره، بعدما حصل على هوية مزورة باسم «ماني عيسى موسى».

وقبل أن يغادر لوّح بيده إلى أطلال قبة الإمام علي الهادي التي فجرها

التونسي «يسري فاخر أبو قدامه «، هو وأتباع له من تنظيم القاعدة، مستخدماً 100 كغم من الديناميت في عام 2006، فانهارت القبة التي كانت تعتبر من أكبر القبب الإسلامية، وإثر ذلك اشتعلت أوار الحرب الأهلية التي كانت تشنها القاعدة والمتعاطفين معها، فانتفضت مليشيات شيعية أخرى لم تستطع المرجعية الدينية في العراق كبحها عن طريق الفتاوى والبيانات... (يبدو أن القبة هي من تسبب السلام بين طوائفكم) هكذا عبَّر المانوي.

قال أسمر: في الحقيقة بين الحرب والسلام غشاء رقيق من المشاعر.

قال المانوي: بين البشر وقوم يأجوج ومأجوج جدار من الحجر، لكن ليأجوج ألسن خشنة تلحس بها هذا الجدار، وكأنما تلعق دماء بني الإنسان.. اللسان هو الخطر سواء عند الجن أو عند الإنس، فالإنس لا تلعق الجدار الفاصل، إنما تثير القلاقل بألسنتها الخشنة... الشر قريب منا، هذا ما تريد أن تخبرنا به الأحداث والقصص.

* * *

من خلال زجاج السيارة المتجه به إلى مدينة العماره، بدت صورته بحجمها الكبير في السيطرة العسكرية لطريق العماره غريبة عليه، وكأنها لرجل آخر، تذكر: كيف التُقِطت له هذه الصورة في سجن بوكا، كانت لحية أسمر في الصورة سائبة، بحيث إنها تطغي على الصورة برمتها، وتجعل الناظر لهذه الصورة لا يَرى غير اللحية المثيرة للاستغراب، بحيث يتشتت انتباه كل من يرى الصورة، فتبهت تفاصيل الوجه الأخرى،

لكن مع أن اللحية هي السبب في اختلاف الوجه الملتحي، كما يبدو لأول وهلة، ولكن عند التدقيق في وجه أسمر الحالي يبدو الفرق كبيراً، وكأن العيون التي في الصورة تعود لرجل آخر، أو ربما السنين الأربع التي مرت بتجاربها وأحداثها وكوارثها والدماء التي سفكها قد غيّرت الكثير من ملامحه، وبدت الكلمات التي كُتِبت على الصورة، هي التي تعنيه وتهز كيانه أكثر (الإرهابي: أسمر شولي ـ مطلوب للقانون).

شعر بحزن شديد وضياع، وهو يدور في شوارع العماره، ومع أن هذا الضياع يختلف عن الضياع الذي شعر به في إيران، أو الذي انتابه في عمان، ربما كان هذا الألم محزناً أكثر، لأن المدينة التي ولد فيها قد تنكرت له بالتمام، بل وهو مطلوب فيها للعشائر وللقانون، ولا يستطيع أن يثبت براءته حتى.

لاحظ أسمر أن هناك بعض التغيير قد حصل في مدينة العماره، فقد شُيدت بعض البنايات والطرق السريعة المعلقة، لكنه ليس بحجم التغيير السياسي الذي حدث، فلم يَقبل الناس بالاحتلال مقابل اختفاء أنهر المجاري المكشوفة، وليس من أجل أشجار «الاكينو كاربس» المزروعة في جزرات الشوارع، ولم يقبل الناس بمرور المدرعات والدبابات في شوارع مدينتهم مقابل الرواتب الجيدة، ولا من أجل التغيير السطحي، سواء في واجهات المحال التجارية وأجهزة التكييف، وأجهزة الاتصالات الحديثة النوكيا وغيرها، أو من أجل شبكة الأنترنيت وما توفره من معلومات، لا، أعتقد أن الناس رحبت بالاحتلال مقابل الحرية، والأشياء لا تمنح الحرية، من المفيد والمهم أن يتلاشى الدكتاتور وبأي وسيلة كانت، لكن يفترض أن تتغير أو تغسل أدمغة هذه المنظومة الثقافية

التي ولَدت الدكتاتور، لأن لديها القُدرة الكافية لإنتاج بدائل قد تختلف عن نسخة الدكتاتور بالشكل والطريقة.. فلم تمر سوى أيام من سقوط النظام الشمولي، حتى بدأت تتوالد التيارات الدينية المتشددة بأجنحتها العسكرية والتي لا يختلف بعضها عن حزب البعث، إنها نُسخ من هذا الحزب، لكن الاختلاف بتطور اجراءاتها فقط، وزَرعت صور وجداريات قادتها، ولَطخت أُطرها بالحناء، كان الدكتاتور في الأزمان السالفة يظهر باللباس الكهنوتي لأن نصفه إله، ونصفه الآخر من البشر، يظهر هكذا لأن المجتمعات السالفة تحتفي بالسماء دون الأرض، لكن الغريب في الأمر أن الناس مازالت تؤمن برجال الدين مهما كان تاريخهم، ومهما كانت برامجهم التي تؤسس لنظام ظالم لا يكرس إلا لطقوس تتوج رجال الدين كحكام إلى أبد الآبدين، أما ما حصل في المدن غرب العراق فغريب ومذهل، فقد نمت بذور فتاوى التطرف الديني التي كُتبت في الأيام التليدة، لتوقظ بعض الخلايا النائمة منذ قرون، فانشلت الحياة هناك وتوقفت عن التقدم.

انتظر أسمر حلول الليل، فذهب إلى سوق زبيّد، متجنباً المرور من أمام «حلاقة نعيم» لئلا يتعرف عليه أحد، ومرّ على زقاق بيته فوجد البيت قد هُدِم.. وأُعيد بناؤه بديكور جديد، حاله حال بيوت أحياء مدينة العماره، وصار له درجات عديدة لبابه الرئيس، شعر بارتياح.. فلم يعد البيت يعنيه بشيء بعد الآن، اختفت الخارطة القديمة للبيت، واختفت الذكريات معها وضاعت رائحة أمه وأبيه... صار البيت غريباً عليه، مثل أي بيت من بيوت الزقاق.

وبرغم اختلاف مدينة العماره والتغيّر الذي اعترى بعض مفاصلها،

وغربته عنها إلا أن هناك بعضاً من الخيوط السرية التي لا تزال تشده لها... لم يبقَ فيها سوى يومين، حتى غادرها مُكرهاً إلى البصرة، وهناك أقام في فندق رديء في ساحة أم البروم، لا يرتاده إلا المعدمون والفقراء من عمال البناء وصبّاغي الأحذية والشحاذين، الذين يدورون في ساحات المدينة وأسواقها.

كانت رائحة الغرفة التي سكنها لا تطاق، فقام بغسل الأرضية بعد أن أزال السجادة التي تغطيها والملتصقة بأرضيتها منذ أعوام وغسلها، غسل الأغطية بسائل الكلور، واشترى هيتراً صغيراً، وبعض الأواني المستخدمة من رجل يمد بسطته في ساحة أم البروم، وكان هذا الرجل ينـزل في الفندق نفسه الذي يقيم به أسمر، وكان يلمّ بسطته في نهاية كل يوم، ويذهب بقامته المحدودبة حاملاً على ظهره كل الأواني والقدور بإزار مترب، وكأنه يلمّ أشلاء عمره الضائع، رسمه أسمر وهو يحمل أشياء غريبة ومخيفة على ظهره، فتبرز وجوه عديدة من خلال الإزار، لا تختلف عن الوجوه الممحوة لشخوص الكابوس التي تطارده في أحلامه... وفي الصباح حين يستفيق تستفيق معه ساحة أم البروم يسمع همهماتها وانينها، يسمع حركة المركبات التي تلتف في شوارعها ويسمع بائع الخبز الذي ينادي لبيع خبزه، ويسمع بائعة القيمر وهي تجادل زميلتها، ويسمع خطى العمال الذاهبين إلى أعمالهم وصوت ابواب الدكاكين وهي تنوس وتقرقع صفائح معادنها، ويسمع قرقعة الأواني فيعرف أن بائع الأواني، سينزل الدرج وإن أوانيه سترتطم بجدار السُلم وإن الإزار المترب سوف يمتد مثل كل يوم... حاول أسمر لسبب لا يعرفه، أن يمد علاقة مع رجل الأواني، فاكتشف أن وجهه المصاب

بندوب آثار حبوب قديمة لا يفصح عن أي قضية، واكتشف أن سلوك كل النُـزلاء متشابهة بعض الشيء، فلا أحد منهم يرغب بالتواصل مع الآخرين، كل فرد منهم يعيش عالمه الخاص به.. يعيش مأساته ولا يحب أن يطلع الآخرون عليها، ولكل واحد منهم مهنة، مثلما لكل نزيل قصة لا يرويها إلا لنفسه فقط.

قال أسمر للمانوي: ربما أنا مثلهم دون أن أدري، فأنا لا أحب أن يطّلع أحد آخر على قصتي أيضاً، وربما في يوم ما، سيمتلئ وجهي بالندوب، وسيحدودب ظهري مثل الرجل بائع الأواني، أو ربما سأصبح مثل الشحاذ الذي يسكن في الغرفة المقابلة لغرفتي، والذي يتظاهر بالعمى أو هو أعمى فعلاً أو ضعيف بصر، أو سأصبح مثل صابغ الأحذية الذي يدور في المقاهي، شاداً صندوقه على بطنه ليصبغ حذاء هذا وذاك، ولا يعترض إن دفعوا له أجرته أم لم يدفعوا، وكل يوم كان يعود إلى سكنه مخذولاً بقامته النحيلة، وثيابه الملطخة بألوان الدهان، وبكفّيه المصبوغتين وكأنما كان يرتدي قفازين أسودين، ومع أنه ليس كبيراً بالعمر، غير أن جسده يبدو أكثر شيخوخة من وجهه الحزين.

قال أسمر للمانوي: لم أسمع تعليقك... أحياناً تختفي وكأنك تغادر جسدي؟

قال المانوي: ربما.. من يدري..

* * *

(سري وعلى الفور)

من/ المديرية العامة للمخابرات العراقية. العدد: م.ط 562

إلى/ مكتب معلومات مدينة العمارة. التاريخ:17/ تشرين الأول/ 2010

م/ معلومات عن إرهابي

حسب المعلومات التي وردتنا من المخابرات الأردنية العامة إن المدعو (أسمر شولي المولود في مدينة العماره) عضو تنظيم القاعدة قد غادر الأردن ودخل إلى العراق خلال عام 2007 بعد أن قتل المدعو(أبو الفتوح عبدالله فرغلي ـ مصري الجنسية) لأسباب تتعلق بقضايا ثارات شخصية أو إن أوامر صدرت من قيادة القاعدة تنظيم العراق والشام بتصفية المجني عليه لأسباب مجهولة...

وحسب مصادرنا، إنه دخل إلى جزيرة سامراء ثم غادرها إلى جهة غير معروفة، ويعتقد أنه اتجه إلى مسقط رأسه في العماره، نحيطكم بالعلم إن هذا الإرهابي هو مُجرم خطير.. يستطيع تغيير هيئته حسب الظروف المحيطة به مثل الحرباء وينتحل شخصية اخرى.. فيرجى اتخاذ ما يلزم لإلقاء القبض عليه أو قتله، منعاً وتجنباً من مزاولة نشاطاته الإرهابية في البلاد، وإعلامنا حال توفر أي معلومات عنه أو عن مكان إقامته... مع التقدير.

نسخة منه إلى

ـ مكتب محافظة العماره... لاتخاذ ما يلزم.. مع التقدير.

ـ الاستخبارات العسكرية العامة.. لإجراء اللازم مع التقدير.

Telegram: @Arab_Books2

ـ مديرية السيطرات العامة لتعميمها على سيطراتكم.. مع التقدير.

ـ الإضبارة.

* * *

تغيّر شكل أسمر كثيراً خلال هذه السنوات الثلاث التي قضاها عاملاً في بناء البيوت في البصرة، فقد نحل جسمه وتغيّر لونه، وكأنما لونه الأشقر صار بنياً مُسمَرّاً، وكان قد دئب على قص شعره بماكنة كهربائية نوع (ويلي) اشتراها مستخدمة من سوق الجمعة، وكان يتجول بقبعة العمال دائماً، ويبدو لمن يراه كأي عامل من عمال البناء، وثيابه مع نظافتها إلا أن الشمس قد سرقت ألوانها وبهتت، وكان يعود إلى مقر إقامته في الفندق ليلاً، وهو يحمل عشاءه وصحيفة الصباح تحت إبطه، وفي أحيان أخرى كان يخفي كتاباً أو أكثر تحت قميصه لئلا يثير فضول الآخرين عن شخصيته، وكان كلما يخلو إلى نفسه في غرفته يقرأ، أو يبدأ بكتابة ما يملي عليه صديقه المانوي، لكنه كان يناقشه بالآراء التي لا تتناسب مع هذا الزمن... في أيام الجمع يذهب إلى شط العرب، يحدق بالماء طويلاً، فقد كانت هذه الأشياء الطافية على سطح الماء تثير مكامنه وتشعره بحزن غريب، وقد رسم هذه الأشياء التي تلهو بها الأمواج السرية، وقد ظهرت أشكال الأمواج في لوحاته بوجوه منطمسة وغارقة لا تختلف كثيراً عن وجوه رجال الكوابيس، وحين ينظر باتجاه تمثال السياب يتذكر قصيدته

(فلترحلي رحل النهار..

والبحر متسعا وخاوٍ لا غناء سوى الهدير

ومايبين سوى شراعا رنحته العاصفات وما يطير

إلا فؤادك يخفق باتنظار

رحل النهار...)

وذات يوم وبعدما شعر بالملل والخطر معاً.. إذ إن كوابيسه اختلفت وكأنها تنذره بخطر القبض عليه.. ترك غرفته ولوحاته المعلقة على جدرانها، ترك الفندق والبصرة وحمل حقيبته الصغيرة، وذهب ماشياً مع الجموع المتجهة إلى مدينة كربلاء، في البدء كان أسمر يعتبر ذلك هروباً، لذلك لم يشعر بألم قدميه، لأنه جرب الكثير من لحظات الهروب التي تتلاشى فيها الآلام... اختلط مع الجموع السائرة وشعر بطمأنينة كان قد افتقدها منذ أن حطم أحدهم صورة الرئيس...

وربما بفعل الحماس الذي كان يغطي على المشهد برمته، كان ذلك من يمده كما يمد الآخرين بالقوة... ويوماً بعد يوم واصل سيره مع آلاف السائرين رجالاً، نساء، صبياناً، وكانت الناس تتوسل بهم للمبيت عندهم أو ليتناولوا أنواع الطعام، في أماكن أعدّها الناس على طريقهم، بحيث يتسابق الناس لتأدية أية خدمة للسائرين مجاناً، كل شيء يحصل بسهولة ويسر.. تدليك القدمين والظهر، وتقديم الأدوية وحتى بطاقات أرصدة الاتصال، يقدمها الأثرياء مجاناً للسائرين، ومن ليس لديه أموال إما أن يسير مع السائرين، أو أن يقوم بخدمات أُخرى للسائرين، تمنى أسمر لو أن المسافة تستمر إلى نهاية عمره هكذا، إذ لا مكان للقلق ولا للكوابيس، وعرف أن كوابيسه ما هي إلا انعكاس للقلق الذي يدور في رأسه، وتمنى لو أن الحياة مثل حياة السير إلى كربلاء، حيث ينقسم الناس

إلى: مشائين، ومساندين، مهمتهم تقديم خدمات الإقامة وتقديم الطعام للمشائين، وفكّر: إذا كان ليس هناك معنى لهذه الحياة، فلماذا لا تكون مثالية على الأقل، وربما المعنى يكمن في مثاليتها... ثم قال للمانوي: يبدو أن الرب ترك للبشر مهمة صنع المعنى، غير أن البشر بدلاً من صنع المعنى راحوا يتقاتلون باستماتة عجيبة، ولكن المانوي لم يجبه، فأحياناً يختفي هذا المانوي أو ينام أو يتكاسل لكن في أحيانٍ أخرى فجأة يدُّب فيه نشاط غريب.

للنخيل البعيد الذي يرسم الأفق المسوّد الذي يبدو للسائرين قبيل الغروب مشهداً لا يمكن رسمه إلا بالخيال، إذ تبدو جذوع النخيل المتراصة مجرد لون أسود، لكنه يتحول إلى لونٍ هلامي مُحمرّ مثل دخان لنارٍ ستبدأ ألسنتها بالظهور، وكانت المدن الصغيرة التي تلتف بدثار ظلام ذلك النخيل لها شكل حيوان خرافي ضخم مختلط الهيئة، وعند هذه اللحظة من الزمن تختفي الشمس أو تكاد، وهي تدور في آبار الزمن المظلمة، لتشرق منبعثة بهالة تُسفِر ألوانها على فجرٍ جديدٍ.. فتتلون أطياف السائرين في لحظات الغَبش الأولى لعيون أهالي هذه المدن التي استَفاقت على هذا المشهد مبكرة مثل شمسها التي تحاول أن تهتك شَبكة الظلام التي انسدلت على المشهد الفائت، إذ يبدو منظرهم من بعيد مثل قامات لكائنات غريبة تطير بأجنحة من وهم، نحيلة، مكتظة، متقاطرة ومتباعدة شواخصهم، يسري بها لون الشروق الذهبي كسرب من الطيور المهاجرة، يخفيهم ويظهرهم بقايا ليل مازال عالقاً بالمكان، وتمر السيارات الذاهبة والغادية وتشيعهم عيون ركابها فتتلاشى هيئاتهم من الأنظار، وتلتف في طيات الزمن، حتى ليغدو كل شيء قريباً، وكل شيء

Telegram: @Arab_Books2

بعيداً في الوقت ذاته.. في لوحة لا يمكن أن تمحى أو تتلاشى سواء من مخيلة السائر بهذا الدرب أو من الذي يشاهد باندهاش هؤلاء السائرين... ويَغسل المشهد صورته الشمسية تحت المطر الغزير في الفجر البارد فيكون عندئذٍ السير لذيذاً، غريباً وصعباً معاً، فالمطر والرياح يجلدان المشهد بأكمله بوابل من خيوط الماء المندلق، بينما السائرون ينحنون لقطرات المطر الضاربة على الرؤوس والرقاب والأيدي، والرايات التي كانت تخفق في ساعات اشتداد الريح، في هذا المشهد تغسلها السماء من ذرات الواقع المترب، فيسيل منها الماء، وكأنه يُعمّد أجساد حامليها، فينهمر على أكتافهم، ويسبغ وجوههم وأهداب عيونهم.. وتظل العيون تقطر، وكأنما هي تنضح الماء أو الدموع أو بشيء لم يمرّ ذكره على الألسن بعد، تسقى خيوط أقمشة الرايات المُخضرّة بالرسوم والعبارات، وتختلط مع أصابع الأيدي وأردان ثياب حامليها، فتغدو الراية وحاملها كشاخص متوحد مع رايته، فيصيروا جميعاً مثل التماثيل التي تغسلها الأمطار في الساحات العامة، وعندها فقط يتضبب المشهد في مخيلة أسمر حتى يرسمه بخياله بألوان من وهم، وحينما تتبدد الغيوم وتشع شمس دافئة في جميع الأرجاء، تصير أطيافهم شديدة الوضوح، برّاقة تحت نتف غيوم بيضاء تُدحرجها الرياح نحو الأفق.

استمر سائراً هكذا لأكثر من أسبوعين حتى وصل إلى مدينة النجف، فزار ضريح الإمام علي، ونام لساعات في إحدى زوايا الإيوان كما لو أنه لم ينم طوال حياته.. نوم عميق يقترب بدرجة ما من الموت، وظل ليلتين في النجف، زار قبرَي أمه وأبيه، وزوجته وابنه، لكنه لم يستطع البكاء، وانتابه حزن لفّ كل جوارحه، وظل ينتحب في نفسه، لكن بلا

صوت، ثم استأنف سيره مع الجموع حتى وصل إلى كربلاء، وبات هناك ثلاث ليالٍ، حيث المبيت والطعام المـجّاني وسلوك الناس يقترب من السلوك الخيالي، زار مراراً ضريح الإمام الحسين والإمام العباس، وسأل المانوي القابع في رأسه عن رأيه بهذه الشعائر، فقال المانوي: المشكلة إن هذه الأيام محدودة، وعندما تنتهي سينتهي السلوك المثالي معها، ويعود الناس إلى طبائعهم.. لو أن هذه الطقوس تؤثر على حياة الناس حتى ولو قليلاً، لكنت قد شجعتك وشجعت القائمين الذين يقدمون الخدمات المجّانية، ولكن ويا للأسف أيام الطقوس محدودة، وتأثيرها محدود أيضاً، هم الآن يحترمون بعضهم بعضاً مثل المسحورين، لكن هذا السحر سينتهي عما قريب، وينتهي احترام بعضهم لبعض عما قريب أيضاً، وإذا سألتني عن أي سحر تتحدث أقول: هو سحر الحُسين، وإذا سألتني ماذا يعني هذا سأقول لك: لا أدري.. ولا أعرف أيضاً، ولو لم يكن الحسين موجوداً فلربما وجدوا غيره، لأنهم هكذا جبلوا من جيل إلى جيل، كان السومريون قد وجدوا مقدسهم وهو» تموز» الذي نزل إلى العالم السفلي، وظل الكهنة والناس تبكي عليه لقرون خلت، وعندما مات أنكيدو تجدد الحزن أكثر، ونقلته الأجيال عبر ثقافاتها، وعبر خلاياها وخبأته بأمكنة سرية ومقدسة إلى يومنا هذا.

عندما انتهت طقوس الزيارة سافر من كربلاء إلى بغداد، ثم ذهب مباشرة إلى منطقة الصدرية، حيث مازالت أنقاض البناية التي تهدمت على عائلته، لم يحرك ركام جدرانها المغبرّة أحد، راح يبكي بكاءً مراً هذه المرة وبصوتٍ مسموع، ولكنه كان في حقيقة الأمر يبكي على نفسه وعلى حياته التي تهدمت، وليس على عائلته فقط، حتى إنه بات في هذه

الخَرِبَة مثل أي مجنون من مجانيين المدن الكبيرة، وفي الصباح ذهب مشياً إلى البتاوين، وفي طريقه قابل بعض الأشخاص من الذين كان يعرفهم أثناء إقامته في الصدرية، لكنهم لم يتعرفوا عليه، فقال للمانوي: يبدو أنني مُسِخت دون أن أدري فكيف لا يعرفني الناس...

قال المانوي: لا.. أنت لم تُمسَخ، ولكنك تتكيف، أعضاء جسدك تشعر بالخطر، لذا فإنها تحاول أن تلغي هيأتك القديمة فتعطيك سحنة جديدة، فالحرباء لا تخدع الآخرين، إنها تحافظ على نفسها، التكيف أحد أنواع الدفاع عن النفس أو البقاء، فلولا هذه الميزة التي تمتلكها الحرباء لأنقرضت منذ زمن بعيد، ولولا هذه الميزة لكنت الآن في معتقل بوكا من جديد.

استأجر غرفة في فندق لا يختلف عن الفندق الذي سكنه في ساحة أم البروم بشيء، وفي المساء تجوّل في أزقة البتاوين المهجورة، التي شيدتها وسكنتها العوائل اليهودية التي سُفرت إلى اسرائيل في السنين الاولى من خمسينيات القرن العشرين، كانت هذه العوائل على ماتبدو عليه بيوتهم بشناشيلها، وكأنما قد عاشوا الفترة الذهبية لمدينة بغداد، تلك الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وبشعور غريب، تمنى لو أنه كان يهودياً وعاش تلك الفترة في هذه البيوت، وتخيل أن أباه اليهودي يعمل خياطاً، وخاله يعمل مصرفياً وأمه ربة بيت.. تعد لهم أكلات الدولمة، الباميا والتبسي... لكن هل كان اليهود سعداء في ذلك الوقت أَم إن المسلمين الفقراء كانوا يهددون غناهم ويقلقون راحتهم؟ وإلا كيف حدثت عمليات النهب لبيوتهم، في ذلك الوقت وكيف تم قتل بعضهم!؟

فقال له المانوي: لا راحة بوجود المسلمين.

فقال أسمر: ها قد سمعنا صوتك.. صوتك الحاد جداً مع المسلمين.

فقال المانوي: لأنهم أكثر حدة على الآخرين.

فقال أسمر: مهلك يا رجل، يفترض بالمانوي أن ينظر بمنظارٍ واحد لكل الأديان دون تحيز.

قال المانوي: لقد نظرت يا سيدي، ورأيتهم الأكثر تطرفاً بين الأديان الأخرى.

قال أسمر: على أية حال، ربما التطرف الذي تعنيه هو نوع من أنواع الصراع.. الصراع من أجل البقاء.

قال المانوي: لكن الآخرين لم ينقرضوا بعد، ولم يفجروا سيارات في الأسواق كذلك.

ولكي يتجنب المجادلة قال أسمر: أتعرف مطعماً يقدم أكلات شعبية مثل الدولمة وغيرها... لنتكلم عن الطعام خير من أن نتكلم عن الأديان أوَ تعرف أنني كرهت كل الأديان!! أوَ تعرف أيضاً أن نوع الطعام يكشف شفرة الشعب، مزاجهم، انظر إلى أكلة الباجة العراقية والدليمية والباقلاء بالدهن الحر والمنسف الأردني، إنهم يُكدّسون أنواع الطعام فوق بعضه.. كأن طفلاً اكتشف هذه الأكلات أو مجنوناً أو امرأة حانقة على زوجها.

قال المانوي: هذه أكلات المسلمين، ونسيت أن تضيف لها أكلة «المفطح» حيث يشوى خروف بكامل أعضاء جسده، ليقدم هكذا بكل وحشية، ليبدأ الافتراس والازدراد..

قال أسمر: انتظر يا رجل.. كأن المانوين لا يتناولون طعاماً..!

قال المانوي: يتناول رجل الدين المانوي الأكلات النباتية فقط، ولا يحق له قطفها، بينما يحق لعامة الناس بقطف الثمار وتناول الطعام النباتي، ويحرم أكل اللحوم بصورة عامة.

فقال أسمر: أتعرف أن النباتات التي تأكلونها هي المخلوقات الأسمى في رأيي، ويجب أن تكون في قمة التسلسل الغذائي، فالنباتات تعطي الأوكسجين وتستهلك ثاني أوكسيد الكاربون الضار من الغلاف الجوي، بعكس الحيوان تماماً هذا أولاً، وثانياً: لم تأكل النباتات أي كائن آخر حيواني أو نباتي، بعكس الحيوان الذي يفترس الحيوان والنبات معاً، الحيوان أكثر شراً من غيره.

فقال المانوي: ألا تعرف أن هناك أنواعاً من النباتات تفترس مثلما يفعل الحيوان.

قال أسمر: أعرف ذلك، لكن نصفها حيواني، لأن لديها غدداً هاضمة، وعملية الهضم عملية حيوانية.. واستطرد: أتعرف أن هناك منظمةً اسمها «أنقذوا الفيلة»، يرأسها أكاديمي شهير اسمه «دوكلاس هاملتون»، ترك مهامه العلمية وكرسي الأستاذية في الجامعة التي يعمل بها، وراح يبحث عن الفيلة التي تعلق في الأنهر الموحلة ليُنجدها، ويتناسى هذا العالم كمية الأشجار والحشائش التي يقتات عليها هذا الوحش العملاق، والتقارير الحديثة تؤكد أن الفيل يتناول أطناناً من الأغصان في كل أسبوع، وإن بإمكان قطيع من الفيلة، أن تنهي غابة صغيرة المساحة خلال عام واحد من الوجود، وأن الفيل باستطاعته قلع شجرة متوسطة الحجم

إذا ما قرر أن يحك جسده الضخم بها... إذن من يحتاج إلى إنقاذ في رأيك يامانوي الفيل أم الأشجار؟

فقال المانوي: لماذا تُذبح البقرة وهي تمنح الإنسان الحليب، والأغنام تعطيه الصوف والحليب، فلماذا يذبحها عند الحجر الأسود في كل عام... ولماذا تتناول الخضار في طعامك إذا كنت تعتقد أنها مقدسة!؟

قال أسمر: لا، النباتات ليست مقدسة، علينا أن نتناول ثمارها لا أن نقلعها وننهي وجودها، أنا أعتقد بأن نبيكم ماني كان نباتياً بالفطرة، وكان كارها للحوم مثل بقية النباتيين، فحاول أن يزج مزاجه في تعاليمه، وهو مثل بقية الأنبياء يظهر مزاجه في آياته.

قال المانوي: لكن ألا تعتقد إن أمراض الدم تسببها اللحوم، مثل ارتفاع الضغط والكوليسترول وأمراض القلب وغيرها وعلاج ذلك بالامتناع عن اللحوم، فتحريم اللحوم في المانوية له أساس علمي.

قال أسمر: آه... ربما كان لنبيكم مختبر متطور في ذلك الزمن، أتريدني أن أدوّن هذا في مخطوطة كتاب ماني... فكتابك يا سيدي قديم، لماذا لا نحدثه بالأفكار الجديدة ونقحم البنيوية، التفكيكية، النظرية النسبية، الكمية، نظرية الفوضى والثقب الأسود الكوني، ونظرية التطور والانتقاء الذاتي وغيرها من الأفكار الجديدة.. فقد ظهرت تعاليمكم في زمن كان يسافر فيه المرء من بابل إلى حدود الصين على ظهر حمار...

قال المانوي: إن النظريات والمدارس التي تتكلم عنها في حقيقة الأمر ما هي إلا أساليب وليست مدارس.. تم التفكير بها في الماضي،

لكن بطرق مختلفة، فلا جديد في الكون مثل: «المادة التي لا تفنى ولا تستحدث»، ومثل: «الأرواح وعددها الثابت في الكون»، وأما السفر فهو: العملية التي ينتقل بها الناس من مكان إلى آخر، بغض النظر عن الأداة الناقلة والمدة المستغرقة للانتقال.

طلب أسمر «زرزورين» فشواهما الرجل السوداني على الفحم، وقدمهما محفوفين بالخضروات مع كاسة صغيرة من الزلاطة المتبلة، فلكزه المانوي مرة أو مرتين، لكنه لم يَعرهُ انتباهاً، وأخذ يتناول عشاءه بتمهل، لكن انفجار سيارة مفخخة حدث قريباً من نفق باب الشرقي، هزّ أركان البنايات، فأحدث ذلك فوضى كبيرة في مطاعم ومقاهي البتاوين، وانتظر ساعة حتى عادت الأوضاع إلى طبيعتها، شرب قدحين من الشاي قبل أن يصعد إلى غرفته ليواصل كتابة مخطوطة كتاب ماني، ويتجادل مع المانوي على بعض الفقرات والجُمل والمغزى الدفين للطقوس، فكان أسمر أكثر ما يكره في الكون الطقوس، فحاول أن يؤثر بطريقة أو بأخرى على المانوي، ويقنعه بعدم جدوى الطقوس، وهي محط سخرية من وجهة نظر بقية الأديان الأخرى، فلا أتباع دين في الكون يقتنع بطقوس أتباع دين آخر، فقال له: لماذا لا نتجنب الطقوس مادامت المانوية هي خُلاصة الأديان كما تقول؟

قال المانوي: الطقوس تحاول أن تروض الأجساد، لأنها مليئة بالغرائز الحيوانية.. وبما إن الطقوس جسدية وروحية معاً، فإن باستطاعتها حشد الأرواح والأجساد وتجنيدهم للدفاع عن الدين إذا اقتضى الأمر مثل إعلان الجهاد في الدين الإسلامي... ومع ذلك فالمانوية هو الدين الأقل طقوساً لأنه لا يحب الحروب مثلكم.

قال أسمر: اذا مات الدين صار طقساً، أعتقد أن الطقوس أسلوب قديم، يُظهر أهمية رجال الدين بين المجتمع، في زمن كان عامة الناس فيه يعيشون حرية تشبه حرية الدواب.

قال المانوي: هناك بعض الطقوس وجدت لتهذيب الناس.. مثلاً: فرض الإسلام الوضوء الذي يبدأ بغسل الوجوه والأيدي والأرجل، لأن الصحراء متربة فينبغي إزالة غبارها قبل البدء بأي صلاة، فصار التنظيف تطهيراً حسب الطقس المؤدى.

قال أسمر: أنا أكرهك حينما تتناول بخيالك دين الإسلام، أشعر بحقدك على هذا الدين، ولا تنسَ أن وضوءكم لا يختلف عن وضوئنا بشيء.

قال المانوي: ولكن يا صديقي، الإسلام يُقلدنا بكل شيء، فقد تأثر كثيراً بالمانوية، وبإمكانك أن تقارن ذلك: نبيكم هو آخر الأنبياء، والنبي ماني أدّعى هذا الأمر، وهو أقدم بهذا الادّعاء، وتحريم الإسلام للخمور جاء بعدما حرمت المانوية الخمر أيضاً، وأنكر ماني صلب النبي عيسى المسيح قبل أن يرفضه الإسلام، أرسل ماني رسائل عديدة إلى ملوك الدول المجاورة لمدينة بابل، يدعوهم إلى الإيمان، بعد ذلك أرسل نبي الإسلام رسائله إلى ملوك الأمم المجاورة أيضاً ليهددهم لا ليدعوهم، باختصار نحن نسبقكم في كل شيء.. وأنتم تقلدوننا في كل شيء، لكن بالصورة السلبية، فكانت دول كثيرة مثل الحيرة وكندة وقبائل عربية يسكنون قريباً من مكة، يتبعون الديانة المانوية، ومن هناك انتقلت الأفكار مثلما تنتقل حبوب اللقاح.

قال أسمر: لماذا إذن لم تنتشر ديانتكم المانوية مثلما انتشر الإسلام مثل حبوب اللقاح؟

قال المانوي: لم نستخدم السيف والحصار الاقتصادي، ولم نكوِّن جيشاً لغزو الآخرين، ولم يجلس نبيّنا على عرش، ولم يتزوج قط، كان نبينا زاهداً ويدعو إلى الزهد، وفرض الزهد على رجال الدين فقط، بينما عامة الأتباع لهم تقاليدهم المخففة كثيراً.. نبي المانوية يدور على الناس بوصفه طبيباً يعالج المرضى، ولا يحمل معه سوى كتابه «إنجيل ماني»، وأدوات الخط والرسم وكتاب عن الطب النباتي ألفّه بنفسه، وأفكار عن كل الأديان، هذه هي المانوية يا سيدي، ثم انظر إلى النتائج، فالجيوش التي تأسست من قبل ها هي تتقاتل الآن، وحُوِّرت الآيات حتى صارت بنادق تقتل هذا وذاك، وتسمون الحرب جهاداً، كأنكم تصبغونه باللون المفضل لديكم.. أليس هذا ما يحدث الآن؟

قال أسمر: دعنا من هذا، كل دين يعتقد أنه الأصح والأصوب... ثم إن دينكم دين قديم، دين أثري، فبعض الأفكار مأخوذة من الزرادشتية، والمعروف أن الزرادشتية هي مجموعة من الأساطير التي تطورت إلى دين... وأنت تريدني أن أدوّن هذه الأفكار القديمة التي لا تصلح لهذا الزمن، لماذا لا تعيد النظر بها وتناقشها آية آية لتجعلها تتلاءم مع عصرنا؟ لتكن ثورة على الأديان الأخرى.

قال المانوي: أنت لست نبياً حتى تفكر في الأديان، دوّن ما سأوحي لك به، وسجله باسم النبي ماني.

* * *

Telegram: @Arab_Books2

لا أريد أن أضغط كثيراً على أسمر، فعلى أية حال أنا أحتل جسده.. وأملي عليه الكثير من الآراء والأفكار، التي قد تتعارض كثيراً وقليلاً مع ما يحمله من ثقافة وإرث، لكني مكلف بنقل هذه الأفكار من زمن إلى آخر، ومن أُمةٍ إلى أخرى، عسى أن لا تنطفئ شُعلة الحق والحقيقة إلى الأبد.. وعسى أن تتألق لتضيء ماعتُمَّ من الدنيا، فأنا أعتقد أن التدهور الأخلاقي الكبير سببته الأديان المتطرفة، التي لا تؤمن بالديانات الأخرى، وتعتبر بقية الأديان الأخرى أديانا ضالة وكافرة، المشكلة في الأديان كما أعتقد، إنها جميعاً قد حُرفت، وإن التلاميذ والمريدين والأتباع مثل المسيحي يهوذا الأسخريوطي وجاماسب الزرادشتي، وآشوكا البوذي، وغيرهم من المُحتالين الذين تولوا على الناس بثياب الدين وهم الذين بدأوا بتسييس أديانهم، سيطر الساسة المتدينون وجعلوا الناس في خدمة الأديان، وكان من المفترض أن تكون الأديان في خدمة الناس... وكذلك، إن نصوص معظم هذه الديانات قد أُوِّلت بما يخدم أتباعها، وقد سيطر الساسة على الأديان، فحرفوا منها ما شاءوا، ففي الإسلام أفتى رجل الدين لصالح الخليفة بالفتوى التي تبقيه حاكماً مستبداً حتى موته ببضع كلمات: «الخروج على الحاكم المؤمن كالخروج على الله»، ثم تطورت هذه الفتوى حتى أصبحت: «لا يجوز الخروج على وليّ الأمر وإن كان ظالماً»، وقد رفع بنو أمية هذه الفتوى ضد كل معارض لحكمهم.

لم يكن للمانوية تعاليم تخالف تعاليم الديانات الأخرى، فهي تؤمن بأن الله الواحد هو خالق الكون، وإن النور منبثق من الله، بينما كان الظلام منبثقاً من الشيطان، ومع ذلك، فقد حُوربت المانوية، وطُورد أتباعها في

كل أصقاع الأرض، ربما لأن طقوس المانوية رحيمة بالناس وشديدة على رجال الدين، وهذا لا يبهج رجال الكهنوت من كل الديانات الأخرى، فإنهُم يَدعون الناس للزهد بينما هُم ينعمون بالملذّات... ففي المانوية لا يصوم المانوي الاعتيادي إلا أسبوعاً واحداً فقط، ويصلي أربع صلوات في اليوم، وعليه أن يطبق الوصايا العشر (لا تكذب، لا تسرق، لا تقتل، لا تزنِ، لا تخدع، لا تبخل، لا تنافق، لا تعبد صنماً، لا تشكّ بالدين، لا تعمل بالسحر)، وكل الأديان تَأمر بذلك، إذا لماذا تمتْ إبادتنا؟! وقد انتبه النبي ماني لهذا الأمر وقال: إنهم يحاربون المانوية لأنها فضحت أساليبهم، وقد عرفوا بأنها الإكسير الذي سيُذوّب أديانهم على مر العصور.

صحيح إن أسمر كان وسيطاً جيداً لنقل أفكاري، فهو إنسان حرّ ومرن، غير متعصب لدينه الإسلام، ولم يكن ملتزماً بتعاليم دينه أيضاً، وهذه من الأسباب التي جعلتني أختاره لهذه المهمة، لكنه صار محاصراً الآن، وفي أية لحظة يقُتَل أو يُسجَن، فلا عشيرة له تدافع عنه، ولا عائلة يأوى لها، ولا حزب ولا طائفة ولا دين، بدأ المجتمع يسلب منه هوياته الواحدة بعد الأخرى، حتى صار مجرد إنسان بلا اسم ولا أيّ لقب.. هو الآن مثل النبي ماني في أيامه الأخيرة، فلا يمكن له أن يستمر بالعيش هكذا على هامش الحياة، مع أنه أدمَنَ القساوة منذ نعومة أظفاره، وحين يموت سَيتعيّن عليَّ إيجاد وسيط آخر، ربما أعثر عليه خلال عام، وربما خلال قرن، فالوسطاء يندر وجودهم بين الشعوب أحياناً، وسأظل هائماً بين السماء والأرض، حتى أعثر على من يخلف أسمر لنقل أفكاري.

* * *

Telegram: @Arab_Books2

كثيرة هي الاضطرارات التي حصلت لأسمر، وإحداها بيع ساعة الجيب «الويست إند» السويسرية، وهي الشيء الوحيد الذي خلّفه شولي بعد موته له، فالبيت قد ضاع، فلا يستطيع أن يطالب به دون أن يُقبَض عليه أو يقتله أهل الرفيق الذي تم اغتياله... وقد رافقته هذه الساعة في أيام تشرده بطهران وغيرها من المدن الإيرانية الأخرى، أما كيف حصل شولي على هذه الساعة الثمينة، فلم يخبر أيَّ أحد بأمرها، حتى إنه لم يخبر زوجته تسواهن برغم إلحاحها الذي تبدد أمام الصمت الأيقوني، وحمل هذا العجوز الكتوم كل أسرار حياته نحو القبر، ولم يخبر أي أحد عن أصله ولا عن قبيلته ولا عن الولاية التي هرب منها إلى العماره، كان يَصمت أمام الأسئلة التي تتكاثر عليه، ويتجنبها بدخان سكارته التي يلفّ تبغها بيديه، ولا شيء سوى الصمت والدخان الذي يغطي تقاطيع وجهه الجهم...

المهم اضطر أسمر أن يبيع ساعة الويست إند في سوق الحرامية في عمان، بعد أن التقى بخلف المهربجي، واحتاج إلى المال، لكنه ظلّ يشعر وكأنه قد باع أحد أعضاء جسده، وكان كلما مر به موقف مُحرج، يمد يده إلى جيبه لكي يدير شاحن الساعة، ولما لم تعثر أصابعه عليها، تظل أصابعه تفرك ببعضها وتدير شاحن (التكويك) الوهمي، فتنتابه نوبة من الألم، أما الاضطرار الثاني الذي حصل له: عندما باع مسدسه سراً حتى لا يعرف الشيخ بحاجته إلى المال، فاشتراه أحد رجال الشيخ، حدث ذلك عندما عاد إلى قبيلة البدوي قبل أن يسافر إلى العماره، أما الاضطرار الأكبر: عندما اشتغل مع عمال البناء، وسكن في فندق المعدمين في البصرة ثم بغداد، حيث كان لا يفرح عندما يعمل، ولكنه كان يقلق عندما لا يجد فرصة عمل...

Telegram: @Arab_Books2

كانت فرص العمل في بغداد قليلة بسبب عدم الاستقرار الأمني.. لأن الناس القلقة لا تفكر في البناء والتجديد، والمقاولون والمتعهدون والشركات الصغيرة تَهرب برؤوس أموالها بعيداً عن أزيز الرصاص، وبدا كأن هناك توجها للإرهاب لضرب ساحات وقوف العمال.

قال أسمر للمانوي: خطتهم إيقاف العمل إذن!

قال المانوي: إذا توقف العمل توقف الزمن، الإرهابيون يحاولون إيقاف الزمن.

قال أسمر: لا يمكن إيقاف الزمن.. فربما يمكن أن تُعَكر الأجواء بالمفخخات، فالغابة تزدهر بعد الحريق دائماً.

عندما كان يعود من ساحة وقوف العمال دون أن يحصل على عمل يقلق على مصيره، ويستيقظ الحزن الكامن في زاوية ما من جمجمته، كان في أحيان كثيرة يفكر بمستقبله الغامض وبشيخوخته... فلا أحد سيُشغِّل كبار السن، إذن كيف يدفع إيجار الغرفة التي يسكنها، وكيف يأكل؟ هل سيضطر إلى مدِّ يده للآخرين، وكيف يكون منظره إذن؟ فتمنى أن يموت قبل بلوغه هذا العمر، وتمنى كذلك أن يُجن، والجنون في رأيه أفضل الحلول..

قال للمانوي: لو أنني شختُ كثيراً سأذهب إلى دار العجزة، ولكن دار العجزة ربما سترفضني يا صديقي، فلا أوراق ثبوتية تثبت مواطنتي غير هذه الهوية المزورة والتي لا أساس قانوني لها.

قال له المانوي: لماذا لا نذهب إلى السيلمي نسيبك السابق ليجد لنا مخرجاً، على الأقل يدعمك ببعض الأوراق الثبوتية.. فالرجل أصبح مهماً.

ولما لم يجد في أحد الأيام عملاً، قرر أن يذهب إلى نسيبه السابق، فشرب الشاي في أحد مقاهي البتاوين، ثم عبر الشارع نحو نصب الحرية... فبدا له الحصان مخيفاً بحركته والتواء جسده كأنما هناك نار لا مرئية كان يفكر بها النحات «جواد سليم»، وقد وضعت تحت حوافر الحصان الجامح، وهو يشهق عالياً نحو السماء، حتى كأنما سمع صوت صهيله يشق سماء بغداد المدخنة بانفجار سيارة مفخخة ضربت سوق شلال بحي الشعب، يقال: إن الخيول تتكهن بالزلازل والفيضانات والكوارث الطبيعية، وتظل تصهل وتجمح في مرابطها، فلا نعرف هل فكر جواد سليم بحصانه وجعله يتكهن بما تمر به البلاد الآن من مفخخات أحرقت الأخضر قبل اليابس...

عَبر أسمر من تحت النصب وتخيل صوت تحطم قضبان السجن بقبضة الجندي الأسطوري، وتساءل: هل هي قبضة الزعيم عبد الكريم قاسم التي حاولت أن تُحطم أغلال وقضبان سجن الفقراء، وقال في نفسه: الفقر مثل الدكتاتور لأنه ينتج السجون... ثم راح يردد: الفقر مثل الدكتاتور لأنه ينتج السجون، ردّدها مع نفسه وكأنه يعصر معناها ويشربه مثلما يشرب المريض الدواء المر.

وبينما هو يعبر الشارع المزدحم بالناس والباعة التي تسد مداخل أزقّة الباب الشرقي، تسده بالبضائع، وتسده بالضوضاء أيضاً... لكن برغم ذلك راح يفكر وكأنه كان يمشي أثناء النوم ففكر بما دارَ في رأس النحات جواد سليم طوال فترة نحته لنصب الحرية، هل كان يفكر في الموت الذي أنهى حياته قبل أن يرى النصب في ساحة التحرير؟ ومن ثَمّ أنهى حياة عبد الكريم قاسم صاحب القبضة الأسطورية، التي

أمسكت بمسدس عبد السلام عارف، قبل أن يطلق رصاصاته ليلوي يده والمسدس معاً، ونتيجة لهذه الحادثة حكمت المحكمة بإعدام عبد السلام عارف، لكن حكم الإعدام لم ينفذ لان عبد الكريم قاسم جاء الى السجن كالملاك ليحطم قضبان زنزانة صديقه الخائن عبد السلام عارف فينقذه من الإعدام.. أنقذه بهذه العبارة الشهيرة التي أطلقها بوجه العدالة الغاضبة آنذاك «عفى الله عما سلف»، والتي تعادل وتساوي بالقيمة «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، ثم عاد هؤلاء الطلقاء ليقتصوا من ذرية الرسول (ص) كما عاد الذين عُفيَ عما سَلف من جرائمهم... لكن لا أحد يعرف مشاعر عبدالسلام عارف عندما أمر الجندي بإطلاق النار على زعيم العراق المحبوب وصاحبه ورفيقه ومنقذه الذي عفى عن جريمته.

وهل فكر هذا النحات الشهير بالحرية التي يحتاجها الشعب ويخشاها أيضاً.. لأنها تحتاج إلى منظومة كاملة لردع جموحها مثل الفرس التي في مخيلة جواد سليم.. وهذه الحرية التي في سبيلها قَبل الناس بالاحتلال وغيرها من التُرهات، وها إنها تنقلب عليه كعاصفة من الفوضى.

كان قد صعد إلى الباص الذي كان سائقها ينادي بصوت أجش ومدوي وكأنه يسعل (كراده.. كراده داخل)، وما إن جلس على أحد المقاعد راح يتأمل بالأشياء الغامضة التي تحدث بالحياة، حتى صعد إلى الحافلة رجل ومعه طفلان، فأثار اهتمامه هذا المشهد، كان أحدهما يتأتئ بالكلمات وبالحروف فذكّره بابنه، حاول أن لا يبكي، لكن دموعه انسابت على خديه، مسح دموعه لئلا ينتبه إليه الرجل الذي يجلس بجانبه، وعرف في داخل نفسه أن نوبة البكاء ستنتابه في الليل لا محالة،

فعندما يتذكر ابنه يبكي قبيل النوم، وإن بكاءه يتسلل فيدخل معه إلى الأحلام والكوابيس، وهناك يظل يبكي وينوح وحده.

توقفت الباص قريباً من ساحة كهرمانة، فانتبه للنصب وتخلص من مشاعره الحزينة، كان الماء قد جفّ من الجرة التي تحملها السيدة كهرمانة، والذي تسكبه كما وردت في حكايات «ألف ليلة وليلة» في الجرار الكبيرة، التي يفترض أن اللصوص الأربعين يختبئون فيها، وتم استخدام الماء بدلاً عن الزيت، وفكر أسمر: إن هذا خيانة للنص، أو لِمَا كان مكتوباً، وفكر بالخيانة وفكر بالوطن، ثم قال: لكن في بعض الأحيان يشعر المرء بأن الناس كلها تخونه، وقال: الواقع هو الخائن الأعظم، ثم فكر بالقدر والحتمية التاريخية، وأن مواهب المرء قد تقوده في بعض الأحيان إلى التعاسة، مثلما تَسَبب جمال صوت البلبل في حبسه، لكن المواهب في أحيانٍ أخرى تساعده في تغيّر كل شيء إلى صالحه.. قال لنفسه: لكنني أنا الخائن الأول في معادلة الخيانة.. فلم أكلّف نفسي عن البحث عن أبي الحقيقي ولا عن أمي الحقيقية، ثم فكر بمدى الألم الذي سيسببه لوالده شولي ولأمه تسواهن ـ إذا كانا على قيد الحياة ـ وإذا ما تركهم وبحث عن والديه الحقيقيين وقال: من يدري.. فربما ضابط الأمن اغتصب المرأة الكردية بعد سبيها، وقد حبلت بي وولدتني في السجن... ثم قال: إن كل الظروف كانت مهيأة أن أعيش هذا القدر الغريب، وإلا ما معنى أن في رأسي رجلاً آخر.. له آراؤه المختلفة، وله دينه المختلف وزمنه أيضاً، ثم فكر: لم يكن ببال النحات محمد غني حكمت أن يجف الماء يوماً عن أواني السيدة كهرمانة ذات القوام الخلاب، أو إن دبابة أمريكية تتوقف يوماً ليشاهد كادرها بدهشة

الأواني الفخارية والسيدة البرونزية، وهي تصبّ وَهْمَ الزيت في الجرار الكثيرة التي تراكمت فوق بعضها.

تخيل لقاءه مع السيلمي كيف سيكون، لأن سنين عديدة مرت دون أن يلتقيا، منذ أن فقد زوجته وابنه في تفجير البناية التي يسكنها في منطقة الصدرية، وتخيل أنه ربما سيعزمه على الغداء، وسيتناول الطعام البيتي اللذيذ، فقد مَلَّ من الطعام الذي يعده رجال المطاعم، وربما سيذكّره بالأطعمة التي تعدها زوجته، فعلى أية حال، فربما قد تعلمت الطبخ من عائلتها، وشعر بحنين إلى هذا البيت، فقد انتسب إليه في يوم ما، وأوى إليه في زمن كان الضياع يهدده، فقال لنفسه: الضياع يزدردنيً كل يوم.. لو كان الضياع رجلاً إرهابياً لقتلته، لكن رغبة القتل قد تراجعت في نفسه منذ أن أخذ ثأره وثأر البدوي، قال المانوي: الضياع يسببه الفقر أيضاً، وهذا ما جعل علي بن أبي طالب»ع» يقول: «لو كان الفقر رجلا لقتلته».

لم يستطع الوصول إلى بيت السيلمي، لأن الزقاق كان قد أُغلق، ولا يَسمح الحراس لمرور الناس فيه، إلا من كان بيته في هذا الزقاق، قال لهم: إنه يريد أن يذهب إلى بيت السيلمي، فتعرض إلى تحقيق، ووصل الخبر إلى السيلمي، وأدخلوه لكن بعد ساعتين.. إذ بدا لهم وكأنه مجنون أو شيء من هذا القبيل، لاحظ أسمر أن كل شيء قد تغير في صاحبه، بدءاً بملابسه وربطة عنقه وأثاث البيت ونظرته...

قال له السيلمي مستغرباً بعد أن خفض من صوته لئلا يسمعه أحد الحراس: ماذا فعلت بنفسك، أنت لا تشبه أسمر، أنت...

فقال له أسمر: ولكنك لا تشبه نسيبي أيضاً..

قال السيلمي خافضاً من صوته أكثر: أنت عضو في القاعدة، كيف تجرؤ وتتجول في بغداد، ومن ثم تزور نائباً في البرلمان العراقي، هل تريد أن تحطم سمعتي! اسمع، لا أريد أن أراك ولا أعرفك، ولا أريد أن تعرفني، خذ هذه الدولارات واخرج بسرعة، وسأقول للحراس: أنت شحاذ وتطلب المساعدة مني، وأحذرك أن تأتِي مرة أخرى أيها «الحرباء».

خرج أسمر دون ان يأخذ اي شيء ودون ان يقول شيئاً.

جعلته هذه الحادثة مريضاً ليومين، وبالكاد تشجع لينـزل من غرفته التي في الطابق الرابع في الفندق الرديء، ليتناول قليلاً من الرز والفاصوليا في المطعم الذي لا يبعد كثيراً عن الفندق الذي يسكنه، جلس ليشرب شاياً في المقهى القريب، وقبل أن يصعد السلم الطويل أخبره عامل الفندق أن عليه أن يدفع إيجار غرفته، ولمّا دفعها اكتشف أنه لا يملك شيئاً ليتناول طعام العشاء.

قال أسمر: لماذا تصمت أيها المانوي، ولماذا تَتَجنب الحديث معي، هل لأنك السبب لكل ما حدث ويحدث لي؟

قال المانوي: لا يا صديقي، أنا مشغول البال.. فكرت بأفكارك، أعني بطرحك الجديد.. فلم يخطر ببالي يوماً أن أُجدد ديني وأحدّثه بما يتلاءم مع مستجدات العصر.

قال أسمر: أنت بَطر وأناني، فلا تفكر بما سيحدث لي... ومع هذا فالدين مثل اللغة ومثل الناس ومثل بقية الأشياء آيل للتغيير لا محالة، فلماذا لا تجعله مرناً قابلاً للتطور من تلقاء ذاته، فإن حوّره غيرك فيما

بعد فسيحدث فيه خللاً ما وتشوهاً، سيتحوّل إلى أسلحة أو أشياء عديمة الجدوى كالطقوس.

قال المانوي: إذن أتلف كل ما كتبته، ولنبدأ من جديد ديناً بلا طقوس، ديناً سرياً يعقده المرء مع ربه، ولكن على المرء أن يطبق الوصايا العشر قبل كل شيء إلا واحدة منها وهي (عدم الشك)، فللناس الحق أن تشك بكل شيء، شرط أن تبحث عما تشك به، ما رأيك بهذا التجديد؟

قال أسمر: دعني أتعافَ أولاً، وأعمل وأحصل على ما يشبع جوعي، ثم أملي عليَّ ما تريد.. أيها البطر.

نام بلا عشاء، وعندما أفاق في اليوم الثاني، وجد معدته تُقرقر من الجوع، فقال للمانوي في محاولة منه لإيقاظه، أو لطلب الدعم المعنوي على الأقل: إذن صحتي على ما يرام.

قال المانوي: آه.. أتمنى ذلك.

وجد لديه بعضاً من البسكت وبقايا خبز جاف، فعمل شاياً على الهيتر الصغير، وراح يغمس البسكت في الشاي وبقايا الخبز، ثم عاد إلى النوم ثانية...

تحط عليهم غيوم غير مرئية، وتنهمر الأمطار على ظلالهم، وتتشكل كتلهم المشوهة من السديم الضبابي، فتبدو مختلطة مع بعضها أو تكاد تكون ذائبة في ذلك الحيز بفعل المياه المندلقة، حتى لتبدو كأنها جزء من ثيابهم التي تجر أذيالها وتسحل معها الظلام، فتتراءى هيآت أشكالهم من بعيد مثل لوحة غامضة تصور كائنات خرافية، تسير في أرض بلا معالم..

وحيث كل شيء صار لونه رمادياً، ولا شيء حقيقي إلا صوت الدليل، وهو يصرخ بهم، لمواصلة السير وتخطي الحدود.. كانت حروف صوته تحطمها قطرات المطر قبل أن تصل إلى آذانهم، فيغدو الصوت كأنه صوت لحيوان جريح قادم من كهف مهمل وبعيد، لكنهم كانوا يعرفون ما يريد منهم بالفحوى، الريح تصرخ بألسن من المطر، وأمواج الرمال تتلاطم أمامهم.. يتخيلون أقدامهم وهي تخوض بالرمل والماء والدماء معاً.. يدوسون على جثث وأذرع ورؤوس، وتتلاشى أوهام أجسادهم مع الجثث، ومع الرمال والمياه، مكونة خليطاً مخيفاً ومقززاً معاً... وشيئاً فشيئاً صار المطر برداً يعيق تقدمهم، واللون الرمادي للفضاء صار أسود، لكنهم ظلوا يسيرون برغم الأذرع السوداء التي كانت تتشبث بهم.. يسيرون وراء الكتلة المسودّة أكثر في الطريق الأسود.

قال المانوي قبل أن ينـزل أسمر من الفندق إلى المخبز ليستدين خبزتين: إذن هي الكوابيس نفسها التي تراودني، فمغامراتك لن تدعنا وشأننا، إنها تعيش وتحيا معنا، بل صارت أكثر خطورة يوماً بعد يوم، وهذه علامة شؤم، ومن يدري ربما سترافقك إن مت إلى القبر.. هذا إذا لم تُنهِ حياتك..

قال أسمر: هل من المعقول أن أموت أثناء الكابوس، وربما حين أموت سألتقي بالإرهابيين الذين قتلتهم، ولا أعرف وقتها كيف سيكون اللقاء.. من يدري ربما هناك قد عرفوا أن لا غداء مع النبي ولا حور عين، وربما سيعتذرون عما سببوه لي من أذى، وأعتذر لهم ونصبح أصدقاء ونسبح في الأثير مثلما تسبح الأشباح.

لم يستطع أسمر أن يعمل، وظل كل يوم يستدين خبزتين من المخبز، ويستدين قطعة جبن من المرأة التي تبيع الجبن على الرصيف، حتى بدأ يعمل في المخبز، ثم تركه بعد أن أزعجه زملاءه في المخبز عن أصله وعن أهله، فقرر أن يعود عاملاً في البناء حيث لا أحد سيزعجه بأسئلة من هذا النوع، فعمال البناء يلتقطهم الناس من «مساطر العمل»، وحين ينتهي يوم عملهم يذهبون إلى مساكنهم، ولا يترك التعب مجالاً لطرح الأسئلة، كان أسمر قد تعلم حكمة من المشردين في الفندق الذي سكنه في البصرة، وهي أن: لا تروي قصتك لأحد مهما كلف الثمن، فكل شيء سيتحول ضدك، حتى المأساة التي تعيشها تصير دليل إدانة لا عفو، ولا ترتبط مع أحد بأية علاقة، وتظاهر بالغباء والهبل، وإذا اضطررت فتظاهر بالجنون.

وذات مرة، ألحَّ عليه حمّال كان يقيم مع عائلته في إحدى خرائب البتاوين، أن يذهب ليتغدى معه، رفض أسمر لئلا يتعرض للإحراج عن أسباب تشرده، فحكى له هذا الحمّال عن عمله الذي ورثه عن جده وأبيه قال: خرجت مظاهرة ضد الحكم الملكي الذي حكم العراق في خمسينات القرن العشرين، وصادف أن رئيس الوزراء العراقي هو نوري السعيد، وكان يقف على شرفة إحدى البنايات الحكومية، فقال لحاشيته اجلبوا لي ذلك الرجل وأشار إلى أحد المتظاهرين، فجلبوه.. وسأله الرئيس نوري سعيد بلطف:

ماهي وظيفتك؟ قال الرجل: حمّالاً.. فسأله: وإذا سقط حكمنا وجاء غيرنا إلى الحكم فماذا ستكون؟ قال الرجل سأبقى حمّالاً أيضاً.. فقال له: لماذا تتحمل أعباء غيرك إذن، دع الناس التي يفيدها التغيير أن تتظاهر

وتحتج وحدها؟ فصمت الرجل ولم يستطع أن يجد أي جواب، فأعطاه رئيس الوزراء نوري سعيد بعض النقود وقال له اذهب أنت حرّ سواء تظاهرت أم لم تتظاهر، وكان هذا الرجل هو جدي، فقصير القامة يا أخي لا يتأمل أن يكون طويلاً.. والزنجي لا يمكن أن يكون أبيض يوماً ما.. وهذا هو قدرنا أن نكون حمالين فقراء لنرث الفقر، ومهنة الحِمالة معاً.

ومع أن حكاية هذا الحمّال تستحق التعليق، إلا أن أسمر اكتفى بهزّ رأسه فقط درءاً للحديث، أراد أسمر أن يقول للحمّال:

هناك الكثير من رجال عظماء غيّروا التاريخ من أصول فقيرة، فالدولة البويهية التي أسسها «بويه» الذي كان حمالاً في الأصل، قد حكمت جزءاً من الدولة الفارسية وجزءاً من الدولة التركية، وحكمت نصف العراق، وشهدت الناس في عصرهم الرفاهية برغم جذورهم النابتة في أرض الفقر.. وهناك رجال سود استطاعوا أن يحكموا البيض، وهناك ثمة فرص للنجاح، وعلى المرء أن يتشبث بها.. لكن لا تعتب على رجل كل شيء كان ضده مثلما يحصل لي الآن.. فلو أن الحياة أنصفتني، ولم تتحطم صورة الرئيس، لما طردت من المدرسة، ولم أُطارد أيضاً، ولكنت الآن مدرساً أو محامياً أو غير ذلك، ولي عائلتي ووضعي الطبيعي، ولولا مخاوفي من سلطة الدكتاتور لم أصعد إلى السيارة التي كانت تنادي إلى إيران، ولم أتغرب سنين طوالاً، ولو أن الرفيق الذي استولى على بيتي لم يغتالْه أحد، لما تركت مدينة العماره، ولو أن عائلتي التي كونتها بعد سقوط النظام لم تُقضَ في الانفجار، لكنت الآن أعمل في سوق الصدرية، ولو لم ألتقِ بالبدوي الذي شجعني على أخذ الثأر، لما كنت الآن إرهابياً..

عصفت به رغبة شديدة للسفر إلى العماره، والسكن في سوق زبيّد، تمنى لو أنه جلس في حلاقة نعيم مرة أخرى، وراقب المارة وهي تذهب وتجيء، تمنى لو أنه استقل باص «فورت» إلى سوق العماره الكبير، ومن ثم العودة قبل حلول المساء، تمنى النوم على سطح بيته في أيام الصيف، تمنى أن يعود كل شيء قبل أن يُخرّب.. تمنى لو أنه لم يطارد من قبل النظام السابق، ولم يدخل في رأسه المانوي، ولم يهرب إلى إيران.. تمنى لو أن أمه لم تمت، وتمنى لو أنه صار مُعلماً أو مدرساً في إحدى مدارس سوق زبيّد، أو موظفاً في دائرة داخل مدينة العماره، تمنى لو أنه لم يولد قط.. مثل تلك الولادة الغريبة، وتمنى لو أنه كان مجنوناً يجوب الأزقة في سوق زبيّد مثل عباس بن نوميه، وتمنى لو أن الكرد لم يتمردوا ولم يعلنوا ثورة كولان في شمال العراق.. لما سُبيت أمه من شمال العراق لتلده في سوق زبيد، وتمنى أشياء كثيرة...

* * *

وفي إحدى ليالي شهر شباط من عام 2013، داهمت شرطة مكافحة الإرهاب، الفندق الذي يسكنه واعتقلت كل نزلائه، وحجزوهم في قاعة كبيرة، وما كان لأسمر أي حيلة سوى التخلص من هويته المزورة في المرحاض، خوفاً من اكتشافها، ولما حققوا معه... بدا للضباط مثل المعتوه وهو يجيب على أسئلتهم بأجوبة غبية وغريبة، بحيث إنهم ينفجرون بالضحك كلما أجابهم على سؤال، مثلا أين تسكن؟ يجيبهم: في السوق.

ويسألونه: أي سوق تقصد؟ السوق الذي ولدتني فيه أمي.. ألا تعرفوه،

ويسألونه: وأين هو؟ يجيبهم: في رأسي، ويغطّ في البكاء، يسألونه وما اسمك؟ اسمي: أمين، ماني، أموني، وأين أهلك؟ ماتوا بالانفجار الذي حدث في منطقة الصدرية وتركوني وحدي، وهنا يتوقف الضحك، وأين كنت؟ بمستشفى المجانين، ولماذا أنت بالفندق (ما عدّي أهل... طلعت من فطر الكاع).

هذه الطريقة هي الهرب بعينه، مادام الهرب هو الحل فما نفع المواجهة، إذا سحقتك الجموع حينها فلا يسجل موقفك أحد، وتضيع ضياع النملة تحت أقدام البشر، فمهما كان موقف النملة نبيلاً وهي تدافع عن المؤونة التي تحملها، فلن يسجل أي أحد من البشر أو من الدود نفسه موقفها هذا.. فتنسحق، وينسى أمرها إلى أبد الآبدين... فهناك قضايا خاسرة من أساسها ولا تنفع فيها المواجهة، بل المواجهة في هذه الحالة تكون لها مردود سلبي، أما قضية الإمام الحسين (ع) ومواجهته للظلم مع أنه كان يعرف أنه هالك هو وأهله وأتباعه لا محالة.. كان الرجل يعرف أن الإسلام في ذلك الزمن بحاجة إلى صدمة، بعد ما عاد الطغاة إلى الحكم وصاروا يحكمون حسب مزاجهم، فلا رادع يردعهم.. وجميع المسلمين كانوا يخشون مواجهة السلطة، بل صار الاستسلام صفة المؤمن الذي يصبر على المهانة والظلم، فثورة الحسين أعطت أملاً لهؤلاء الصامتين واليائسين معاً، ولكل مواجهة طريقة مثلما لكل هروب طريقة، وطريقة المتصوف في الهرب صعبة، إذ إنها تبدأ بالهرب من الجسد إلى النفس، من المحسوس إلى اللامحسوس، من الشيء إلى التجريد، يهرب من الدنيا إلى العليا، من الدال إلى المدلول، من العبارة إلى الإشارة، من

المخلوق إلى الخالق، من المرئي إلى اللامرئي.. ويمرّ المتصوف بمحن كثيرة، ومراحل عدة تنتهي بلقائه بذاته، معتقداً أنه التقى بربه.

كان أسمر قد تعلم أشياء وطرقاً كثيرة عن الهرب، بدءً بهروبه الأول من العماره إلى سامراء، ومن ثَمّ من العراق إلى إيران، وهناك تعلم أشياء أخرى أكثر دهاء وأنجع تعلم الهرب بوصفه مواجهة، تعلم من مالك أوس أو إسماعيل النجار الحيلة الكبرى، ولم يكتشف ذلك بالفطرة أو بالصدفة، لا.. وإنما تعلم ذلك من المانوي الذي يقبع داخله، فقد تعرض المانويون الأوائل إلى مصاعب كثيرة أثناء المطاردات، فاكتشفوا حيلاً لتبقيهم أحياء بين المجتمعات المعادية لهم... والطريقة هي التظاهر بالجنون وبالغباء، والهَبل، ولكن المحتال الأكبر هو البهلول، فكان يتظاهر بالجنون لا لينقذ نفسه من سيوف هارون الرشيد فقط، بل ليمرر فلسفته ومعارفه بين الناس، كان هو العاقل المجنون، المتصوف المُلحد، الغبي المفكر، البهلوان الحكيم، صديق هارون الرشيد وعدوه، الفقير الذي يأكل بين عائلة الخليفة، هامش المدينة الذي يسكن في قصورها.. ولا يختلف البهلول عن ديوجين الفيلسوف اليوناني المجنون بشيء، وكان هذا الفيلسوف يتعرى ذات يوم تحت الشمس، وتوقف الإسكندر ليسأله عن بعض المسائل، فقال للإسكندر بعد أن أجابه عن أسئلته: الآن اذهب فلقد منعت الشمس عني.

أُرسل أسمر إلى مستشفى المجانين في منطقة الشمّاعية في ضواحي بغداد، وتظاهر هناك أيضاً بالضعف والمرض، ولما وجد فرصة للهرب، قفز من سيارة الإسعاف وتوارى بين الجموع، وعاش لأشهر مشرداً في شوارع بغداد، ابتلّ بالمطر، وجفت عليه ثيابه، برد، تدفأ، جاع، شبع،

اتسخ، تنظف، ومارس الجنس مع امرأة عطفت عليه، فأجلسته بالقرب من عتبة باب بيتها قالت له: ما اسمك؟ فلم يجبها، قدمت له «دولمة»، وراح يتناول الطعام بهدوء وبتلذذ برغم أن الطعام كان بارداً... هناك أشياء صار يقوم بها دون إرادته، تفرضها عليه الظروف، ولا يدري إن كان هذا بسبب ما حل به أو ربما بسبب الإذلال الذي لحق به، أو الذي مارسه هو على نفسه لدرء الخطر الأكبر، فلم يستطع السيطرة على مشاعره، أمام المرأة التي كانت تجلس قبالته وتراقبه كيف يأكل.. راحت دموعه تنساب على خديه، فانتبهت إليه المرأة، وقالت له: ما يبكيك؟ فلم يجبها، واكتفى بهزّ رأسه لها، قالت: ملابسك متسخة، رفع عيونه الدامعة باتجاهها، ثم واصل تناوله للطعام دون أن يتكلم، قالت له: أنا وحيدة، أيضا مات زوجي وتركني هكذا... وسافر ابني مع عائلته وسيعود بعد شهر، أو قد لا يعود، قالت: أتمنى لو أن شبابي الذي راح أن يعود، أنت تملك الشباب لكنك لا تملك العقل، فلم يرفع عيونه باتجاهها... أدخلته في بيتها ونزعت عنه ثيابه، وحممته بيديها، بينما كانت مستمرة بمحادثته... آه ما أجمل جسدك، وما أجمل لون شعرك، آه لو أعود إلى صباي معك، دلكت جسمه بالصابون المعطر، وغسلت رأسه، وبدا جسده لها مغرياً ونظيفاً، ولما ابتلت ثيابها والتصقت بجسدها وبانت بقايا مفاتنها الأنثوية، ارتعش جسده وتوترت أحاسيسه الذكورية التي نساها منذ أعوام...

واصل تسكعه كأي مجنون من مجانين المدن الشرقية، التي لا يفكر أحد بمأواهم، ومن الذي يرعاهم إن مرضوا، ومن يشبعهم إن جاعوا أو عطشوا، كان يحب الجلوس قريباً من المقاهي ليقدموا له أحياناً شاياً خارج المقهى، وفي أحيان أخرى يطردونه بعيداً عن المقهى.

برغم أن البرد كان شديدا، يظل يتجول في الليل باحثاً عن مأوى، فلا يحب أن يكرر النوم في المكان نفسه.. لئلا يثير أسئلة الناس عنه، أجبره البرد في الالتفاف ذات مرة تحت أشجار متدلية من أحد الأسيجة، لكنه لم ينم بسبب البرد الشديد، ولما بزغ الفجر وجاسته أشعة الشمس بدفئها، استسلم للنوم، ولم يستيقظ في المساء إلا على صوت انفجار مدوٍ واندلاع رشقات الرصاص.. وتجول في مناطق عدة، ونام بأماكن مختلفة.. بخرائب أو حدائق عامة، ونام عند دكات المحال التجارية، وتحت الشاحنات، وتناول أطعمة فاسدة من المزابل، وتناول أطعمة فاخرة في السرادق التي ينصبها أهالي الموتى لاستقبال المعزّين والمواسين، وعند أبواب المطاعم الفخمة عاش عيشة غريبة، عيشة الكلاب الضالة والقطط التي تبحث عن الطعام والمأوى في الخرائب والحدائق والساحات، وجابت به خطواته دروباً وأماكن لم يفكر في تخطيها أو السير بها يوماً، لا بل كان يسأل نفسه: من كان يتصور أنني أنام هنا أو أنني أجلس في هذا المكان، أو أنني لم أغتسل منذ شهر أو أكثر... كان يترك لخطواته حرية السير ويتبعها مثل المنوّم مغناطيسيّاً، فتسير ذاتياً في الدروب، قادته مرة إلى أطلال البناية التي تهدمت على عائلته، وبات هناك لياليَ كثيرة، ولكن لا أحد قد انتبه لوجوده، حتى كأنه صار لا مرئياً لهم، وذات يوم وجد نفسه في شارع المتنبي بين الكُتب والكُتّاب، كان جالساً على الرصيف قريباً من إحدى بسطات الكتب، وقد توقف قريباً منه رجلان، كانا يتجادلان على ما يبدو على التطور والتغيير والحرب الأهلية..

قال الأول: أعتقد أن الحرب الأهلية لا يمكن أن توقف التطور، لأن الحرية هي المسؤولة عنه وليس الحرب.

قال الثاني: لكن الفساد سيدمر كل شيء، ألم ترَ البناية التي ظهرت في قلب بغداد، إنها للسياسي الفلاني، والمول الكبير لفلان الفلاني.

فقال الأول: لكن هذا السوق يحتاجه الناس، صحيح إن أرباحه للفاسدين لكن الفائدة أصبحت متبادلة... في زمن الدكتاتور كانت الحكومة تمسك بكل شيء، ولكنها تحبس كل شيء أيضاً، وكان السارق الوحيد هو الدكتاتور، لذلك تطورت قصوره وازداد عددها، ولم ينتفع الناس حتى من فساده، بينما الآن صار الفساد كحافز للبناء والإعمار...

قاطعه الثاني: هذا غريب، أنت تروّج للفساد، إنهم يسرقوننا، فكيف ينفعوننا!!

قال الأول: لا.. لا يا أخي، الفساد فساد والسرقة سرقة، لكن هامش الحرية التي تعيشها الناس وإن كانت تقترب من الفوضى لا تمنع من التطور والازدهار، فالقضية هنا قضية تبادل منفعة ليس إلا، والدليل هناك دول تطورت في ظل الفوضى مثل كولومبيا وغيرها التي يسيِّر أمرها الثلاثي المعروف: المافيات، الفوضى، والنظام الفاسد.

قال الثاني: أنا أرى كل شيء قد تطور في العراق.. البنايات، السيارات، طرق السرقة، الفجور، الفساد والاتصالات.. وكل شيء يسير نحو الفوضى..

فقال الأول: الحرب مثل حرائق الغابات مدمرة، لكنها ضرورية لنمو أشجار جديدة وفتية.

وعندما فرغ الشارع في وقت الظهر، ومضى الكُتّاب والأدباء إلى

أهاليهم، ظل وحيداً حتى غلبه النعاس ونام، فلما أفاق وجد نفسه في ظلام دامس، ولا شيء غير رائحة الكتب والأوراق.

في كثير من الأحيان يترك قدميه لتسيرا حتى تتعبا، لكنه كان يعرف أن خطواته كانت تتجنب فقط المرور قريباً من بنايات السلطات الحكومية، فإن أفرادها يشكّون حتى في المجانين، خوفاً من التجسس أو حتى من الكلاب، لئلا تكون قد فخخها الإرهابيون.

كان أسمر برغم تعاسته يؤيد رأي الرجل الأول، لأن التطور الاقتصادي قد نما مع أزيز الرصاص هذا هو الواقع، إذ بَدأت السيارات الفارهة تنتشر حتى بوجود العبوات الناسفة والسيارات المفخخة التي تنفجر، ولاحظ كيف إن ملابس الناس تغيرت، فقد ذهب اللون الحائل وبدت الألوان الفاقعة تطغى، والنساء ترتدي البناطيل في بغداد بالرغم من المجاميع المتشددة التي تُحرّم مظاهر الرخاء هذه، وتعتبرها من مظاهر الاحتلال والانحلال، ظهرت مطاعم جديدة، وظهرت بنايات وجسور، قال في نفسه: الحرب الأهلية طورت بيروت، ولن تمنع بغداد من التقدم، للأسف هناك مدن يغذّيها دوي الحرب وجثث القتلى.

كان صوت المانوي في هذه الأيام أيام التشرد والجنون قد اختفى أو ضعف، ولم يضغط على أسمر، ولم يعاتبه على فعل هذا أو ذاك، فقط أحاديث بسيطة وتحذيرات من الأمكنة المريبة، حاول أن يقصّ شعره عند الحلاق، لكن أكثر ما يواجهه المجنون من صعوبة هي حلاقة شعره، فغالباً ما كانوا يطردونه من باب المحل، ولمّا نجح وحِلق شعره ولحيته هذه المرة، جلس في مدخل السوق حتى وجدته المرأة التي أطعمته في

بيتها ذات مرة، أعطته موزة، قشّرها وراح يأكلها، ولكنه نهض وتبعها إلى بيتها، وقبل أن تغلق الباب، اكتشفت أنه يتبعها، فخافت وصفقت الباب بقوة، لكنه جلس قريباً من الباب ثم تمدّد على الرصيف، لكن شلة من الأطفال العائدين مساءً من مدارسهم ظلوا ينادون عليه (هيه هيه مخبل...)، وضربه أحدهم بشيء ما في ظهره، وضربه آخر بحجارة، فسال الدم من رأسه، ولمّا رأوا ما حلّ به، هربوا وتلاشت ضوضاؤهم من رأسه المدوخ، وطنين الألم يعبر من بين أصابعه التي صبغتها دماؤه، ظلّ ممدّدا على الرصيف حتى حلّ الليل، ورأى من خلال عيونه الناعسة، كيف يزحف الليل على البيوت، وكيف تعود الناس إلى بيوتها، وتخفت ضوضاء السيارات، ويحلّ الليل الذي يقلقه أكثر ويثير همومه، ويجعل حواسّه تستطيل وتتمدد، لتعبر المسافات وتتخلل الجدران والنوافذ والأبواب، لترى ما لا يراه الناس، وتحسّ بما لا يشعر به البشر، حتى تختلط عليه الرؤية، ولا يستطيع أن يفرّق بين الوهم والواقع، وبين الحلم واليقظة، وأحيانا تقوده هذه الرؤى إلى داخل التاريخ، فيعيش مخاوف النبي ماني وقلقه على دينه وأفكاره، ويتجوّل معه في أزقّة بابل، ويمرّ من أبواب اليهود الذي سباهم نبو خذ نصر، واقتلعهم من جذورهم من المدن الحجرية، كأهالي الناصرة ونابلس والجليل ليزرعهم في رحم بابل، في مناخ ديني واجتماعي مختلف، ليجعلهم يتباكون بعيداً عن حائط المبكى، وهيكل النبي سليمان، وينتقمون من بابل في مخيلتهم وعبر حكاياتهم وأساطيرهم... فتستحيل عندئذٍ المسافات بينه وبين المدن والقرى والأرياف وتنطوي الأزمان، فيشعر ويتحسس أحجار دروب المدن التي اندثرت.. تتراءى له أشجارها الشائخة، نخيلها المتطاول،

سحنات وجوه فلاحيها ومترفيها، رعاة دوابها وتجار أسواقها، فالحوّاس تسير مثل الضوء، تمسح الأرض وتحط على الأماكن مثل الطيور، وتستطلعها بعيون مركبة مثل عيون اليعسوب.. معابد الصابئة المندائيين ومندا التعميد على دجلة، قطرات ماء التعميد التي تتلألأ من رؤوس العرسان، نار زرادشت الخالدة التي تتألق وتسري في الليل والنهار، اهتزاز نواقيس الأديرة حين تقرع، وخطى العابرين إلى الأسواق، وإلى حقولها وبساتين نخيلها ودروب مقابرها.

وعندما أفاق على قطرات المطر في صباح اليوم التالي ووجد جسده مغطى، وثمة ملابس ملفوفة بحقيبة صغيرة، وبعض الطعام ملفوفاً بعناية بكيس بلاستيكي، تناول الطعام وأخذ الحقيبة، شرب شاياً من إحدى المقاهي، وذهب باتجاه نهر دجلة، لم يستطع الوصول بسهولة إلى النهر بسبب البنايات التي تقع على شاطئه، وهو لا يريد إثارة الريبة عندما يصل إلى الشط، وظل يتجول حتى الظهر، ثم دخل إلى حدائق أبي نؤاس، وظل يتجول بين الأشجار، تأتيه رائحة شواء السمك المشوي فتثير كل غرائز الجوع فيه، دخل في أحد الحمامات العمومية في ملاعب الحدائق، وهناك نزع ثيابه وغسل جسده بالماء البارد، فطرق الباب عليه أحدهم.. وقال له ماذا تفعل؟ فقال له أسمر: عذراً أخي، لقد وقعت على الأرض واتسخت أنا وثيابي، وأنا مضطر لغسل جسدي بالماء البارد، فقال له بصوت آمر: لكن لا تتأخر، ثم سمع ذات الصوت وهو يبتعد: فقد ابتلانا الله بالسكارى والمشردين...

ارتدى الملابس النظيفة، وغيّر شكله وهيئته، وما إن خرج من الحمام حتى غيّر مشيته فصار منتصباً، ولمعت عيونه، وعادت إلى حركتها

الفضولية، واتسم وجهه بالثقة، عادت معاني القوة والتحدي تشع من سحنته الصارمة، وسمع صوت المانوي يقرأ أدعيته ويردد أوراده ويتغنى بحب الإله، فتّش جيوب ملابسه القديمة فوجد بعض النقود التي جاد بها المحسنون عليه، اتجه إلى البتاوين، وهناك تناول طبق رز مع مرقة فاصولياء ورغيف خبز، وشرب شاياً في المقهى المفضلة لديه، ثم اتجه إلى فندقه القديم، سلّم على صاحب الفندق بحرارة، فسأله صاحب الفندق عذراً أخي عرّفني على نفسك، كأني رأيتك يوماً ما؟ فاضطر أسمر إلى سرد قصة الاعتقال والسجن.

قال صاحب الفندق: آه عرفتك الآن يا رجل، لكنك تغيرت كثيراً ثم ضحك، لكن عذراً كيف تغيرت هكذا، كأنهم في السجن نزعوا عنك قناع وجهك... متى أُطلق سراحك؟

فأجابه أسمر: قبل أيام.

فقال صاحب الفندق: احتفظت بحقيبتك وبعض حاجياتك في المخزن، وناوله المفتاح، هل تريد أن تسكن هنا؟

فقال أسمر: إذا سمحت لي.. وبغرفتي القديمة، اعتذر صاحب الفندق قائلاً:

هي مشغولة الآن.. سنعطيك غرفة أخرى، أما الإيجار فستدفعه في نهاية الشهر، لكن اعمل فقط.. يا رجل.

قال أسمر: اطمئن يا صديقي، سأعمل.

قال له صاحب الفندق: هل تستطيع العمل معي؟

فقال له أسمر: أولاً أشكرك على اهتمامك وعلى ثقتك بي.. نعم سأعمل معك.

وفي صباح اليوم الثاني، بدأ أسمر عمله في الفندق بحماسة، فتارة ينظف غرفة غادرها نزيلها للتو، وتارة أخرى يفحص مسخنات المياه (الكَيزرات) العاطلة ليأتي بالمصلح لتقدير كلفة إصلاحها، وتارة أخرى يساعد صاحب الفندق بجرد النـزلاء، وعندما يكون قد فرغ من أعماله الرئيسة يعمل على الكمبيوتر، وينضد أسماء النـزلاء، ويدوّن الحسابات الداخلة إلى ميزانية الفندق والخارجة منه، اشترى ذاكرة متحركة (فلاش رام)، وراح يدون في أوقات فراغه ما يوحي به المانوي من تعاليم الديانة المانوية، الجديدة المستجدة حسب ظروف المناخ والطقس والحالة الاقتصادية، وحسب تغيّر الزمن والمجتمع والتطور الحضاري، وحسب الحالة النفسية والصحية للفرد.

قال أسمر: هذا هو الدين الحقيقي، الدين المتحرك.. دين يعقده المؤمن مع ربه بلا موارية ولا مراءاة.

قال المانوي: شرط أن يلتزم بالمواثيق الأخلاقية، ولا يلتزم بالطقوس السطحية، الطقوس اكتشفها الوثنيون.

قال أسمر: الدين المتحجر هو الذي يقسر أتباعه على الطقوس، ويغض البصر عن السلوك، وسيكون حجر عثرة في طريق التقدم البشري... ولكن كيف ننشر تعاليم الدين الصحيح يا مانوي في عصر فيه الصورة تتسيد على كل شيء، والأنترنيت والفيس بوك يبتدع الطرق في عرضها بطريقة تسلب الألباب.

قال المانوي: إذا أنت رحلت عن هذه الدنيا سأبحث عن شخص لديه القدرة الفائقة في الأنترنيت، عصر المعجزات انتهى وابتدأ عصر آخر.. عصر لن أستعجل بوصفه بعد، قد يتحول فيه البشر إلى حزم ألكترونية حيث ينتقل بين الروابط الألكترونية، وستبنى مدن ألكترونية وسيعلن دين ألكتروني لا يعرف أحد كنههُ بعد.

Telegram: @Arab_Books2

الفصل السابع

«اللّهُم، إني فشلت كما فشل الأنبياء من قبل في هداية الناس إلى الحب والرحمة، فلم تَبعث الأنبياء إلى الناس ليقيموا الطقوس.. كما يدّعي رجال الدين الآن، إنما ليعيش الناس مع بعضهم بسلام، لذلك، أتضرع إليك ياربي أن تأمر ملائكتك الصالحين للهبوط إلى الأرض لتغيير مفاهيم الناس وإدراكهم، ولتبسط الرحمة على العالمين».

هذه هي الآية الأخيرة والخاتمة من كتاب تعاليم النبي ماني الجديدة، الذي أنهيت طباعته وتنضيده في هذا اليوم، وحملته في ذاكرة ألكترونية «فلاش رام» بحجم إصبع الإنسان، وسأعلقه في رقبتي وسأحمله معي مثل تعويذة أينما حللت، بعد أن نسخته بعدة نسخ في كمبيوتر الفندق، وفي «أقراص سيدي»، ونشرته بمواقع ألكترونية عديدة في شبكة الأنترنيت وفي صفحتي الشخصية في برامج التواصل الاجتماعي الألكتروني، عبر رابط ألكتروني بعد أن وضعته في برنامج «بي دي ف» ليصبح غير قابل للإضافة أو الحذف والتشويه... وسيتمكن المانوي إذا أنا متُ أن يفتحه إذا وجد وسيطاً آخر بعدي ليواصلوا بثّ التعاليم إلى الناس، ويمكن للناس أن تقرأه في المستقبل عبر رابط كوني إن أراد الله أن يبثه على العالمين.

Telegram: @Arab_Books2

قلت للمانوي: إذن الأنبياء حسب رأيك فشلوا بإرشاد الناس للطريق القويم!؟

قال: الناس يا أخي لم يقتنعوا تمام الاقتناع بهؤلاء الأنبياء، ولو كانوا قد اقتنعوا لما ظهر هذا العدد الكبير من الأنبياء عبر حياة البشر الطويلة، كانت نسخ الأنبياء تظهر، ولم تزحزح قناعات الناس إلا قليلاً، كان الناس بحاجة إلى ظهور الرب أو إلى كائن آخر مثل ملائكة الله لتخبرهم بآيات ربهم، الناس يعرفون أن الأنبياء بشر مثلهم، وكانوا يعرفون تماماً الأخطاء والخطايا، فلم يكتشف الخطأ نبي، لأن الخطأ خطأ والصواب صواب، ولم يخبر الأنبياء الناس سوى أن الخطأ حرام، ويستحق مقترفه العقاب، بينما الصح يستحق الثواب.

قلت له: ولكن الأنبياء أخبروا الناس وأقنعوهم بأن هناك رباً واحداً، وهذا شيء كبير.

قال: من المضحك أن نحاول إقناع الناس بخالقهم، ألا تستحق مخلوقات هذا الخالق العظيم أن يطلّ عليهم عبر مسرح السموات ويخبرهم بأنه: خالقهم وخالق كل شيء، وينهي عذاب البشرية وأنبيائها من الأسئلة المدوخة.

* * *

بعد أن نفذت ما كنت أريده وبالاتفاق مع المانوي.. مكثتُ اليوم في غرفتي، في الفندق الذي أديره مقابل راتب بسيط والإقامة المجانية في واحدة من غرفه الصغيرة، شعرتُ بخفة في وزني وراحة كبيرة تعتري

جسدي، وتنبعث السعادة والأمل والطموح من نفسي أكثر من أي وقت مضى... ومثلما يزيح أحدهما ثقلاً ما من جسده، أو من يتوقف لينام بعد سفر منهك طويل، كنتُ اتأمل محدقاً في اللاشيء، ولكن بصري كان يتجاوز المكان الذي أتمدد فيه، ليعبر البحار والصحاري، يعبر الغابات والجبال والفيافي والحقول، يعبر المدن ويتخلل الشوارع ويجتاز البنايات والأسواق والمطاعم والمتاحف ومراكز التسوق... أُطالع سحنات وجوه الناس، أقرأ أفكارهم، أحلامهم، مخاوفهم، أتحسس الإحباط الذي وصلته البشرية.. فالإنسان يخاف من أخيه الإنسان، والبشرية طغت، بحيث إن التخريب في البيئة وصل إلى حد كان يهدد كل الكائنات من على كوكب الأرض ومن الوجود...

لكن مع ذلك، كنت سعيداً لشهر تقريباً دون أن يعكر مزاجي شيء، بينما أنا أحتاج إلى دهر كامل لنسيان ما عانيته بحياتي، إلا أن بريق السعادة بدأ يخفت في نفسي شيئاً فشيئاً.. حيث بدأت الأخبار تتواصل عن تقدم التنظيمات الإرهابية في المناطق الغربية في البلاد، ولما استيقظتُ وهبطت إلى استقبال الفندق ذات مرة وجدت التلفاز الصغير يعرض المذابح التي قامت بها المجاميع الإرهابية، جلستُ قلقاً من الأخبار لأن هناك أشياء يمكن أن تحطم كل ما أنجزته من المهام، لأنها كانت تستهدف الإنسان وتحطمه، كنت أطالع الأخبار التي تبثها القنوات الفضائية، عن جيوش الإرهاب، وهي تحتلّ المدن العراقية المتاخمة للصحراء الغربية، تُسبي نساء الديانات الأُخرى، وتبيعها لبعضها، أو تقايضها بالأشياء والأثاث والسيارات، ويحدث هذا تحت راية الدين الإسلامي، ويحدث هذا في الواقع، وليس في الخيال ولا في

التاريخ، لكن ما أثار مخاوفي وجرجرني خارج منطقة الهيام التي كنت أحياها، حدث ذلك، عندما تناقلت القنوات الفضائية خبراً مفاده حصار الدواعش لقبيلة البدوي، بعدما أُحتلِت إحدى القرى المجاورة وجُنِدَّ شبابها بالقوة وأُخذِت نساؤها سبايا... قال المانوي: سوف أصمت وسأترك المسلمين ليشاهدوا دينهم على حقيقته.

قلت حانقاً: ولكن من قال إن داعش وأخواتها تمثل الإسلام؟

قال: اسأل ضميرك، ولكن لا تتحيز.

فكرت بقبيلة البدوي وبشيخها، وحاولتُ نسيان الوجوه التي أعرفها من هذه القبيلة، وهم يُقادون كالأضاحي إلى الذبح، لكنني لم أستطع، ولمّا كنت قد سجلت رقم هاتف الشيخ في يوم ما، بحثت عن الرقم في دفتري الصغير، وما إن وجدته حتى اتصلت به مراراً ولم أفلح، ثم رنّ هاتفي فجأة فلا أحد يتصل بي عادة، وسمعت صوت الشيخ واضحاً.. لكن نبرة غريبة كانت تتخلله قال لي: (أُسر أبني وذُبح...)، كانت نبرة صوت الألم تعبر المسافات إلى مسامعي... (اذهب إلى النائب فلان الفلاني وهو من يمثل منطقتنا واطلب منه النجدة).

غيّرت هيأتي وذهبت إلى النائب في حي المنصور، أخذت موعداً من سكرتيره الخاص، وقابلته في اليوم الثاني، وجدت لديه ضيفاً خليجياً عرفته من لهجته وثيابه، أخبرت النائب بأمر القبيلة المحاصرة، فردّ عليّ ببرود وكان يظن أنني من أقارب الشيخ:

(... بن عمك الشيخ راكب راسه شوي.. عَجل ليش ما يتعاون مع المجاهدين ويفك عنا).

قلت له: رجال حمايتك بالمئات، أرسل عدداً منهم معي لنفك الحصار.

قال: (شنو أنت دا تحاسبني جاي).

قلت له: (إذا ماخايف على الناس خاف على سمعتك.. وأصواتك الانتخابية على الأقل...).

قال: (احنا نعرف نشتغل زين، مو أنت إللي ايعلمنا).

قلت له: (تقصد تعرف تَستغِل مو تُشتغُل).

قال لضيفه: (شفت شلون تعامل الناس ويانه وأنتم تعاتبونا...).

نادى حمايته، فطردوني خارج قصره.

اتصلت بالشيخ لأخبره بالأمر، قال: اذهب إلى مقر الحشد الشعبي فقد اتصلت بهم هذا اليوم وأبدوا استعدادهم لفك الحصار، لكنهم لا يعرفون الطريق إلينا.

وأرسل الشيخ لي رقم هاتف القيادي في الحشد الشعبي، اتصلت به وطلبت مقابلته، فأرسل لي سيارة ركبت بها من تحت نصب الحرية، إلى مقرّ مكتبه في الكاظمية، وجدت خمس سيارات متوقفة قرب المكتب الذي يقع في شارع المحيط، قابلت هذا القائد، وما إن جلست حتى اتصل بالشيخ، وقال له: هذا الشخص يدّعي أنت من أرسله لي، وأعطاه مواصفاتي وسأله إن كنت من أقربائه أو إنني «ثقة» وللتأكد من شخصيتي أغلق القائد هاتفه، وقال لي: اتصل بالشيخ بهاتفك، اتصلت بالشيخ وقلت له: أنا في مكتب القائد، وإنه يريد أن يتأكد من أنني لا أخدعهم وأوقعهم في كمين قال: أريد أن أُكلم القائد، وسمعت القائد يقول: على بركة الله إذن.

شعرتُ بهذه الكلمة تزلزلني من مكاني وتهزّ كياني، وبدت الكلمات والأصوات لي مثل وشوشة الريح، سمعت المانوي يقول لي: تمسّك بإرادتك.. أنت من النوع الذي يجد نفسه في خضم الأحداث، حيث لا خيارات كثيرة تطرح أمامك.

قلت له: كلا يا سيدي، أنا أُقحم نفسي بالأحداث هكذا، وبعد ذلك لا أجد طريقة للتخلص منها، فها إنني عاجز عن الإتيان برد فعل معاكس، مثلاً: أن أغلق الهاتف وأعود إلى عملي في إدارة الفندق لأنام في غرفتي، وأُطالع لوحاتي التي عَلقتُ بعضها على جدران الغرفة.

قال المانوي: لكنك لم تفكر بالتخلص من المهمة.. فالمهمة مهمتك إذن!

ارتديت بنطالاً عسكرياً كاكياً بجيوب بارزه على الفخذين مثل الجعب، وقميصاً أسود وعادت هيأتي.. وتراءت في مرآة نفسي صورتي القديمة، وكأنها قد عادت إليّ من جديد، وصرت أسمر الذي كان عضواً في تنظيم إسلامي متطرف.. أعطوني بندقية كلاشنكوف ودرع وجعبة مليئة بالعتاد، صعدت مع قائد المجموعة، وهو ضابط ملتحٍ رَبع الجسم وضخم الرأس... وقبل أن تنطلق بنا السيارات هتف الجميع بصوت واحد «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد»، انطلقت قافلتنا المكونة من خمس سيارات مع ثلاثين رجلاً، ومدفع رشاش كان محمولاً على إحدى هذه السيارات التي ترفرف على جوانبها أعلام كثيرة ملونة، اتصل الضابط أبو عيون وراح يتكلم بالفارسية، وكان يظن أنني لا أفهم كلامه سمعته يقول: سننقذ قبيلة بدوية سنية من حصار الدواعش، وسمعته يقول

إن ذلك الأمر سيفيد المذهب في تلك المناطق، لأنها رسالة اطمئنان إلى السنة هناك... لكنه حينما أغلق الخط قال: (بس هذا هم راح يفيد وياهم لو لا يالّه سوي خير وذب بالشط).

كان ضابط هذه المجموعة رجلاً قوياً من الرجال الذين لا يمكن معرفة عمره تحديداً، مع أن رأسه قد ابيَضَّ، ولا تُرى غير شعيرات سود متباعدة، وهو من الذين التقيتهم صدفة في إيران إبّان الهروب والتشرد هناك، لكنه لم يعرفني بعد، إذ إن لقاء قصيراً جمعنا يوماً في إحدى مقاهي طهران، وعلقت صورته في ذهني، لأن عينه اليسرى كانت داكنة السواد مثل خرزة مسبحته الطويلة.. بينما اليمنى كان لونها عسلياً غامقاً، عيناه غريبتان، تشعرانك أن له وجهين قد ألصقا مع بعضهما بطريقة ما، فصفحة وجهه اليمنى لا تشبه اليسرى، وكأنها لرجل آخر.

كنت أجلس خلف هذا الضابط في سيارة بيكب نوع نيسان، دفع رباعي.. كانت تتقدم قافلة السيارات، وكنت أسمع صوته يهمس بقراءة آيات لم أستطع التعرف على كلماتها، انطلقت بنا السيارات منذ ساعة تقريباً وكان الراديو يبثّ أخباراً سيئة عن الحرب والمهجرين، ومناكدات بين نواب كانوا يتقاتلون بالحروف والكلمات، وكان ضابطنا أبو عيون يتدخل في هذه المناقشات، وكأنه يكلمهم ويطلق تعليقات ويقهقه وحده (تعال للواقع مو تجلس ورى ميزك وتحجي انزل للميدان...) ثم شتَمَ كل من يتكلم على الحشد...

لاحت لنا أخيراً من بعيد المأذنة الملوية... وما إن دخلنا إلى مدينة سامراء حتى قرأت الخوف والحذر يسري بين دروبها، توجهنا مباشرة

إلى ضريح الإمام علي الهادي وضريح الإمام الحسن العسكري.. مفكراً بالساعات التي قطعها الخليفة العباسي المعتصم بالله للخروج بجيشه إلى منطقة «سُر من رأى» وبناء عاصمته، بعد أن رفض أهالي بغداد جيشه المكون من السلاجقة والأعجام، إذ إن مواجهات اندلعت بين الأهالي العرب وبين حامية الخليفة، فالأهالي عادة لا تُرحب بالجيوش، وما بالك لو كانوا من قومية أخرى.. لكن ما الذي حمل الإمام علي الهادي إلى السكن هنا، حيث لا أتباع له يتبعونه من الجند التُرك، ولا هو مرحب به من قبل الخليفة، فالأئمة عادة هم من يعيشون على هامش السلطة، فلو سألت الآن الضابط أبو عيون.. فربما سينقل لي رأياً لم أسمع به من قبل.. رأياً تاريخياً وأنا من الذين يشكون في التاريخ، فرواية تفجير ضريح الإمامين العسكريين التي حدثت في عام 2006 لم يتفق عليها الناس إلى الآن، وسمعت عشرات الروايات التي تحدثت عن هذه الحادثة، التي أجّجت الحرب الأهلية في بغداد، قلت متعمداً بصوت مسموع: (اشجابك من نجد والحجاز وخلاك بين الجنود الأتراك وتصير جيران الخليفة)، وكأن الضابط عرف ما أقصد أو لربما كان يستعرض معلوماته قال: أرسل المتوكل سرية من جيشه التركي إلى المدينة المنورة، لإرغام الإمام علي الهادي لمغادرة مدينة النبي والمجيء به إلى «سُر من رأى»، بعد أن بنى المسجد الجامع بمأذنته الملوية المرتفعة عن الأرض بنحو 52 متراً، ليضعه تحت ظلها وتحت الإقامة الجبرية، وتحت ناظري جنده، لأن الناس كانت تلتف حول الإمام أكثر من الخليفة، فظل الإمام يرثه خلفاء بني العباس ورثاً مثل كرسي حكمهم، حتى عاصر بعد المتوكل المنتصر بالله والمستعين بالله والمعتز بالله...

كان هذا الضابط يعتقد بأنني سنيّ المذهب، لهذا فقد كان حذراً بحديثه عن الإمام، وربما هذا هو السبب الذي جعله لم يتعرف عليَّ، لأن العقل ينخدع أحياناً، فبما أنه يعتقد بأنني سنيّ لهذا استبعد عقله احتمال هروبي إلى إيران، إبّان حكم النظام السابق، فآليت أن لا أتكلم عن مذهبي الحقيقي، لئلا يتعرف عليَّ، وحتماً عنده معلومات عن أسمر الذي صار إرهابياً...

غادرنا سامراء منذ ساعة تقريباً بعد أن تناولنا غداءنا في أحد المقرات العسكرية، اتصل الضابط أبو عيون اتصالات عديدة، كان آخرها مع شيخ العشيرة المحاصرة، أشرت إلى السائق بالاتجاه الذي أريده، فانطلقنا بطريق ترابي مختصر في قلب صحراء سامراء، ولفترة تجاوزت الساعة والنصف حتى اختفت معالم الأشياء إلا الرمال كانت تتماوج لعيوننا، حتى لاحت لنا من بعيد أطلال بيوت مهدمة وحولها أحراش شجيرات مثل التي تنمو بين المقابر، قال الضابط: هذه البيوت يحتلها داعش، وقفت السيارات ونزل منها الرجال، وسمعت اصطفاق أقسام البنادق، فخفق قلبي بين ضلوعي، واهتز شيء ما في داخلي، كوّنّا صفاً طويلاً يتقدمنا أبو عيون، بينما ظلت السيارات خلفنا الواحدة تلو الأخرى، وهي تسير سيراً بطيئاً، انبطحنا على الرمل بعد أن ضربت صلية من الرصاص الرمال، فتطاير غبارها في الهواء، صاح الضابط ابو عيون: الهاونات، فنصب رجالنا مدافع الهاون عيار60ملم، وبغضون دقائق قصفناهم بالقنابل، لكن القصف كان بعيداً عن أطلال البيوت، فأعطى الضابط إيعازاً آخر، وانطلقت القنابل فسقطت بعضها قريبا من مقراتهم.. فصاحت الأصوات «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد»،

ثم دوت هاوناتنا مرة أخرى بعد أن نظر الضابط أبو عيون بمنظاره، وشاهدنا الدخان يتعالى من إحدى المقرات، ضربت صلية أخرى الطيات الرملية القريبة منا، وسمعنا أزيز قناصاتهم، صرخ القائد بسُوّاق السيارات لإبعادها عن مرمى رصاصهم، ولما تراجعت السيارات إلى الخلف، وانتشرت بين طيات الرمال، رشقونا بصليات أخرى، وسقطت قريباً منا قنابر هاوناتهم، فصاح الضابط اقصفوهم بالهاونات، انطلقت قنابر هاوناتنا باتجاههم، فدنوت من الضابط وقلت له: إعطِ أوامر للرمي بالمدفع الرشاش، أعطى إشارة بيده، فتقدمت سيارة الشوفرليت، واقتربت من الضابط الذي اعتلى مقعد المدفع الرشاش، وأمر السائق بالتقدم، وبينما كانت سيارتنا تتقدم، انطلق رصاص الرشاش باتجاههم، وتقدمنا من وراء السيارة بصولة راجلة، أمر الضابط حاملي الهاونات لنقل الهاونات، صرخ مساعده: أطلقوا نحوهم قبل أن تنقلوها فصاح الضابط: أحسنت، نفذوا ما يقوله لكم، انطلقت قنابلنا في الوقت الذي ضرَبَنا وابل من رصاص رشاشتهم، تطاير خلالها الغبار والرمال، وسمعت صوت ارتطام إحدى الرصاصات بقاعدة الرشاش، دوّت الرشاشة الأحادية التي يعتلي مقعدها ضابطنا باتجاههم، مما أعطى فرصة لحاملي الهاونات لنقل هاوناتهم، لكن قنابر هاونات العدو سقطت بدويها الرهيب قريباً من أجسادنا، فطمر بعضنا بالرمال، ودوى المدفع الرشاش رافعاً معناوياتنا التي انهارت من جراء قصفهم لنا، ثم سمعنا طنين رصاص قناصاتهم قريبا منا، فتخيلت الخطوط الوهمية التي يرسمها منظار القناص على جبهتي، فصحت لحاملي الهاونات أحثهم لنصب هاوناتهم، وأحثّ نفسي لمحو الخطوط الوهمية التي

كنت أتخيلها مرسومة على جبهتي، فلما انطلقت هاوناتنا كانت قذائفها مشتتة عن أماكن العدو، فصرخ معاون الضابط لتعديل قواعد الهاونات، وأعطى أوامر أخرى، فسقطت قنابر الهاونات بعيداً عنهم أيضاً، فدوّت رشاشة الضابط من جديد، رأيته يقف وهو يدير الرشاش من جهة إلى أخرى، دوّت هاوناتهم فسقطت بيننا أيضاً ورأيت الدماء تسيل من ظهر الضابط، لكنه استمر يرشّهم بالرصاص غير عابئ بما حدث له، انطلقت ثلاث قنابر من مدافعنا، فسقطت على البنايات، فصرخ الضابط بحماس: كرروا على الهدف نفسه، فصرخ مساعد الضابط المسؤول عن مدافع الهاونات بالإيعاز نفسه، فانطلقت أربع قذائف من مدافعنا داكة الهدف، صرخ الضابط علينا بالتقدم.. وأمر رامي سلاح البيْ كَي سِي أن يمشط قريباً من الأهداف، تقدمنا نحوهم راكضين، لكن الرصاص المنطلق نحونا أحال دون تقدمنا، وسقطت عدة قذائف خلفنا، فأصيب واحد من رماة المدفعية، رأيت مدفعه مطروحاً على الأرض، بينما جسد الرامي مرمي بعيداً عن المدفع، أعطى الضابط أوامر بالتقدم صارخاً بصوت أجشّ (يا الله.. يا محمد.. يا علي)، بينما استمر هو برشّ الأهداف بالرصاص، ومثلما أمرنا أطلقنا نحوهم الرصاص رافعين بنادقنا فوق رؤوسنا، وبينما كنا نتقدم نحوهم راكضين رأيت ثلاثة أو أربعة رجال منا ينقذفون إلى الأعلى قبل أن يسقطوا على الرمال بفعل قنبلة يدوية أو عبوة ناسفة.

* * *

كان بودي أن أشرب كل الماء الذي معنا.. هكذا أعبّه بجوفي دفعة

واحدة، سمعت أحد الجرحى المصاب ببطنه ينادي بصوتٍ خفيض (ماي.. ماي)، كان وقع صوته في أذني يشبه سقوط قطرة الماء من مرتفع، فزاد صوته من عطشي أكثر، كنت أعرف أنه سيموت، لذلك تسمّرت عيوني بوجهه بلا إرادة مني، وتلاشى ألم ذراعي، عندما رأيت ظهر الضابط أبو عيون المشعر مصبوغاً بالدماء، ولكنه كان غير عابئ بالألم ولا بالدماء، أعطى أوامر قبل أن يتمدد ليُلف ظهره بالضمادات، محذراً من العبوات الناسفة التي يتركها العدو قبل أن ينسحب.

قال: إصابتي سهلة أليس كذلك، وكأنه يُطمئن الآخرين، وبينما كان يجلس ليرتدي قميصه المدمى، اتصل بآمر الفوج قال: حررنا الهدف ونحتاج إلى مدد، فقدنا أربعة شهداء، وخمسة مصابون، قال الرجل الذي يضمد الجرح: الجرحى سبعة.. سيدي، قال له: أنا ليس بجريح ولا الأخ. وأشار نحوي وغمزني بعينه السوداء، فهززت رأسي موافقاً، اتصلت بالشيخ قلت له: وصلنا، اصمدوا، وسمعت الشيخ ينقل البشرى إلى أفراد قبيلته.

كانت إصابتي بسيطة في ذراعي الأيسر، لكنني فقدت الكثير من الدماء، ولكن كان باستطاعتي أن أحركها، أمّا الضابط أبو عيون فقد أصيب بجرحين بسيطين، في ظهره وفي كتفه، حصلنا على بعض الأسلحة والأعتدة الخفيفة وقنابر هاونات، فقد تركها العدو قبل أن ينسحب وقرأنا بعض شعاراتهم على الجدران المسودة مثل: خلافة على نهج النبوة،، فلكزني المانوي قائلاً: آيات نبيكم وكلماته صارت بنادق تطلق الرصاص على الناس، قلت له: بل حوّروها حتى صارت بنادق وأعتدةً وقنابر.

تركنا نصف رجالنا عند الهدف المحرر، وتقدمنا نحو خيام القبيلة... مررنا بجثث عديدة غارقة في دمائها، بينما عَلَم الدواعش الأسود لايزال يرفرف على بعض التلال القريبة، أنزلناه، ولفّ أحدنا هذه الراية ورماها على السيارة المحترقة، اعترض الضابط ابو عيون قائلاً: عليها اسم الله نزّلها ولا ترمها هكذا.

صارت بندقيتي أكثر ثُقلاً من ذي قبل، والعطش بدأ يزداد أكثر، رأيت الضابط أبو عيون يرطب شفاهه دون أن يشرب، ناولني مطارة الماء.. وقال: لا تشرب، وما إن وضعت شفتي على الماء حتى رمقني بعينه العسلية، وقال: هاتها.. إذا شربت ستنـزف أكثر.

نظر أبو عيون بمنظاره لاتجاهات عديدة، ثم اتصل بأحد السُوّاق وقال الدرب آمن.

تركنا خلفنا سيارتين ومساعد الضابط الذي انشغل بتوزيع الرجال على النقاط، ومضينا بالسيارات ثم توقفنا، وأطلق الرجل الذي يعتلي على مقعد الرشاش عدة صليات في وادٍ تتلاشى نهايته في البُعد، قال أبو عيون من هنا انسحبوا، توقفنا عند مدخل الوادي منبطحين على الرمل، وأمر أبو عيون بإطلاق قذائف الهاون، فأنزلنا الهاونات بسرعة وثبتناها بقواعدها وأطلقنا عدة قنابر عشوائية في الوادي، لنخبرهم بأننا سيطرنا على هذا الموقع وأنهم تحت مرمى مدافعنا.

كانت الشمس تميل مُحمرَّةً نحو الأفق البعيد الذي ترسمه خيام القبيلة، والرمال تتطاير خلف قافلتنا حاجبة كل ما خلفناه وراءنا من هضاب، وظهر الشيخ ومعه مجموعة من الرجال كانوا يدورون على

نقاط الحراسة.. تركوا مهمتهم، وجاءوا ليستقبلونا في إحدى النقاط بالأحضان، أطلق الشيخ عدة أعيرة نارية نحو السماء ابتهاجاً بوصولنا، وعندما عانقني قلت له هامساً: اسمي ماني وليس أسمر، قال: كأنك شخص آخر، قلت: أعرف ذلك وهذه نعمة من الله... الناس تنساني بسهولة.

ولم تمر إلا لحظات حتى سمعنا هدير الطائرة المروحية، اتصل أبو عيون في مقر الفوج، وأخبرهم: بأن الحصار فُكّ عن القبيلة، وأن إحدى الطائرات الصديقة كما سماها يُسمع هديرها في السماء، قال لهم: لدينا جرحى من أفراد القبيلة، وجرحى من الحشد الشعبي أيضاً، أعطاهم إحداثيات الموقع الذي استطعنا انتزاعه من العدو، وإحداثيات موقع خيام القبيلة، سمعنا ضجيج المروحيتين قبل أن تهبطا قريباً من الخيام، نقلنا الجرحى، وأنزلنا المؤن والعتاد ووزعناه بين أفراد القبيلة، وذهب عدد من رجال البدو لمساندة الفصيل الذي تركناه خلفنا، اتصل ضابطنا بمساعده ليخبره بالأمر، وسأله إن كانت هناك مستجدات في الوضع.

وعند العشاء، الذي شارك فيه كل رجال العشيرة، من الذين تعاهدوا على الموت في سبيل شرف العشيرة، التي يهددها أفراد داعش بالخضوع، قال شيخ العشيرة: طبعاً.. الرجال على أصناف: منهم الأصيل الذي يموت ولا يستسلم للظلم والهوان، ومنهم النذل الذي يقف مع القوي فيلتف بعباءته ليلتقط فتات ما يترك من فرائس، وهناك الضعيف المستسلم الخانع الذي يفكر بالهرب قبل أن يفكر بالحرب، وهناك الخائن: الذي يدعو العدو للنيل من شرفه، لكن مع الأسف عرفت بعضهم في قبيلتي، وهم الآن مع العدو، وأما أهل النجدة والنخوة، فقد

قطعوا المسافات، وتلقوا الرصاص بصدورهم، حتى لا تمس أعراض الناس وها إنهم بيننا.

* * *

كنت صاحياً حينما أيقظوا أسمر لنوبة الحراسة، وسلموه ورقة صغيرة كتب عليها سر الليل «قوات بَدر منتصرة»، أردت أن أقول له وماذا عن «قوات أُحِد»، لكن الوقت كان غير مناسب.. فمازال النوم يقيد حوّاس أسمر ولم يطلقها بعد، كان بودي أن أقول له: جميعنا يحب الارتباط بالمنتصر، ولا أدري إن كان ذلك يحدث للتفاؤل أم إن الضعف البشري هو من يحثنا للتشبث بالأقوى، وكان بودي أن أقول له أيضاً: إن المعارك القديمة لم يستطع التاريخ أن ينقلها بحيادية تامة، فمعركة شهيرة مثل معركة بدر كانت قد حدثت بعد أن منع المسلمون قافلة المشركين من شرب الماء من آبار بدر فحاولت حامية القوافل، أن تقتحم جيش المسلمين لفك الحصار، لكنها لم تستطع، لأن المهاجمين قُتلوا جميعهم فنهبت كل القافلة.

كان للمسلمين في ذلك الزمن هدف، وهو إنهاك وتحطيم أهالي مكة اقتصادياً، بعد أن قطعوا دروب القوافل، ومنعوا شريان الحياة أن يتدفق بين أهالي مكة، فحوصر المكّيون وجوعوا، حتى انهارت المدينة شيئاً فشيئاً، فدخلها جيش المسلمين في يوم الفتح العظيم، فقال الرسول (ص) قولته الشهيرة لأعدائه «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وبما أن الناس تحب أن ترتبط بالأقوى أو المنتصر.. أسلموا جميعهم، لكن هؤلاء الطلقاء الذين أسلموا بالقوة، عادوا إلى الحكم فيما بعد، وحكموا على طريقتهم القديمة لكن

بثياب الرسول وعمامته فقط... وأردت أن أقول لأسمر حتى التاريخ يحب أن يتبع الأقوى، لأن التيار القوي لا يجري ولا يمضي وحده فالضعفاء دائماً مايرافقونه مثل أسراب أسماك صغيرة...

ارتدى أسمر قميصه، وشدّ جعبة العتاد على صدره، وأمسك بندقيته، لكن جرح يده كان ينبض مثل قلب آخر، فقال لنفسه: يحتاج هذا الجرح إلى ضماد جديد... وما إن خرج من الخيمة حتى شعر بنسيم لذيذ لفّ أعضاء جسده، فاستيقظت كل جوارحه، فتلاشى ألم ذراعه شيئاً فشيئاً، وبالرغم من حرارة شهر آب حيث يتحول الرمل إلى جمر متطاير في أوقات الظهيرة، إلا أن هواء الصحراء هذا كان يتحول إلى هواء منعش في ساعات الليل، مشى لبضع خطوات وسط الظلام.. كان صوت خطواته مسموعاً، فنحن إذن في الربع الأخير من الليل، وقبل أن يصل إلى الربوة جلس القرفصاء ووضع أذنه لصق الرمال، فسمع خُطى كثيرة قال في نفسه: لعلها خطى الحراس من زملائه.

قلت له: لا، ربما حوافر المواشي... وقلت: أجلس، أفضل وضع في هذه الحالة هو الجلوس، لأن اصطياد الحارس يكون صعباً في هذه الحالة، ويمكن أن تكتشف الدخلاء من بعيد، النظر من الأسفل في الليل يكون أقوى.

قال: أنت صاحي يامانوي.. إذن، قم بالجولة على نقطة الحراسة ونبئني بالأخطار..

قلت له: ومتى سلمت للمانوي التحكم بجسدك.. وهل تستطيع التنازل عن حكم، وعن سلطة التحكم بكل حواسك..

قال أسمر: إذا تعلق الأمر بالموت والبقاء.. ولكنك لا تستطيع أن تسيطر على مشاعري، والفرق كبير بين الحواس والمشاعر.

تمدد وراح ينظر إلى النجوم وقال لي: ها مانوي... ألا تعني لك هذه النجوم بشيء؟

قلت له: نعم، أشعر بضآلة نفسي حينما أنظر لها، وكأنني من عالم آخر، ولكن حين أتذكر أنني جزء من هذا الكون تتلاشى كل مخاوفي.

قال لي وهو يطالع النجوم: عندما أتأمل أدوار حياتي الماضية وأقرأها مثل شخص غريب، أتساءل عندئذ: هل يعقل أنني أسمر الذي تغرّب في إيران، ونفسه الذي صار قاتلاً، ثم صار مجنوناً، أيها المانوي هل يعقل أنا الشخص نفسه!؟

قلت له: إذا تغيرت رؤية الإنسان صار إنساناً آخر، وهذا ما يجب أن يحدث.

ولمّا حلّ الصباح، واستيقظت الإبل والأغنام وقوقأ الدجاج من فوق أقنانه، وانجلى غموض الليل عن خيم البدو، وسَجّرت النساء تنانير خبزها، وبانت من بعيد كتل التلال والروابي والوديان، التي لا تزال تسكنها الظلمة بعد.. شعرت بأشياء تظهر وتختفي في نفسي، لكنها تبدأ بالنمو في مكان آخر من ذاكرتي أو مخيلتي، ولكنني لا أستطيع أن أفرق بينهما، ولا يمكن أن أسيطر عليهما كذلك، فتبدو لي مثل أجداث وهياكل مندرسة ومتفتتة عظام هياكلها وجماجمها، ورويداً رويداً ومثلما ينمو النبات، كانت اللحظات تتسارع في عوالمها المجهولة، فتظهر الوجوه والأبدان، ثم تبين معالم الوجوه وتتشكل هيئاتهم وتتكامل، حتى

عرفت بعضاً منهم، وكان أسمر واحداً من الذين عرفتهم، إذ إن ابتسامته المعهودة ارتسمت للحظات وتلاشت كما تلاشى جسده واندثر ثانية بين الرمال...

سلم أسمر نقطة الحراسة إلى رجل يشبه صاحبه البدوي، الذي مات من أجل الثأر، ابتسم له وحياه، فقال البدوي: أحسنت.

قال أسمر: لم أحسِن، هذا واجبي، وذهب لينام برغم طلوع الفجر... ليجد نفسه في صحراء، حيث تتلاطم أمواج الرمال وتحتدم فيُرى من خلال الرمال وجوه الإرهابيين الست تمزقها الرمال وتعيد تشكيلها أذرعها الكثيرة... استيقظ أسمر على أصوات انفجارات قريبة، فنهض مرتبكاً وقد تبددت لحظات الكابوس من نفسه وتلاشت مخيلاتها المخيفة.

قلت له: لا ترتبك، العدو يقصف مضارب القبيلة، ولمّا عرف أن هاونات الدواعش لم تصب أهدافها، قال لي: ربما سيبدأون بالهجوم يا مانوي، ففي الحلم قصفونا ثم بدأوا بهجومهم...

فتناخى الرجال يتقدمهم الضابط أبو عيون وشيخ العشيرة، بعد أن أمر الضابط بالردّ على الهاونات بالهاونات، واتصل بمكتب القوات، وتقدمنا على الجهة التي انطلقت منها القنابر على مضارب البدو فتصارخت النساء، وما هي إلا ساعة، حتى اشتبكنا مع العدو بالسلاح الخفيف، وظهرت في السماء طائرة مروحية، وأطلقت من علوها الشاهق عدة صواريخ، انتهت المعركة لصالحنا وبعد الظهر، وصلت وحدة من الجيش العراقي، وهبطت الطائرة المروحية قريباً من الهدف،

حيث هناك جثث من الدواعش، وتم تصوير مكان المعركة، فقلت لأسمر: رافق أبو عيون، وهذه فرصة لَتبييض صفحتك التي تلوثت، قال: أوَ تشعر يا مانوي بهذا، وفعلاً.. أُجريت لقاءات مع الشيخ والضابط أبو عيون، وتحدث أسمر عن المعركة والأهداف التي تم تحريرها.

* * *

من خلال التلفاز الصغير، الذي يحتل أحد أركان صالون حلاقة نعيم، ظهر أسمر وهو يتحدث عن المعارك التي يخوضها الحشد الشعبي في الصحراء الواقعة بين الفلوجة وسامراء، مؤشراً بيده المضمدة من جراء جرح أصابه أثناء القتال، كان وجهه لا يختلف عن أبو عيون القيادي الشهير في الحشد الشعبي، حيث اللحية الخفيفة مختلطة بها الشيب الخفيف الذي يغطي ذقنه، فأراد أن يتكلم أحد الجالسين عن أسمر: (مو كَلت الكم ما معقولة أسمر إيصير ارهابي....)، فاعترض الجميع قائلين: نريد أن نسمع وأن نرى هل هو نفسه، فهناك اختلاف يبدو وجهه أطول هنا وأكبر سناً... فاحتدم النقاش على شخصيته، وقال صوت: هذا ليس أسمر هو يشبهه فقط، وفي التلفاز لا يدري أسمر عن النقاش الحاد الحاصل في حلاقة نعيم، فهناك من لم يستطع التعرف عليه، وهناك من أكد أنه هو بدمه ولحمه... فتكلم أسمر عن طبيعة أرض المعركة والأسلحة المستخدمة بها، ولأهداف الدواعش المحتملة عند السيطرة على هذه الصحراء، وطريقة قتال الدواعش، شرح ذلك بطريقة أذهلت حتى الضابط أبو عيون، وأنهى كلامه بضرورة دخول رجال العشائر مع الجيش والحشد الشعبي، مشيداً بشيخ العشيرة والضابط أبو عيون،

مشيراً إلى شجاعته ورفضه الإخلاء برغم أن أصابته في المعركة الأولى لفكّ الحصار عن القبيلة.

احتدم النقاش في صالون حلاقة نعيم عن أسمر، وعن الجهة التي يقاتل معها، قال أحدهم: (صاحبنا رجع لنفس المليشيا التي جاء معها من إيران.. صُبيها جبيها).

قال الآخر: (طبعا هو منو كَلك جان عايف هذه المليشيا، بس جِانت عنده مهمة مكلف بيها.. وهذي طريقة اخترق بها المليشيات الأخرى، أسمر موهوب بالتخفي والظهور، ليش مو كل يوم انشوفه غير شوفه.. أمره غريب والله).

قال الآخر: (بس منو كال الكم هو مو ويا الإرهاب وبهاي الطريقة راح يخترق الحشد، وهسه راح يدمرهم تدمير.. يابة اله إنكَل إلكم مخابرات أمريكية، لان سمعت يكولون أسمر مجنون بمستشفى المجانين.. شنو قابل طنطل والله ما عرفنا الولد هاذ، كلساع يطلعنا ابمكان).

قال نعيم الحلاق: (اشتحججي.. لو مخابرات امريكية جان وضعه صار زين.. تدري بيه ايتغدى ما يتعشى وحال حال، هم كلولي عايلته ما راحت بالتفجير.. وهذا سيناريو وكلاوات).

* * *

مر أسبوع على تواجدهم بين أفراد القبيلة، وما إن جاءت التعزيزات حتى تحركوا إلى هدف آخر، ودّعهم رجال القبيلة بالأحضان، وكأنه الوداع الأخير، ركبوا في سياراتهم، وما إن انطلقت بهم حتى أطلق رجال

القبيلة رصاصهم باتجاه السماء، ثم اختفت الخيم وقامات الرجال خلف سحابة من الرمال.

غادروا القبيلة منذ ساعات، بعد أن جاء فوج من الجيش العراقي، وانتشرت مدفعيته ورشاشته المتوسطة حتى حدود الوادي القريب من خيم البدو... إذ تبدو قافلتهم من بعيد مثل زوبعة من الرمال والغبار المتحرك لكن زجاج السيارات يجد فرصة بين لحظة وأخرى فيرسل التماعة يظهرها ثم يخفيها الغبار.. في حين كانت الأشياء تبدو على غير هيأتها لعيون أسمر، فالصحراء لم تعد الصحراء التي يعرفها، ولا هيئات الرجال الذين يعتلون السيارات المكشوفة، وهي تتحرك بين الأحراش، صار كل شيء مقلقاً ومثيراً للريبة، برغم أن عددهم قد ازداد، والانتصارات التي حققوها أضافت لهم قوة معنوية، فالعدو نادر ما يقاتل وجها لوجه، وهذه هي المشكلة، إنهم يقاتلون عدواً غير مرئي، وكأنما يقاتلون أشباحاً، العدو خطته الغدر بالعبوات الناسفة، حيث يفخخ كل شيء، الأشجار، الجثث، البيوت المهجورة والكتب الملقاة على الأرض، فما إن ترفع هذا الكتاب، حتى لوكان القرآن الكريم نفسه، فستتحول إلى جثة محترقة...

وكانت مخيلة أسمر تخطط لرسم أشياء أخرى، ترسم القرآن الكريم المفخخ مثلاً، أو ترسم الخطر مثلاً على أشكال مختلفة، لكن في أحيان أخرى، كان الخطر يظهر لمخيلته كوجوه بمعالم مألوفة غير أنها تخفي بين سحناتها أشياء غامضة ومحيرة، ولكن في أحيان أخرى يصير رسمها ممكناً مثل الهيئات التي تطارده في كوابيسه، غير أنها لا تدوم طويلاً حتى يمكن للمرء أن يركز عليها، إنها في تَبَدُّل دائم، فراح أسمر يتخيل هذه

المعاني بأنها: الأكاذيب ذاتها، وكانت تتجسد له حتى إنه تذكر ما قاله بيكاسو عن الفن: « هو الكذبة التي تجعلنا نكتشف الحقائق».

مرت ساعات عديدة، كانت السيارات تسير بدروب غير مطروقة اجتازت القافلة خلالها وديان وتلال عديدة وانطوت عبر المسافات المتباعدة، تمر السيارات أحياناً على أطلال بيوت مهدمة تثير الريبة، وهياكل سيارات محترقة وشجيرات معلقة على أغصانها أكياس نايلون وأوراق صحف قديمة وأسمال ثياب متسخة...

قال أسمر موجهاً كلامه إلى الضابط أبو عيون: من يقاتل الآن في «آمرلي»؟

قال أبو عيون: الأهالي وهم محاصرون منذ شهر أو أكثر.. لو دخلت داعش إلى هذه المدينة سَتُرتكب أكبر مذبحة في تاريخ البشرية.

سأله أسمر: لكننا لا نستطيع فك الحصار، الجبهة عريضة والمدينة مترامية.

قال أبو عيون: لا لا نستطيع، سنتسلل لنقل الإمدادات ونقاتل معهم حتى تتحرك فيما بعد فرق الجيش لفك الحصار.

قال أسمر: وكيف نستطيع التسلل ونحن لا نعرف دروب المدينة!؟

ربت أبو عيون على ظهر السائق قائلاً: الأخ من مدينة آمرلي، وهو يحفظ دروبها عن ظهر قلب.

وقبل أن يحل الليل عسكروا قرب أجمة من الأشجار، وصلّوا صلاة المغرب وتناولوا عشاءهم، ثم ذهب السائق وبيده بندقية وفي الأخرى

المنظار الليلي مصطحباً معه أحد المقاتلين، وبعد ساعة عادا، فتحركت السيارات دون أن تضيء مصابيحها، أمر أبو عيون أن تتباعد السيارات عن بعضها، لئلا تتضرر جميعها عند انفجار عبوة ناسفة.

لم يكن الظلام شديداً في هذه الليلة، فبقايا القمر الآفل تظهر أحياناً وتختفي بين سحب من الدخان المتلاشية بين رذاذ النجوم المتلألئة في سماء شهر آب، لهذا تبدو صفحة السماء رصاصية في النهار، وتفقد في كثير من الأحيان ألوانها، وتصير بفعل الحر والشمس التي تجلد الأشجار والرمال مثل مرآة عاكسة لأشياء مبهمة، بحيث يصاب المرء بالكآبة واليأس قبل أن يصاب بضربة الشمس والجفاف.

مرت ساعتان أو أكثر من القلق، فالعبوات الناسفة التي تترك لاصطياد السيارات تشكل الرعب الأول، بينما انطلاق رصاص الكمائن المفاجئ هو الآخر يزيد الأمر سوءاً، عبروا الكثير من الوديان المظلمة، وسارت السيارات في أرض وعرة، لكن عجلات الدفع الرباعي اجتازتها، فهتف أبو عيون لرفضه فكرة استخدام أي سيارة ليست بهذه المزايا... وكلما تقدموا أكثر نحو آمرلي كان دوي المدافع يزداد أكثر ويُرى الرصاص المذنب في السماء مثل يعاسيب مضيئة.

ترجّل السائق وتركهم لمرات عدة، ليرود بالمنظار الليلي غموض هذه الدروب، اتصل مع أقاربه ليشاغلوا العدو في أماكن أخرى، وما إن حلّ الصباح حتى وجدوهم بالانتظار، وعندما دخلوا إلى آمرلي وشاهدوا النساء وهنّ يحملنَ السلاح قال أبو عيون: هذا هو سبب صمود هذه المدينة إلى الآن.

وزعّ أبو عيون رجاله الخمسين على جميع النقاط المحيطة بمدينة آمرلي، وكان ثمة مدفع هاون يضرب عبر صوت مدوٍ في إحدى زوايا المكان.

وفاجئوا العدو بدكّ مواقعه بهاونات عيار 82، وكذلك اتصل أبو عيون بالقيادة محذراً من خطورة الوضع في آمرلي... واصفاً آمرلي على أنها على كف عفريت.. حاثّاً إياهم على حملة عسكرية لتطهير القرى التي تحيط بها، ثم اتصل من جديد، وراح يتكلم بلغة فارسية واصفاً الوضع في آمرلي.

* * *

سري وعلى الفور

من / مديرية الأمن العامة. العدد: م.ط3621

إلى/ هيئة الحشد الشعبي. التاريخ:15/ آب/ 2014

م/ معلومات عن إرهابي

حسب المعلومات التي وردتنا من مكتب معلومات مدينة العمارة بكتابها السري وعلى الفور المرقم و.ط 6488بتاريخ 1/ آب/ 2014 إن المدعو (أسمر شولي) الملقب بالحرباء.. عضو تنظيم القاعدة يتواجد الآن بين أفراد الحشد الشعبي، وقد ظهر على شاشة قناة العراقية الفضائية إلى جانب قياديي حشدنا الوطني الذي يقاتل الآن ضد إرهابيي داعش المجرمة، نحيطكم علماً بأن هذا الإرهابي ينتحل دائماً شخصية

أخرى ويغيّر هيئته كما تغير الحرباء من لونها، لذا نحذركم من خطورته على تشكيلات الحشد الشعبي، وهو يمثل خرقاً لمنظومة الحشد بصورة عامة. لذى يرجى القبض عليه وتسليمه إلى شرطة مكافحة الإرهاب لغرض التحقيق معه.. وإعلامنا.. مع التقدير.

نسخة منه إلى

ـ شرطة مكافحة الإرهاب.. لاتخاذ ما يلزم مع التقدير.

ـ أمن مديرية العمارة كتابكم المشار إليه في أعلاه للاطلاع مع التقدير.

ـ الاستخبارات العسكرية العامة.. لاتخاذ ما يلزم مع التقدير.

ـ الإضبارة.

* * *

مر أسبوع تقريباً ولم أُكلم أسمر، لا أدري لماذا كنت أخشى من محادثته، وتركت كل شيء يسير بلا تدخل مني، كنت أعرف أن الأمور ليست على ما يرام، بسبب تأخر الجيش عن فكّ الحصار، بينما كثافة نيران العدو كانت تزداد أكثر، والجرحى كانت تأنّ بلا علاج والأعتدة والمؤن تكاد تنفد، وما إن ينام أسمر حتى يجد الإرهابيين بوجوههم الممحية من أي معالم خلفه مباشرة حتى بدأ يخاف من النوم... كل المقاتلين كتبوا أسماءهم وعناوين بيوتهم على ورق، وخاطوا عليه النايلون الشفاف وثبتوه على ثيابهم، حتى يمكن التعرف على جثثهم فيما بعد، غير أن أسمر تأخر كثيراً، وحزن أكثر، وبكى في خفاراته الليلية،

كنت أُحب أن أحثه على كتابة عنوانه، لكنني كنت أحجم في اللحظات الأخيرة، حتى استدعاه أبو عيون وقال له: اكتب يا أسمر عنوانك، فأنا أعرفك تمام المعرفة، عرفتك عندما ركضنا نحو العدو، عرفت نبرة صوتك وأنت تنادي بحماس للقتال، كأنك تريد أخذ ثَأرك، ليس من الإرهاب فقط، وإنما تريد أخذه من القدر.

خط أسمر اسمه بخط النسخ (أسمر شولي ـ العنوان: العمارة ـ سوق زبيد)، وثبتها على ثيابه، وقال لي: ما رأيك يا مانوي الآن هل تريد أن أضيف شيئاً ما.. مثلاً أن أكتب أنك تسكن في رأسي منذ أن كنت بعمر 12عاماً، وأنك تثير حفيظتي في أحيان كثيرة عندما تنتقد الإسلام أو إنك تصمت لأيام في أحيان كثيرة.

ولما لم أجبه راح يَتخيل أثناء ذلك.. كيف ستمر جنازته الملفوفة بالعلم العراقي على صورته القريبة من سيطرة العماره، والمكتوب تحتها «الإرهابي أسمر شولي ـ مطلوب للقانون»، وكيف تدخل إلى سوق زبيّد، وكيف ستكون مشاعر الناس حينما يقرأون اسمه مكتوباً على اللافتة «الشهيد أسمر شولي «، وفكر: وهل سينـزلون تابوته من السيارة، ليحملوه من زقاق بيته القديم، ليدوروا به في سوق زبيّد.. وهل ستخرج الناس وتتساءل أين أهل هذا الشهيد، ربما سيقول بعض منهم لم يعرف السائق عنوان الشهيد، وسيقول بعضهم الآخر: لا، إن أهله كانوا هنا ولكنهم قد ارتحلوا، وسيقول بعضهم أيضاً: لا هو من أهالي سوق زبيّد.. لكن أهله كلهم قد ماتوا، ولا اقارب له الآن، وفكّر: عندما ستمر جنازته من أمام محل «حلاقة نعيم»، سيخرج من فيها ليحملوه على أكتافهم، ليشقوا به الجموع التي احتشدت في شارع السوق حتى

جامع الإمام علي.. فيتبعه جمع من الناس، وستدّعي بعض الأحزاب أنه من كوادرها المهمة، وقد ضحى بنفسه من أجل الوطن، وستتسابق بعض المليشيات التي لم تُشارك بالقتال ضد الإرهاب، وستدعي أنه من قياديي سراياها السلمية، وستثبت على بنايتها أسمى كلمات التأبين، وسيلقي شعراؤهم قصائد في مدحه.. وسيندم من كان يظن أن أسمر إرهابي، وسيبحثون عن صوره، وسيتباهى كل أصدقائه، وسينشرون صورهم التي يقفون فيها إلى جانبه على صفحاتهم الخاصة في الفيس بوك، وسيُصدَم المجنون عباس بن نوميه، وسيبكي، ولا أحد سيعرف حينها هل كان يبكي على أسمر؟ أم لأنه ليس هناك سرداق ينصب، ولن تقام الفاتحة ولن تذبح الذبائح، ولن تقام الولائم من أجل أن يتناول الأطعمة بلا حساب..

قال لي أسمر: إنهم يقصفوننا بعنف، ولم أسمع صوتك يا مانوي إلى الآن، لكنني فضّلت السكوت على الكلام، لأن أسئلة أسمر عن الوجود والعدم وعن الأنبياء وغيرهم صارت تربكني... وقد تعرضت بالفعل نقطتنا إلى هجوم مباغت بالرشاشات المتوسطة وقذائف الهاون، وليس معنا سوى رجلين، أحدهما كان رجلاً كبيراً من أهالي آمرلي، كان نائب ضابط في الجيش العراقي السابق، وقد خاض مع الجيش معارك كثيرة في جبهات عدة، الا أنه لم يتخلَّ إلى الآن عن بزته العسكرية، فما إن حوصرت مدينته حتى عاد إلى بدلته العسكرية، وإلى نجومه التي علقها على ياقة قميصه، فبدا وكأنه لم يتقاعد من العسكرية بعد، أما الرجل الثاني فكان شاباً من الحشد الشعبي.. بغدادي من أهالي الثورة، وكان لدينا هاون صغير عيار60 ملم، كان يجيد استخدامه النائب ضابط العتيد،

ولكن ليس لدينا سوى خمس قنابر، استخدم واحدة منها أثناء تقدم القوة المهاجمة، فأربكهم بعد أن أصاب أحد المهاجمين.

قال أسمر للنائب ضابط: أنت قائد هذه المعركة.

وكنت أريد أن أبارك له على هذه الخطوة، لكنني لم أفعل، فهذا الرجل لديه خبرة كافية لإدارة حرب.

صاح النائب ضابط: لا تطلقوا النار إلا عند الضرورة.. ارميا بالرصاص المفرد، ولا تبددا عتادكما فمعركتنا معركة ذخيرة.

قال لي أسمر: ها مانوي ما رأيك بهذا؟

لكنني لم أجابهه إلا بالصمت... كانت نقطتنا التي يحاول العدو احتلالها تبتعد كثيراً عن النقاط الأخرى، وهي عبارة عن ضفة نهر مهمل، كنا نحتمي بها ومن معنا من رصاص القناص، عندما استلمنا هذه النقطة غيّر أسمر شيئاً فيها.. بعد أن أبعد العلم عنّا، فقال له النائب ضابط حينها: أحسنت، فأربك العدو وتشتت قذائفهم، فرصاصهم كان يستهدف التلة التي ثَبتنا عليها العلم، وكان أسمر ينتظر مني أن أشيد بهذه الفكرة، لكنني آليتُ أن لا أتدخل لسبب لا أعرفه.

بدأ الهجوم في الساعة الخامسة صباحاً، حيث كان هاون عيار 80 ملم يدك المنطقة المكشوفة خلفنا، ربما لعزل نقطتنا عن بقية النقاط التي كانت تتعرض كلها للقصف أيضاً.. وهي خدعة حتى لا تعرف النقاط من هي النقطة المستهدفة للاحتلال حقاً، غيَّر النائب ضابط موقع الهاون الصغير، بعد أن أطلق منها القذيفة الثانية، وحين تطلق القذيفة الثانية

فإنها علامة لتعرض النقطة إلى الهجوم، وحاول زاحفاً أن يثبت الهاون ويهيئهُ للإطلاق...

لم يأت المدد على الرغم من مرور ساعتين، أصيب خلالها الشاب في كتفه، ولم يبقَ لدينا من قنابر الهاون سوى قنبرتين، أما الرصاص فلا نعرف كم بقيَّ منه، لاحظتُ القلق الذي انتاب أسمر، ولكنني قررت أن لا أتدخل إلا في الضرورة القصوى، فقال لي: أتصمت يا مانوي في المواقف الحرجة..

قطع العدو نصف المسافة التي تفصل بيننا، وكانوا عشرة رجال أو اكثر بقليل، وقرر أسمر ومن معه أن لا يطلقوا الرصاص إلا حين ينكشف العدو في حالة الصولة، لكن تكتيك أفراد داعش لا يخلو من دهاء، فكانوا يتقدمون أفراداً، يتقدم الواحد منهم، بينما يُكثف الآخرون إطلاق النار، استطاع الشاب وبرغم إصابته أن يقتل أحد المهاجمين ويصيب الآخر، لكن موقعه قد انكشف، فضرب صاروخ قاذفة كتف النهر الذي يحتمي به هذا الشاب فَصُرِع في الحال، زحف إليه أسمر لكنه كان قد قضى نحبه، وكنت لا أحب أن يذهب أسمر إلى موضع قد استهدفه العدو من قبل، وحتى يكسر معنويات العدو، صوّب من عند نقطة الشاب عدة رصاصات، وعاد ببندقية الشاب المدماة وطرحها أمامه.. ازداد رصاص المهاجمين ضراوة، فخاف أن تكون صولة العدو قد بدأت، فجلس أسمر ليرد عليهم، وما إن اطلق عدة عيارات نحوهم، حتى أصيب ببطنه إصابة مباشرة، وظل يسبح بالرمال باحثاً عن بندقيته التي انقذفت بعيداً عنه، عثر على بندقية زميله الذي استشهد، فوجهها نحو العدو دون أن يرفع رأسه حتى انتهى عتادها، قلت له: اطمئن.. إصابتك ليست

قاتلة، قال وهو يتألم: ها قد سمعنا صوتك أخيراً، كنت أعتقد أنك لن تتكلم إلا عند موتي، أطلق النائب ضابط قنبلة سقطت بين المهاجمين، وقد لاحظه أسمر وهو يعدل من زاوية الهاون ويجعلها عمودية بيديه الداميتين، وكأنه يفكر بطلقة الانتحار الأخيرة، كما يُطلق عليها عادةً.. إذ إن المدفع يوجه عمودياً، وحينما تنطلق القنبرة تذهب نحو السماء ثم تعود لحالة السقوط الحر لتدك مدفعها ورامیها معاً، صرخ به أسمر (عندي رمانه) ملوحاً بقنبرة دفاعية كانت بيده اليسرى النازفة من جرح ما، بدت لعينَي نائب الضابط كحجر أحمر، ففهم النائب الضابط ما يجول بخاطر أسمر، فأعاد زاوية الهاون إلى وضعها السابق، عاد الرصاص من جديد وهو يُذري الرمال ويئزّ قريباً من رؤوسهم، فلما أطلق أسمر نحوهم الرصاص، توقفت بندقيته وأخرسّ صوتها، «نفد عتادي» صاح إلى زميله بصوت ملتاع، فلما رآه يتخبط بدمائه زحف نحوه، وقبل أن يصل إليه ضربهم صاروخ قاذفة فتناثرت الشظايا حولهم، وشعر أسمر بإحداها تلسعه في فخذه وأخرى في ظهره، حاول ان يأخذ بندقية زميله، وكان يمسك بها بيد مدماة، فلما شعر النائب ضابط بالبندقية تنسحب من يده فتح عينيه وقال لأسمر:

ـ لا تدعهم يقطعوا رأسي..

فقال له أسمر: لديَّ رمانة، لم تصلنا النجدة للأسف.. لا بد أنهم يتعرضون إلى هجوم مثلنا.

فقال زميله بصوت بدا بعيداً لأذنَي أسمر: كان من المفترض أن تصل النجدة بعد القذيفة الثانية.. هذا ما كنا قد اتفقنا عليه.. أتتذكر، واستدرك، ولكن بطنك ينـزف، فانتبه أسمر لثيابه وقد احمرّت وتلوثت بالرمال.

قال أسمر وكأنما يكلم نفسه: إصابة خارجية لم تصب القلب ولا الرئتين، لا بد إنها أصابت الأمعاء.

امتلأت أذن أسمر اليسرى بالدم نتيجة لشظية ناعمة شرخت صيوان أذنه، وصار يسمع من خلالها طنيناً ورفيفاً لحركة تشبه تدفق الماء، فزاد ذلك من عطشه أكثر.

رفع رأسه قليلاً، فرأى شخوصهم تحاول التقدم، معتقدين أن أسمر وجماعته قد قضيَّ عليهم، فتح أسمر النار باتجاههم، حتى انتهى عتاد بندقية النائب ضابط، ولاحظ سقوط بعضهم وانبطاح بعضهم الآخر، سقطت قذيفتا هاون قريباً من تلة العلم، ومن ثم رشق الرصاص ضفة النهر وتطايرت الرمال.. حاول أن يكلم زميله بلسانه المتخشب، لكنه أدرك أن نوبة إغماء قد اختطفت الرجل لفترة، فمد أسمر يده ليهزه، فاستيقظ الرجل وبدا كأنه ميت منذ ساعات، بسبب فقدانه لكثير من الدماء التي كانت تنزف من أكتافه ويديه، أشار بيده إلى قنبرة الهاون الأخيرة، فقد كانت في حضن الرجل وقد تلوثت بالدماء، حاول أسمر إمساكها، ولاحظ أن يديه كانتا أضعف من حمل القذيفة، فخاف أنه لا يستطيع رفعها إلى فوهة الهاون عند تقدم العدو، شعر أسمر بالغثيان، وعرف أن نزيفاً داخلياً قد امتلأت به معدته، فخاف أن يفقد وعيه، أمسك الرجل بندقيته فقال له أسمر: إنها بلا عتاد، فأجابه: أعرف..تحامل على الامه واسندها بجسده فاستقامة وصار اخمسها للأعلى، فدوّى الرصاص قريباً منهم، فقال له: الآن أطلق هاونك، فتحامل أسمر على كوعيه، محاولاً رفع القنبلة إلى فوهة الهاون، وما إن انقذفت نحو العدو حتى رمى بنفسه قريباً من زميله، وبحثت يده اليمنى على الرمانة وأمسك

بها، وقبل أن يسحب مسمار الأمان نده على زميله وهزّه فقال الرجل: نعم افعلها.

وصمت وكأنه عاد إلى الإغماء ثانية، أو مات، تمنى أسمر: أن يشرب الماء قبل كل شيء، وقال في نفسه: وليحدث بعد ذلك ما يحدث.

سحب أسمر مسمار أمان الرمانة بأسنانه، وظل ممسكاً بها، داسّاً يده والرمانة معاً تحت الرمال، منتظراً ظهور العدو، شعر بأصابع يده تتيبس بآلام لا تطاق.. كان أكثر ألماً من الجرح النازف قرب سرته.

قررتُ في هذه الحال أن أتدخل لئلا يفقد أسمر وعيه فينفجر صاعق الرمانة في يده قبل وصول العدو.

قلت له: ها.. أسمر ما هي مشاعرك الآن؟

قال: ليس لدي مشاعر، أنا عطشان.. تكلم عن الماء أكثر من المشاعر أرجوك يا مانوي يا صديقي.. لكن تعاليم ماني.

وأشار إلى (الفلاش) المعلق في رقبته... واستأنف:

وأنت تعرف الموقع الإلكتروني الذي نشرته عليه، وتعرف الشفرة كلها، وأعتقد أن مهمتي قد انتهت.

أمسك الفلاش بيده اليسرى وبرغم الألم الذي شعر به قطع الخيط الذي يلتف على رقبته، ورمى الفلاش المدمى وقال لي: اعذرني يا مانوي لا أريد أن أموت وفي رقبتي شيء، أريد أن أموت حراً... ثم قال بألم: أريد أن أشرب الماء، وأريد أن أصمد حتى وصولهم، وأخشى أن يقطعوا رؤوسنا شخوص الكوابيس قبل أن أفجر القنبرة على هؤلاء الارهابيين، فأنا أشعر بهم يقتربون منا أيضاً.

فقلت له: ولكنهم سيصلون معاً.

قال: لا تتركني أنَمْ أرجوك...

استيقظ النائب ضابط، وقال بصوت ضعيف:

مع من تتكلم يا ابني!؟

قال أسمر: أكلم نفسي.. إنني أتألم، يدي تخشبت على القنبلة، أخشى أنها ستنفجر.

بدا صوت أسمر مختلط الحروف وكأن طاقته قد نفدت هي الأخرى مثل عتاده، ولا أظن أن النائب ضابط قد فهم من كلماته المشوشة شيئاً، وبدا وكأنه يتكلم أثناء النوم، فكّر أسمر أن يرخى أصابعه على الرمانة، لكن صلية من الرصاص ضربت كتف النهر فتطايرت الرمال، فقال النائب ضابط وكأن صحوة الموت قد انتابته:

الآن أشعر بهم يتقدمون نحونا تهيأ لهم.. فتلك كانت رصاصات الاختبار.

عاد الصمت الثقيل، ولم نسمع شيئاً فقلت لأسمر:

ـ انتبه، ألا تشعر بهم، إنهم يتقدمون نحونا

قال أسمر: إنني أشعر بشخوص الكوابيس يقتربون منا.

قلت له: سيصلون معاً، وهذه فرصتك للقضاء عليهم فتموت بلا كوابيس بعد ذلك، لكن لا ترخِ أصابعك.. أرجوك.

ثم فجأة قذف الإرهابيون بقنبلة يدوية مثل تلك التي تتخشب أصابع أسمر عليها فتدحرجت بعيداً في النهر المليء بالرمال، فانفجرت بعد

لحظات وتطايرت شظاياها مع الرمال، فغطى الرمل جسديهما، وتدفق الدم صابغاً الرمال التي كانت تغطي بطن النائب ضابط الضامر ومحاجر عيون أسمر المغمضة، وشعر أسمر بحرارة بعض شظاياها تكوي خاصرته.

ومن خلال الألم، ظَهر في مخيلة أسمر ثلاثة أشباح، إذ إنه لم يستطع فتح عينيه بسبب اختلاط الدماء والرمل في محجريه، شعر بلغطهم يختلط في أذنيه، مثلما تختلط الأشياء بالحلم، ومثلما كانوا يظهرون له في الكوابيس بأشكالهم المختلطة المعالم، فأَنّ النائب ضابط بصوت ضعيف، فكان يخشى أن يكون أسمر قد نام أو فقد وعيه أو مات وقد تيبست أصابعه وتشنجت على الرمانة.

قلت لأسمر: إنهم يقتربون.

قال: أشعر بهم.

قلت: صار لا فرق بين الحياة والموت، وبين الكابوس والواقع.

ولا أعتقد أنه سمعني بعدما ازداد اللغط، وظهر ثلاثة أشباح للوجود حاملين بنادقهم وكان أحدهما يجرد حربته الكبيرة معلقاً بندقيته الطويلة على كتفه، فاختلطوا في مخيلة أسمر مع أشكال الأشباح التي كانت تطارده في كوابيسه، وما إن اقتربوا وتقدم صاحب الحربة ليحتز الرأسين حتى تململ النائب ضابط وهمّهَمَ بصوتٍ فارغ بلا كلماتٍ، وهمستُ عندئذٍ برأس أسمر:

أطلق قنبرتك الآن.

فأرخى أسمر أصابعه المتيبسة عن أمان الرمانة الكامنة بكفه المُدمى، محاولاً رفع ذراعه المصاب بقدر ما يملك من تحملٍ للآلام ناثراً الرمال

المتراكمة عليها، انقذفت القنبرة الملوثة بالرمل والدماء وتدحرجت بصوتها المكتوم كشيء مرعب وكريه...

* *

كان المانوي هو الآخر قد أرخى أصابعه الوهمية، وقد رمى «الحقيقة» التي كان يخبئها في مكان ما من وعيه، ناثراً غبار الأسئلة التي تراكمت طيلة السنين التي مكثها في ذهن أسمر ومخيلته، ورمى هذه الحقيقة كما تُرمى كُرة البولنك، فتدحرجت باتجاه مَجسّات وعي أسمر الذي جمدته المفاجأة فنسى بسبب ذلك القنبرة التي تتدحرج بالرمال والتي ستفتك به وبجميع من حولها، وظل يتطلع بدهشة منتظراً قنبرة الحقيقة المتجهة نحو وعيه، بيد أنها تثاقلت بدورانها وتطاولت المسافة، وكذلك تمددت لحظات انتظار انفجار القنبرة التي رماها أسمر والتي تدحرجت بالقرب من أقدام الشخوص الذين ظهروا في كوابيس أسمر ثم تحولوا إلى ثلاثة رجال في الواقع الذي يعيشه، بهيئات مخيفة ووجوه شمعية وبلحى طويلة وأسلحة مدماة، غايتهم احتلال النهر المندرس وفتح ثغرة في السور الوهمي الذي رَسمه أهالي آمرلي بأجسادهم، وقطع رأس كل فرد سواءً قاومهم أم لم يقاوم.

غير أن لحظاتهم الوحشية تلك تمددت بشكل غريب، وكادت أن تتوقف مثلما كادتا أن تتوقفان الحقيقة المتدحرجة في رأس أسمر والقنبرة المرمية في الرمال... فظهرت المفاجأة وارتسمت مختلطة مع ألوان الدهشة والخوف في وجوه الأعداء، وتحولت سحناتهم ومعانيها من مُرعبة إلى مُرتعبة بغضون تلك الثواني المتباطئة، مما حدا بأحدهم

أن يَرمي سكينه الضخمة بشكل لا إرادي لفرط دهشته من اقتراب الرمانة اليدوية التي تدحرجت قريباً من قدميه، فقفز متجنباً القنبرة ومطوحاً بسكينه، وكأنما كان يهشّ بها شبح الانفجار الذي سيملأ الحيز بنيرانه، وربما سترتفع هذه السكينة ثانية بفعل الانفجار القادم قبل أن تسقط وتلامس الرمال... فالتفّت أجسادهم لا إرادياً، وانطلقت أصوات بعضهم بصوت كانت لنبراته المتوحشة التي ستختلط مع الدوي القادم بنشيج استطال منتظراً هو الآخر النيران التي ستلتهم تلك الأفواه لتوقف تدفق حشرجة التأوه المخيف منها، بينما تحركت عضلاتهم التي انفصلت عن أدمغتهم في تلك اللحظات، وبدأت الذاكرة.. ذاكرة العضلات بعملها، بعدما أعلنت خلايا عضلاتهم حالة الطوارئ القصوى كحالة ميؤوس منها، وراحت العضلات تفكر بكيفية تقليل الخسائر التي ستمنى بها عاجلاً أم آجلاً، مما جعل سبابة أحدهم أن تضغط على زناد سلاحه، فانطلقت رصاصاته الطائشة بشكل أخرق نحو الفضاء، بينما كان جسده يتلوى مثل حصان قبل أن ينهار نهائياً في ظلام العدم...

هذه اللحظات التي تمددت بشكل غريب على الإرهابيين، كذلك استطالت ممطوطةً حتى كادت ان تنقطع في ذهن أسمر، وهو يحاول فهم هذه الحقيقة التي رماها المانوي نحوه متخيلاً انفجارها المدوّي في ذلك الوقت المستحيل، وربما ستنفجر مع انفجار القنبرة اليدوية التي كانت تتدحرج بالرمال تحت ظلال شخوص الكوابيس وشخوص الواقع معاً.

ـ تمت ـ

تمت

4/7/2018

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

Arab_Books

بنادق النبي

ولمّا لم يجد في أحد الأيام عملا، قرر أن يشرب الشاي في المقهى، ثم بعد ذلك عبر باتجاه نصب الحرية... بدا له الحصان مخيفاً بحركته والتواء جسده، كأنما هناك نار لا مرئية كان يفكر بها النحات "جواد سليم"، وقد وضعت تحت حوافر الحصان الجامح، وهو يشهق عالياً نحو السماء، حتى كأنما سمع صوت صهيله يشقّ سماء بغداد المدخّنة بانفجار سيارة مفخخة ضربت سوق شلال بحي الشعب، يقال: إن الخيول تتكهن بالزلازل والفيضانات والكوارث الطبيعية، وتظل تصهل وتجمح في مرابطها، فلا نعرف هل فكّر جواد سليم بحصانه وجعله يتكهن بما تمر به البلاد الآن من مفخخات أحرقت الأخضر قبل اليابس...

عَبر أسمر من تحت النصب وتخيل صوت تحطم قضبان السجن بقبضة الجندي الأسطوري، وتساءل: هل هي قبضة الزعيم عبد الكريم قاسم التي حاولت أن تُحطم أغلال وقضبان سجن الفقراء، وقال في نفسه: الفقر مثل الدكتاتور لأنه ينتج السجون... ثم راح يردد: الفقر مثل الدكتاتور لأنه ينتج السجون، ردّدها مع نفسه وكأنه يعصر معناها ويشربه مثلما يشرب المرء الدواء المرّ.

سطور للنشر والتوزيع

ISBN 978-1-7732225-7-8

9 781773 222578

دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07700492576
e.mail: bal_alame@yahoo.com